

وَزَارَةُ الثَّقَافَةِ
مُديَرِيَّةُ إِحْيَاءِ وَنَشْرِ الثَّرَاثِ الْعَرَبِيِّ
الْمُتَخَارِسُ الثَّرَاثُ الْعَرَبِيُّ
(١٣٠)

الْمُتَخَارِسُ

عَيْنُ الْأَدَبِ وَالْمُتَخَارِسُ وَزَيْنُ الْحَسْبِ وَالْمُتَخَارِسُ

لِلْأَبِيِّ الْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ هُذَيْلٍ

اخْتَارَهَا
د. عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ كُرْدِي



الْمُتَخَارِجِينَ

عَيْنُ الْأَدَبِ وَالْإِسْيَاسَةِ وَزِينِ الْحَسَبِ وَالْإِيَّاسَةِ

إهداء ٢٠٠٧

مديرية المطبوعات والنشر - وزارة الثقافة
الجمهورية العربية السورية

وَزَارَةُ الثَّقَافَةِ
مُديرِيَّةُ إحيَاءِ ونَشْرِ التُّراثِ العَرَبِيِّ
النُّسخ من التُّراثِ العَرَبِيِّ
(١٣٠)

الْمُختَار من

عَيْنِ الْأَدبِ وَالسِّيَاسَةِ وَزِينِ الْحَسَبِ وَالْإِيَّاسَةِ

لِأَبِي الْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ هُذَيْلٍ

اخْتَارَهَا
د. عَمَّالِي إِبراهيم كُرَيْمِي



مَنْشُورَاتُ وَزَارَةِ الثَّقَافَةِ
فِي الْجُمْهُورِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ السُّورِيَّةِ
دَمَشَق ٢٠٠٥

المختار من عين الأدب والسياسة وزين الحسب والرياسة / لأبي
الحسن علي بن عبد الرحمن بن هذيل الأندلسي؛ اختارها علي
إبراهيم كردي .- دمشق : وزارة الثقافة ، ٢٠٠٥ .- ٢٩٦ ص ؛
٢٠ سم .- (المختار من التراث العربي ؛ ١٣٠) .

١- ٨١٨,٠٢ هـ ذي م ٢- العنوان ٣- ابن هذيل
٤- كردي ٥- السلسلة

مكتبة الأسد

المقدمة

كتاب «عين الأدب والسياسة، وزين الحسب والرياسة»
لعالم أندلسي جليل من علماء القرن الثامن الهجري، هو أبو
الحسن علي بن عبد الرحمن بن هذيل الفزاري الغرناطي.

ولم نقف لابن هذيل على ترجمة فيما عدنا إليه من
المصادر الأندلسية، وكلّ ما نعرفه عنه أنّه عاش في كنف
«الدولة النصرية»، أو دولة «بني الأحمر» في غرناطة، وأنّه
أهدى كتابين من كتبه إلى السلطان الثامن من سلاطين بني
الأحمر، محمد بن يوسف بن اسماعيل بن فرج، المولود سنة
٧٣٩ هـ، والمتوفى سنة ٧٩٣ هـ. وأنّه يدين بالتلمذة للشريف
الغرناطي المتوفى سنة ٧٦ هـ.

والكتاب من الكتب المهمة، الفريدة في بابها، جمع فيه
صاحبه كلّ ما يتعلّق بالحكم، وسياسة الرعيّة، ويبيّن ما يجب
أن يتحلّى به الملك، أو الرئيس، من صفات، وخلال،
وسجايا، تجعله أهلاً للرئاسة.

ومادة الكتاب منتقاة من كتب التراث الإسلامي بفروعها المختلفة، وصرح المؤلف في مقدمة تأليفه أن عمله كان مقصوراً على حسن الاختيار، والترتيب، والتبويب، والتّهذيب، والتقريب، فقال:

« . . . وفضيلة هذا التّأليف هي في جمع ما افترق، مما تناسق واتسق، واختيار عيون، وترتيب فنون، من أحاديث نبوية، ومكارم أدبية، وحكم باهرة، وأبيات نادرة، وأمثال شاردة، وأخبار واردة، ووصايا نافعة، ومواعظ جامعة، ومروءات سرية، وسياسات سنية، ومعانٍ مستطرفة، وحكايات مستطرفة، وجميع ذلك مطّرد بكلّ شعر جزل سهل، بريء من الغزل والهزل . . . » .

فالجدية هي سمة التّأليف الذي يسن أيدينا، لأنّ سموّ الدُّول، ورفعتهما مقرونان بالجدّ والكدّ، والنظر إلى معالي الأمور، والابتعاد عن الملذّات والشهوات .

وجعل المؤلف كتابه في أربعة أقسام:

- الأول: في نبذ من الأحاديث والحكم والأمثال التي يقوى الشّاهد بها، ويعظم الاستدلال .

- الثاني : في السُّؤدد والمروءة، ومكارم الأخلاق،
ومداراة النَّاس، والتأدب .

- الثالث : في طُرْف من الحكايا والآداب الصَّادرة عن
أولي الألباب والأحساب .

- الرابع : في جمل من الوصايا والمواعظ الحسان،
العظيمة الفائدة والمنفعة لكل إنسان .

وقد ضمّن المؤلف كلَّ قسم من الأقسام مجموعة من
الفصول كالآتي :

ضمّ القسم الأوّل الفصول التالية : فصل إنّ، إنّما، إنّ،
ما، لا، إيّاك، إذا من، ليس، ربّ .

ثمّ جاء بفصول الأعداد فصل واحد، فصل اثنين، فصل
ثلاثة . . . إلى فصل عشرة، وكان في كل فصل يبدأ بالحديث
الشريف، ثم بالحكمة المأثورة عن السلف، ثم بالشعر المبدوء
بالحرف أو العدد صاحب الفصل .

أما في القسم الثاني فأتى بأربعة فصول، اختصّ الفصل
الأول بالأدب، والثاني بالمروءة، والثالث بالمال، والرابع في
التحبّب إلى النَّاس ومداراتهم، والمسألة بهم .

في حين ضم القسم الثالث فصلين فقط : الفصل الأول : في الأخبار التي تتعلق بذي الأمرة والسياسة . والفصل الثاني : في الأخبار التي تتعلق بذوي الهمم والرياسة .

وضم القسم الرابع فصلاً في مواعظ النبي ﷺ ، ووصاياهم ، ومواعظ السلف الصالح ووصاياهم ، وغيرهم من العلماء والحكماء .

كما ضم هذا القسم مجموعة من الفصول لا عناوين لها ، تضم مجموعة من القصص والأخبار والمواعظ عن السلف الصالح ، وتخدم الغاية من تأليف الكتاب .

وختم الكتاب بفصل يتعلق بالسلاح ، وأنواعه ، ووجول إتقان استعماله ، وهو منقول من كتاب «تحفة الأنفس» ، وبالتحديد من القسم الثاني منه المطبوع بعنوان : «حلية الفرسان وشعار الشجعان» .

وقد خلف أبو الحسن بن هذيل مجموعة من الكتب طبع أكثرها وهي :

١ - تحفة الأنفس وشعار سكاّن الأندلس ، طبع كاملاً بباريس سنة ١٩٢٢م ، وطبع الجزء الثاني منه محققاً بعنوان «حلية الفرسان وشعار الشجعان» .

- ٢ - مقالات الأدباء ومناظرات النُجباء . مطبوع .
- ٣ - تذكرة من اتقى : مطبوع .
- ٤ - الفوائد المسطرة في علم البيطرة مطبوع .
- ٥ - كمال البغية والنَّيل ، ذكره في عين الأدب والسياسة ص ١٠٦ و ١٢٥ ، ونقل منه .
- ٦ - عين الأدب والسياسة وزين الحسب والرياسة ، وطُبع غير طبعة :
- أولها في مطبعة الاعتماد بمصر سنة ١٣٠٣ هـ -
١٨٨٥ م .
- ثم طبع على هامش كتاب «غُرر الخصاص الواضحة»
للوطواط بالمطبعة الأدبية بمصر سنة ١٩٦٠ م .
- ثم طبع بدار الكتب العلمية ببيروت ، وهي التي
اعتمدتها في الاختيار .
- ويجب لفت النظر إلى أن طبعات الكتاب كلها ملأى
بالتصحيف والتحريف ، وتُمر بالأغلاط الطباعية وغيرها ، مما
يجعل الكتاب في حاجة إلى تحقيق علمي ، يعود بالنفع على
جمهرة الباحثين .

طريقة الاختبار :

- حافظت على ترتيب أقسام الكتاب ، وعلى ترتيب
الفصول وعناوينها .

- اخترت الأخبار والحكايات والمواعظ والأشعار
بعناية ، واستبعدت المكرر والمتشابه منها ، وقصدت التنوع في
الاختيار بين الشعر والنثر .

- حاولت - قدر المستطاع - تحرير النصوص المختارة من
التحريف والتصحيف الواقعين في الكتاب المطبوع .

- أوردت النصوص كما جاءت في المطبوع ، ولم أعمد
إلى تحقيقها ، والتعليق عليها ، لئلا أثقل الكتاب بالخواشي ،
وتمشيًا مع خطة الوزارة في تقريب كتب التراث من عموم
الناس ، وبأبسط صورة .

وفي الختام أرجو من الله سبحانه وتعالى أن أكون قد
وفقت في تقريب كتاب «عين الأدب والسياسة وزين الحسب
والرياسة» من جمهور القراء ، والله من وراء القصد .

د. علي إبراهيم كردي

٢٠٠٣/٩/١ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي وهب لنا العقول والأذهان، ومنحنا فصاحة اللسان، وألهمنا التبيان، وحضنا على التحلي بالحلي الأدبية، والتخلق بالمكارم العلية، ورغبنا في الاقتداء بالسُنن السنية، والاهتداء بالأقوال المرضية الزكية، المتكفلة بالسعادة الدنيئة والدنيوية، وأرشدنا إلى الطريق الأسنى، وأمرنا بالإحسان والأفعال الحسنى، ونهانا عن الأخلاق الدنيئة اللثيمة، والأفعال الرديئة الذميمة. وأنعم علينا بالبلاغة والبيان، فقال جلَّ وعلا في مُحكم القرآن: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ، وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (البقرة: ٢٦٩).

فبالبيان تُستخرج الحقائق، وتُنمقُ الحكم والرقائق، ويتوصلُ إلى معرفة الخالق، ويُستعانُ على شرح العلوم، ويتفننُ في الكلام المنشور والمنظوم، وبمكارم الأخلاق يُستدلُّ

على فضل الطَّبْع، وَكَرَمِ النَّجْرِ^(١)، وطيب الأعراق.
وبالاستمساك بحبل المروءة والآداب تظهر نتيجة العقل وثمره
الألباب.

وبعد، فإنَّ التَّأليف غير موقوف على زمان، والتَّصنيف
ليس بمقصود إلى أوان، لكنَّها صناعةٌ ربَّما قصَّرت فيها سوابق
الأفهام، وسبيلٌ ربَّما حادَّت عنها أقدامُ الأوهام.

قال بعضُ الحكماء: لِكُلِّ شَيْءٍ صِنَاعَةٌ، وَصِنَاعَةُ
التَّأليفِ صِنَاعَةُ الْعَقْلِ.

قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: لولا تفسيرُ
العُلماء، ونَقْلُهُمْ آثارَ الأوائل في الصُّحُف، لبطلَ أوَّلُ العلم
وصنَّاع آخره، ولذلك قيل: لا يزالُ النَّاسُ بخير ما بقي الأوَّلُ
حتَّى يتعلَّم الآخِرُ.

قال الشاعر:

إِذَا تَحَدَّثْتُ فِي قَوْمٍ لِتُوْنِسَهُمْ مِنْ الْحَدِيثِ بِمَا مَضَى وَمَا يَأْتِي
فَلَا تُعَاوِذْ حَدِيثًا إِنْ طَبَعَهُمْ مُوَكَّلٌ بِمُعَادَاةِ الْمُعَادَاتِ

(١) النَّجْرُ وَالتَّجَارُ: الْأَصْلُ وَالْحَسْبُ.

والذي عليه في التآليف المدار، وهو حسن الانتقاء
والاختيار، مع الترتيب والتبويب، والتّهذيب والتقريب.

قال بعض العلماء: اختيار الكلام أشد من نحت السهام
وقالوا: اختيار المرء وافد عقله، ورائد فضله.

وفضيلة هذا التآليف هي في جمع ما افترق، مما تناسب
واتسق، واختيار عيون وترتيب فنون، من أحاديث نبوية،
ومكارم أدبية، وحكم باهرة، وأبيات نادرة، وأمثال شاردة،
وأخبار واردة، ووصايا نافعة، ومواعظ جامعة، ومروءات
سريّة، وسياسات سنيّة، ومعان مستظرفة وحكايات
مستظرفة. وجميع ذلك مطرد بكل شعر جزل سهل، بريء من
الغزل والهزل.

وإنما يدم ويكره من الكلام ما كان لغواً غير نافع،
وهزلاً عن منهج الجد مانع. وأما ما يثبه به غافل، ويعلم به
جاهل، ويدكر به عاقل، فذاك، مما يحسن، ويجميل، ويرجع
به عقل سامعه وينبل، ويقرب ما بعد مأخذه عليه، ويسهل
ما صعب تناوله بالتبنيه والإشارة إليه، إذ الشكل مضاف إلى
شكله، والجنس إلى جنسه ومثله، أجعله إن شاء الله مختصراً
جامعاً، وتصنيفاً مفيداً نافعاً، تصغي إليه الأفئدة والأسماع،

ولا تملأه القلوب والطباع، لأن التطويل داعٍ إلى الملل، كثيراً ما يقع فيه الخطأ والزلل وأقسمه على أربعة أقسام:

القسم الأول: في نبذ من الأحاديث والحكم والأمثال، التي يقوى الشاهد بها وبعض الاستدلال.

القسم الثاني: في السؤدد والمروءة ومكارم الأخلاق، ومدارة الناس، والتأدب معهم في حالتَي الغنى والإملاق.

القسم الثالث: في طُرف من الحكايات والآداب، الصادرة عن أولي الألباب والأحساب.

القسم الرابع: في جُمَل منه الوصايا والمواعظ الحسان، العظيمة الفائدة والمنفعة لكل إنسان.

وقد جمعتُ بعون الله عزّ وجلّ في كتابي هذا من الكلام الذي يحصلُ الانتفاع به أنواعاً جمّة في فنون مختلفة، وضروب متفرقة، ومعانٍ مؤتلفة، وحسبنا وكفى ما نقلتُ فيه من آيات التنزيل، وكلام المصطفى، وسميته بـ «عين الأدب والسياسة، وزين الحسب والرياسة»، والله تعالى الموفق لما فيه الرضا، والنجاة لنا في الآخرة والأولى.

وهذا حين ابتدائي بذكر الأقسام، وتقييد الكلام، بحول الله تعالى وقوته.

القسم الأول

في نُبذ من الأحاديث والحكم والأمثال
التي يقوى الشاهد بها ويعظم الاستدلال

اعلم أن كلام الحكماء أكبر من أن يدركه الإحصاء،
ويستوفيه الاستقصاء، لكنني أورد هذا القسم من الحكم
المأثورة، والأمثال المشهورة، والفقر المنظومة والمنثورة، ما فيه
مقنع وكفاية، وإن كنت لا أدرك من ذلك غاية ولا أبلغ إلى
نهاية.

قال بعضهم: من تفرد بالعلم لم توحشه خلوة، ومن
تسلّى بالكتب لم تفتته سلوة. وإن هذه القلوب تملّ كما تملّ
الأبدان، فابتغوا لها طرائف الحكمة شجرة تنبت في القلب
وتثمر في اللسان، وهي موقظة للقلوب من سنة الغفلة،

ومنقذة للبصائر من سكرة الحيرة، ومُحييةٌ لها من موت الجهالة، ومُستخرجةٌ لها من ضيق الضلالة.

وقد أثنى الله سبحانه على الحكمة فقال: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (البقرة ٢٦٩) وقال رسول الله ﷺ: «قَلْبٌ لَيْسَ فِيهِ مِنَ الْحِكْمَةِ شَيْءٌ كَبِيتَ خَرَابٌ وَلَا عَامَرٌ لَهُ».

وقال لقمان: إِنَّ الْقَلْبَ لَيَحْيَا بِالْكَلِمَةِ مِنَ الْحِكْمَةِ، كَمَا تَحْيَا الْأَرْضُ بِوَابِلِ الْمَطَرِ.

وقال أبان بن سليم: كلمةُ حكمةٍ من أخيك خيرٌ لك من مالٍ يُعطيك، لأنَّ المالَ يَغطيك، والكلمةُ من الحكمة تَهديك.

وقال بقراط: من اتَّخَذَ الْحِكْمَةَ لِحَاجَةً، اتَّخَذَهُ النَّاسُ إِمَامًا.

ويرتبط الكلام في هذا القسم في عشرين فصلاً من المقال: عشرة راجعة إلى بعض حروف المعاني المصدرة بها الآداب والأمثال، وعشرة من الأعداد التي تقوم للمستشهد بها مقام الاحتفال، والقصد في ذلك الاختصار، وترك الإكثار، ومن الله تعالى نسأل الإعانة والتوفيق، والهداية إلى سواء الطريق.

فصل إنَّ

فمن الحديثِ الواردِ عن النبي ﷺ : «إنَّ الحكمةَ تزيدُ الشَّريفَ شرفاً»

«إنَّ من الشَّعرِ لحكمةٌ، وإنَّ منَ البيانِ لِسِحْرٌ»
«إنَّ الأرواحَ جنودٌ مُجَنَّدَةٌ، فما تَعَارَفَ مِنْهَا اثْتَلَفَ، وما تَنَافَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ»

«إنَّ أشكرَ النَّاسِ لله أشكرُهُم للنَّاسِ» .
«إنَّ لكلِّ دِينٍ خُلُقًا، وإنَّ خُلُقَ هذا الدِّينِ الحَيَاءُ» .
«إنَّ منَ حُسْنِ إِسْلَامِ المرءِ تَرْكُهُ ما لا يَعْنِيهِ»
«إنَّ التَّوَاضُّعَ لا يَزِيدُ العَبْدَ إِلَّا رِفْعَةً، فَتَوَاضَّعُوا يَرْفَعَكُمُ اللهُ، وإنَّ العَفْوَ لا يَزِيدُ العَبْدَ إِلَّا عِزًّا، فَاعْفُوا يَعِزَّكُمُ اللهُ» .
«وإنَّ الصَّدَقَةَ لا تَزِيدُ المَالَ إِلَّا كَثْرَةً، فَتَصَدَّقُوا يُغْنِيَكُمُ اللهُ» .

ومن الحكم الماثورة عن السلف وغيرهم:

«إنَّ الصَّوَابَ فِي الْأَسَدِّ لَا الْأَشَدَّ

«إِنَّ الْقُدْرَةَ تُصَغِّرُ الْأَمْنِيَّةَ .

«إِنَّ الْعِلْمَ عِوَضٌ عَنْ كُلِّ لَذَّةٍ، وَمُغْنٍ عَنْ كُلِّ شَهْوَةٍ .

«إِنَّ أَوْضَعَ الرَّأْيِ مَا سَنَحَ فِي الْبَدِيهَةِ .

«إِنَّ الْمُصِيبَةَ إِذَا نَزَلَتْ إِنَّمَا هِيَ وَاحِدَةٌ، ، فَإِنْ جَزَعَ

صَاحِبُهَا كَانَتْ اثْنَتَيْنِ .

«إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَسَّعَ أَرْزَاقَ الْحَمَقَى لِيَعْتَبَرَ الْعُقَلَاءَ ،

وَلِيَعْلَمُوا أَنَّ الدُّنْيَا لَا يُنَالُ مَا فِيهَا بِعَقْلِ ، وَلَا حِيلَةٍ .

أَنَّ لِكُلِّ فَضْلٍ زَكَاةً ، وَإِنَّ زَكَاةَ الْمَالِ الصَّدَقَةُ عَلَى الْفَقِيرِ

الْمُحْتَاجِ . وَإِنَّ زَكَاةَ الْقُوَّةِ الْمُدَافَعَةُ عَنِ الضَّعِيفِ الْمَظْلُومِ . وَإِنَّ

زَكَاةَ الْبَلَاغَةِ الْقِيَامُ بِحُجَّةٍ مَنْ قَدْ عَجَزَ عَنْ حُجَّتِهِ ، وَإِنَّ زَكَاةَ

الْجَاهِ أَنْ يُعَادَبَ عَلَى مَنْ لَا جَاهَ لَهُ وَإِنَّ زَكَاةَ الْعِلْمِ التَّعْلِيمُ لِمَنْ

قَصُرَ عِلْمُهُ

إِنَّ الْأَمَالَ قَطَعْتَ أَعْنَاقَ الرِّجَالِ كَالسَّرَابِ غَرَّ مَنْ رَأَاهُ ،

وَأَخْلَفَ مَنْ رَجَاهُ .

ومن الشعر في هذا الفصل قولهم .

إنَّ اللَّيْسَالِي لِلْأَنَامِ مَنَاهِلٌ
تُطَوَّى وَتُبْسَطُ بَيْنَهَا الْأَعْمَارُ
فَقِصَارُهُنَّ مَعَ الْهُمُومِ طَوِيلَةٌ
وَطَوَالُهُنَّ مَعَ السُّرُورِ قِصَارٌ
غيره :

إنَّ الشَّدَائِدَ قَدْ تَغَشَى الْكَرِيمَ لِأَنِّ
تُبَيِّنُ فَضْلَ سَجَايَاهُ وَتُوضِحُهُ
كَمِبرَدِ الْقَيْنِ إِذْ يَعْلُو الْحَدِيدَ بِهِ
وَلَيْسَ مَقْصَدُهُ إِلَّا لِيُصْلِحَهُ^(١)
غيره :

إنَّ الْمُعَلَّمَ وَالطَّبِيبَ كِلَاهُمَا
لَا يَنْصَحَانِ إِذَا هُمَا لَمْ يُكْرَمَا
فَاصْبِرْ لِدَائِكَ إِنْ جَفَوْتَ طَبِيبَهُ
وَاصْبِرْ لَجَهْلِكَ إِنْ جَفَوْتَ مُعَلِّمًا

(١) - القين : الحداد .

غيره:

إِنَّ النُّسَاءَ كَأَشْجَارٍ نَبْتَنَ لَنَا
مِنْهَا الْمِرَارُ وَبَعْضُ الْمُرِّ مَأْكُولٌ
إِنَّ النُّسَاءَ مَتَى يُنْهَيْنَ عَنْ خُلُقٍ
فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُنَّ لَهَا بَدَأٌ مَفْعُولٌ

غيره:

إِنَّ الْغُصُونِ إِذَا قَوَّمَتْهَا اعْتَدَلَتْ
وَلَكِنْ تَلِينَ إِذَا قَوَّمَتْهَا الْحَشَبُ

غيره:

إِنَّ السَّمَاءَ إِذَا لَمْ تَبْكِ مَقْلَتْهَا
لَمْ تَضْحَكِ الْأَرْضُ عَنْ شَيْءٍ مِنَ الزَّهْرِ

غيره:

إِنَّ الْكَرِيمَ لَيُخْفِي عَنْكَ عُسْرَتَهُ
حَتَّى تَرَاهُ غَنِيًّا وَهُوَ مَجْهُودٌ

غيره:

إِنَّ الْكِرَامَ إِذَا مَسَّ أَسْهَلُوا ذَكَرُوا
مَنْ كَانَ يَأْلَفُهُمْ فِي الْمَنْزِلِ الْخَشِينِ

غيره:

إِنَّ الْمَقَامَ عَلَى السَّهْوَانِ مَذَلَّةٌ
وَالْعَجْزُ آفَةٌ حِيلَةُ الْمُحْسِنِ تَالِ

فصل إنما

فَمِنْ الْحَدِيثِ الْوَاردِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ :
« إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ »
« وَإِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ » .
« وَإِنَّمَا يُدْرِكُ الْخَيْرُ كُلُّهُ بِالْعَقْلِ ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَقْلَ لَهُ » .

وَمِنْ الْحِكْمَةِ الْمَأْثُورَةِ عَنِ السَّلَفِ وَغَيْرِهِمْ :
إِنَّمَا لَكَ مِنْ مَالِكَ مَا أَمْضَيْتَهُ فِي حَيَاتِكَ .
إِنَّمَا هُوَ دِرْهَمُكَ وَسَيْفُكَ ؛ فَازْرِعْ بِهَذَا مَنْ شَكَرَكَ ،
وَاحْصِدْ بِهَذَا مَنْ كَفَرَكَ :
إِنَّمَا يَرْضَى بِالْدُّونِ مَنْ رَضِيَ بِالْدُّنْيَا .
إِنَّمَا يُخْتَبَرُ وَدُّ الْمَرْءِ عِنْدَ الْحَاجَةِ .
إِنَّمَا يُخْتَبَرُ ذُو الْبَاسِ عِنْدَ الْحَاجَةِ ، وَإِنَّمَا يُخْتَبَرُ ذُو الْأَمَانَةِ
عِنْدَ الْأَخْذِ وَالْعَطَاءِ .

وإنَّما يُخْتَبَرُ الأهلُ عندَ الفاقَةِ ، وإنَّما يُخْتَبَرُ الإخوانُ عندَ
النَّوائِبِ .

ومن الشُّعرِ في هذا الفصل قولهم :

فاجْعَلِ السَّاعَةَ طاعَةً	إنَّما دُنِّيَّكَ سَاعَةً
واجْتَهِدْ مِقْدَارَ سَاعَةٍ	وأحْذَرْ التَّقْصِيرَ فِيهَا
فالتَّمِيسُ عِزُّ القَنَاعَةِ	وإذا أَحْبَبْتُ عِزًّا
آخر :	

وعَواري مُسْتَرْدَّةٌ ^(١)	إنَّما الدُّنْيَا هَبَاتٌ
ورَخَاءٌ بَعْدَ شِدَّةٍ	شِدَّةٌ بَعْدَ رَخَاءٍ
آخر :	

هوَ للجُودِ مِنْكَ والبَذْلِ أَهْلٌ	إنَّما الجُودُ أنْ تَجُودَ على مَنْ
-------------------------------------	-------------------------------------

(١) العواري جمع عارية ، وهي ما يعار من المتاع .

فصل إن

فمن الحديثِ الواردِ عن النبي ﷺ :

«إِنْ أَمَرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ مُجَدَّعٌ^(١)، فَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا مَا قَادَكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ».

«إِنْ دُعِيتُمْ إِلَى كُرَاعٍ^(٢) فَأَجِيبُوا».

وَمِنَ الْحِكْمَةِ الْمَأْثُورَةِ عَنِ السَّلَفِ وَغَيْرِهِمْ :

إِنْ عَجَزَ مَالُكَ عَنِ الْمَسْكِينِ، أَوْ دَوَاؤُكَ عَنِ الْمَرِيضِ، أَوْ حِيلَتُكَ عَنِ اسْتِخْرَاجِ الْمَسْجُونِ، فَلَا تَعْجِزْ عَنْهُمْ رَحِمَتُكَ وَعِيَادَتُكَ.

إِنْ قَصُرَتْ يَدَاكَ عَنِ الْمُكَافَاةِ فَلْيَطْلُ لِسَانَكَ بِالشُّكْرِ.

إِنْ شُوِورِتَ فَانْصَحْ، وَإِنْ عُدِيَ عَلَيْكَ فَاصْفَحْ.

(١) مجدَّعٌ : مقطوع الأنف أو الأذن.

(٢) الكراع : ما دون الرُّسْغ من ذوات الحافر.

إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَصِلَ إِلَى ذُرْوَةِ الْمَجْدِ، فَعَلَيْكَ بِحِفْظِ
العَهْدِ.

إِنْ يَكُنِ الشُّغْلُ مُحَمَّدَةً، فَإِنَّ الْفَرَاغَ مَفْسَدَةٌ.
وَمِنْ الشُّعْرِ فِي هَذَا الْفَصْلِ قَوْلُهُمْ:
إِنْ يَحْسُدُونِي فَلِإِنِّي لَا أَلُومُهُمْ
قَبْلِي مِنَ النَّاسِ أَهْلُ الْفَضْلِ الْفَضْلُ قَدْ حُسِدُوا
فَدَامَ لِي وَلَهُمْ مَا بِي وَمَا بِهِمْ
وَمَاتَ أَكْثَرُنَا غَمًّا بِمَا يَجِدُ
غَيْرُهُ:

إِنْ كَانَ مَقْصَدُكَ الْكَمَالَ فَلَا تَكُنْ
أَبَدًا بِمَا تَلْتَذُّهُ مُتَسَهِّلًا
وَانْصَبْ لِإِخْصَاءِ الْعُلُومِ وَرَعَايَةِهَا
تَنَلِ السَّعَادَةَ وَالْمَقَازَ الْأَعْظَمَا
فَأَبُوكَ آدَمُ قَبْلَ أَثَرِ شَهْوَةٍ
فَلِذَا بِهَا قَدْ جَرَّ عَثَّةَ الْعَلَقَمَا

فصل ما

فمن الحديثِ الواردِ عن النبي ﷺ :

« ما نُزِعَت الرَّحْمَةُ إِلَّا مِنْ شَقِيٍّ »

« ما رُزِقَ الْعَبْدُ رِزْقًا أَوْسَعَ عَلَيْهِ مِنَ الصَّبْرِ » .

« ما عَفَا الرَّجُلُ عَنْ مَظْلَمَةٍ إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ بِهَا عِزًّا » .

« ما نَحَلَ^(١) وَالِدٌ وَلَدًا أَفْضَلَ مِنْ أَدَبٍ حَسَنٍ » .

« ما كَانَ الرَّفِيقُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا زَانَهُ ، وَمَا كَانَ

الْخَرَقُ^(٢) فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا شَانَهُ » .

« ما مِنْ عَبْدٍ يَسْلُكُ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ بِهِ الْعِلْمَ إِلَّا سَهَّلَ اللَّهُ

لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ » .

« ما مِنْ زِينَةٍ تَزِينُ الْعِبَادُ بِهَا أَفْضَلَ مِنَ الْعَقْلِ » .

(١) نَحَلَ : أعطى .

(٢) الْخَرَقُ : الكذب ، والخُرْقُ : الحمق والجهل .

ومن الحكمة الماثورة عن السلف وغيرهم:
ما ودَّكَ مَنْ أَهْمَلَ وَدَّكَ، ولا أَحَبَّكَ مَنْ أَبْغَضَ حَبَّكَ
ما عَصَى اللهَ كَرِيمٌ، ولا أَثَرَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ حَكِيمٌ.
ما كُنْتُ كَاتِمَةً عَدُوَّكَ، فلا تُطْلِعْ عَلَيْهِ صَدِيقَكَ.
ما رَأَيْتُ تُبَذِّرُ أَقْطًا إِلَّا وَإِلَى جَنْبِهِ حَقٌّ مُضِيعٌ.
ما أَحَبَّ أَحَدُ الرِّيَاسَةِ إِلَّا حَسَدًا، وَبَغْيًا، وَطَغْيًا، وَتَتَبَعَ
عُيُوبَ النَّاسِ، وَكَرِهَ أَنْ يُذْكَرَ أَحَدٌ بِخَيْرٍ.
ما فَجَرَ غَيُورٌ قَطُّ.
ما أَسْهَلَ الْمَوْتَ عَلَى مَنْ أَيْقَنَ بِمَا بَعْدَهُ، وَأَصْعَبَهُ عَلَى مَنْ
شَكَّ فِيمَا بَعْدَهُ.

ومن الشعر في هذا قولهم:
مَا ذَاقَ طَعْمَ الْغِنَى مَنْ لَا قُنُوعَ لَهُ
وَلَنْ تَرَى قَانِعًا مَنْ عَاشَ مُفْتَقِرًا
وَالْعُرْفُ مَنْ يَأْتِيهِ يَحْمَدُ عَوَاقِبَهُ
مَا ضَاعَ عُرْفٌ وَإِنْ أَوَّلَيْتَهُ حَجَرًا

آخر:

ما الناسُ إلا مع الدُّنيا وصاحبِها
وكيفَما انقلبتُ يوماً به انقلبوا
يُعْظَمُونَ أخا الدُّنيا فإن وثبتُ
يوماً عليه بما لا يشتهي وثبوا

آخر:

ما أحسنَ الدينَ والدُّنيا إذا اجتمعا
وأفبحَ الكُفْرَ والإفلاسَ بالرجُلِ

آخر:

ما كلُّ ما يتمنى المرءُ يُدرِكُهُ
تجري الرياحُ بما لا تشتهي السفنُ

آخر:

ما بينَ طَرَفَةِ عَيْنٍ وانقلابِها
يقلبُ الأمرُ من حالٍ إلى حالٍ

فصل لا

فمن الحديثِ الواردِ عن النبي ﷺ :

« لا يردُّ القضاء إلاَّ الدعاء » .

« لا فقرَ أشدُّ من الجهلِ ، ولا مالَ أعونُ من العقلِ » .

« لا كبيرةٌ مع استغفارٍ ، ولا صغيرةٌ مع إصرارٍ »

« لا تصلحُ الصَّنِيعَةُ ^(١) إلاَّ عندَ ذي حَسَبٍ أو دينٍ » .

« لا يدخلُ الجنةَ عَبْدٌ لا يَأْمَنُ جَارُهُ بِوَائِقِهِ » .

« لا خَيْرَ في صُحْبَةٍ مَن لا يَرى لكَ مِثْلَ الَّذِي تَرى له » .

« لا جزاءَ للنَّعْمَةِ مِثْلَ الشُّكْرِ » .

« لا تَنْظُرُوا إِلَى مَن هُوَ فَوْقَكُم ، وانظروا إِلَى مَن دُونِكُم ،

فإنَّه أحرى ألاَّ تَزْدُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُم » .

(١) الصنِيعَةُ : الإحسان وفعل الخير .

ومن الحكمة المأثورة عن السلف وغيرهم:

لا يوجد العَجُولُ محموداً، ولا المغضُوبُ مسروراً،
ولا الحرُّ حريصاً، ولا الكريمُ حسوداً، ولا الشرُّ غنياً،
ولا المَلُولُ ذا إخوانٍ.

لا تحقرن شيئاً من الخير وإن كان صغيراً، فإنك إذا رأيتهُ
سرَّك مكانهُ. ولا تحقرن شيئاً من الشرِّ وإن كان صغيراً فإنك
إذا رأيتهُ ساءك مكانهُ.

لا تطمع في كلِّ ما تسمعُ.

لا تطلبْ سرعةَ العملِ، واطلبْ تجويدَهُ، فإنَّ الناسَ
لا يسألون في كمِّ فرغ منه، وإنما يسألون عن جودة صنْعته.

لا فائدة أشرف من التَّوفيقِ، ولا ميراث أنفع من
الأدب، ولا سَجِيَّة أكرم من حُسْنِ العبادة.

لا تعملْ شيئاً من الخيرِ رياءً، ولا تتركهُ حياءً.

لا تبتِ على وصيَّة، وإن كنت من جسْمك في
صِحَّة، ومن عمرك في فسحة فإنَّ الدَّهرَ خائنٌ، وكلُّ ما هوَ
كائنٌ كائنٌ.

لا تُنالُ الرَّاحَةُ إِلَّا بِالتَّعَبِ ، ولا تُدْرَكُ إِلَّا بِالنَّصَبِ .
لا تؤخرَ عملَ يومِكَ لِغَدِكَ .
لا يُدْرَكُ الشُّبَّابُ بِالْخِضَابِ . ولا الْغِنَى بِالْمُنَى ،
ولا الْعِلْمُ بِالادِّعَاءِ .
لا تَكُنْ مِمَّنْ يَلْعَنُ إِبْلِيسُ فِي الْعَلَانِيَةِ ، وَيُطِيعُهُ فِي
السِّرِّ .

ومن الشُّعْرِ فِي هَذَا الْفَصْلِ قَوْلُهُمْ :
لا تَحْقِرِ الْمَرْءَ إِنْ رَأَيْتَ بِهِ
دَمَامَةً أَوْ رِثَاةَ الْحِلَلِ
فَالنَّحْلُ لَا شَكَّ فِي ضُؤُولَتِهِ
يَشْتَارُ مِنْهُ الْفَتَى جَنَى الْعَسَلِ^(١)

آخر :

لا تَمْدَحَنَّ امْرَأً حَتَّى تُجَرِّبَهُ
ولا تَذِمَّنَّهُ مِنْ غَسِيرِ تَجْزِيرِيبِ

(١) اشتهر العسل : استخرجه من موضعه وجناه .

فَرُبَّ خِدْنٍ وَإِنْ أَبْدَى بِشَاشَتِهِ

يُضْحِي عَلَى خِدْنِهِ أَعْدَى مِنَ الذُّيْبِ^(١)

آخر:

لَا تَحْقِرَنَّ امْرَأً إِنْ كَانَ ذَا ضِعَّةٍ

كَمْ مِنْ وَضِيعٍ مِنَ الْأَقْوَامِ قَدْ رَأَسَا

فَرُبَّ قَوْمٍ حَقَرْنَاهُمْ فَلَمْ نَرَهُمْ

أَهْلًا لِيَخْدُمَتَنَا صَارُوا لَنَا رُؤَسَا

آخر:

لَا تَغْتَرِبْ عَنْ وَطَنٍ

وَإِذَا ذُكِرْتُ تُصَارِيهِ فَاَلْجَوَى

أَمَّا تَرَى الْغُصْنَ إِذَا

مَافَارَقَ الْأَصْلَ ذَوَى

آخر:

لَا تَقْنَطَنَّ فَإِنَّ اللَّهَ ذُو كَرَمٍ

وَمَا عَلَيْكَ إِذَا تَلَقَّاهُ مِنْ بَاسٍ

(١) الخِدْنُ: الصديق الذي يكون معك ظاهراً وباطناً في كل أمر.

إلا اثنتين فلا تقربهما أبداً

الشُّركُ باللهِ والإِضرارُ بالنَّاسِ

آخر:

لا تَسْأَلِ الْمَرْءَ عَنْ خَلَاتِهِ

فَفِي وَجْهِهِ شَاهِدٌ مِنَ الْخَبَرِ

آخر:

لا تَطْلُبَنَّ مَعِيَّةً بِمَذَلَّةٍ

فَلْيَأْتِيَنَّكَ رِزْقُكَ الْمَسْقُودُ

آخر:

لا تَنْهَ عَنِ خُلُقٍ وَتَأْتِيَ مِثْلَهُ

عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ

آخر:

لا يُسْبِعُ النَّفْسُ شَيْئاً حِينَ تُحْرِزُهُ

و لا يزالُّ لها في غيره وطَرُّ

آخر:

لا تَصْحَبَنَّ رَفِيقًا لَسْتَ تَأْمَنُهُ

بِشْرِ الرَّفِيقِ رَفِيقٌ غَيْرُ مَأْمُونٍ

آخر:

لا تَجْزَعَنَّ عَلَى مَا فَاتَ مَطْلَبُهُ

فَلَسْتَ عُمُرَكَ لِلْمَاضِي بِمُرْتَجِعٍ

آخر:

لا تَتْرَكَ الْحَزْمَ فِي شَيْءٍ تُحَازِرُهُ

فَإِنْ سَلِمْتَ فَمَا فِي الْحَزْمِ مِنْ بَاسٍ

فصل إِيَّاكَ

فمن الحديثِ الواردِ عن النبي ﷺ :

«إِيَّاكَ وَمَا يُعْتَذَرُ مِنْهُ» .

«إِيَّاكَ وَاللَّجَاجَةَ فَإِنَّهَا نَدَامَةٌ» .

«إِيَّاكَ وَالْمُزَاحَ فَإِنَّهُ يَذْهَبُ بِهَاءِ الْوَجْهِ» .

«إِيَّاكَ وَالْحَرِصَ فَإِنَّهُ أَخْرَجَ آدَمَ مِنَ الْجَنَّةِ» .

«إِيَّاكَ وَالْكَلَامَ فِيمَا لَا يَعْنِيكَ» .

ومن الحكمة الماثورة عن السلف وغيرهم :

إِيَّاكَ وَالْجُزَعَ عِنْدَ الْمَصَائِبِ فَإِنَّهُ مَجْلَبَةٌ لِلْهَمِّ، وَسُوءُ ظَنٍّ
بِالرَّبِّ، وَشِمَاتَةٌ لِلْعَدُوِّ .

إِيَّاكَ وَالْبُخْلَ فَإِنَّ الْبَخِيلَ خَازِنٌ لِأَعْدَائِهِ .

إِيَّاكَ وَالسُّكْنَىٰ مَعَ ذَوِي الشَّحْنَاءِ^(١)، فَخَيْرُكَ فِيهِمْ
يُطَوَّى، وَشَرُّكَ يُرَوَّى.

إِيَّاكَ وَالْغَضَبَ فَإِنَّهُ يَضْطَرُّكَ إِلَى سَوْءِ الْإِعْتِذَارِ
إِيَّاكَ وَمُعَادَاةَ الرُّجَالِ فَإِنَّكَ لَنْ تَعْدَمَ مَكْرَ حَلِيمٍ،
أَوْ مُفَاجَأَةً لَثِيمٍ.

إِيَّاكَ وَخِدْمَةَ مَنْ شَبِعَ مِنَ الرِّيَّاسَةِ، وَمَلَّ مِنَ السِّيَّاسَةِ،
فَإِنَّهُ يَرَى كَبِيرَ مَا تَصْنَعُهُ فِي حَقِّهِ صَغِيرًا، وَصَغِيرَ مَا يَصْنَعُهُ فِي
حَقِّكَ كَبِيرًا.

وَمِنَ الشَّعْرِ فِي هَذَا الْفَصْلِ قَوْلُهُمْ:

إِيَّاكَ مِنْ زَلَلِ اللُّسَانِ فَإِنَّمَا
عَقْلُ الْفَتَى فِي لَفْظِهِ الْمُسْمُوعِ
وَالْمَرْءُ يُخْتَبَرُ الْإِنَاءَ بِنَقْصِهِ
لِيَسْرَى الصَّحِيحُ بِهِ مِنَ الْمَصْدُوعِ

(١) الشَّحْنَاءُ: الْحَقْدُ وَالْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ.

آخر:

إِيَّاكَ وَالْدُنْيَا الدُّنْيَا إِنَّهُمَا

دَارٌ مَتَى سَأَلَمْتَهُمَا لَمْ تَسْلَمْ

وَتَجَنَّبِ الظُّلْمَ الَّذِي هَلَكْتُ بِهِ

أُمِّ تَوَدُّ لَوْ أَنَّهَا لَمْ تَظْلَمْ

آخر:

إِيَّاكَ أَنْ تَعْظَ الرَّجُلَ وَقَدْ

أَصْبَحَتْ مُحْتَاجًا إِلَى الْوَعْظِ

فصل إذا

فمن الحديثِ الواردِ عن النبي ﷺ:

«إذا أتاكم كريمُ قومٍ فأكرمُوهُ».

«إذا أراد الله تعالى إنفاذَ قضاائه وقدره سلبَ ذوي العقولِ عقولَهُم حتى ينفذَ قضاؤه وقدره».

«إذا أردتَ أمراً فتدبرْ عاقبته».

«إذا أراد اللهُ بعبدٍ خيراً ألهمه رُشدَه».

«إذا استنصحتك أخوك فانصَحْ له».

«إذا أرادَ اللهُ خيراً جعلَ له واعظاً من نفسه».

ومن الحكمة الماثورة عن السلفِ وغيرِهِم:

إذا عثرَ عاثرٌ فاحمدِ اللهَ ألا تكونَه

إذا هدأَ غضبكَ فتكلمْ.

إذا أرسلت الهدية أتتك الحاجة مقضية .
إذا أحببت فلا تفرط ، ، وإذا أبغضت لا تشطط .
إذا عملت سيئة فاتبعها حسنة تمنحها سريعاً .
إذا أتاك الخصم وقد فقت عينه فلا تحكم له حتى يأتي
خصمه ، فلعله قد فقت عيناه جميعاً .
إذا تم العقل نقص الكلام .
إذا رقت حال الإنسان هان على الإخوان .
إذا فاتك العلم فالزم الصمت .
إذا قيض الله للرجل امرأة كثيرة الحياء ، جميلة المحيا ،
مُساعدة في جميع الأشياء ، مُعينة على أمور الدين والدنيا ،
فقد استطاب المحيا .
إذا شاروت العاقل صار نصف عقله لك .
إذا هرب الزاهد من الناس فاطلبه ، وإذا طلبهم
فاهرب منه .
إذا كان الإمام عادلاً فله الأجر ، وعليك الشكر ، وإذا
كان جائراً فله الوزر ، وعليك الصبر .

إذا مدحت شيئاً فاختصر، وإذا ذممت فاقصر.
إذا لم يكن لك ما تريد، فأرد ما يكون.
إذا جلست في مجلس ولم تكن المتحدث ولا المتحدث
فقم.

ومن الشعر في هذا الفصل قولهم:
إذا ما شئت أن تدعى حكيماً
وتلحق بالرجال ذوي الكمال
فلا تغتر في الدنيا بشيء
ولا تخطر لك الدنيا بحال
آخر:

إذا كنت في كل الأمور معاتباً
صديقك لم تلق الذي لا تُعاتبه
فعيش واحداً أو صل أخاك فإنه
مقارِفُ ذنبٍ مرةً ومُجانبُهُ

آخر:

إذا ما كُنتَ مُتَّخِذًا رَسُولًا
فَلَا تُرْسِلْ سِوَى حُرٍّ نَبِيلٍ
فَإِنَّ النُّجْحَ فِي الْحَاجَاتِ يَأْتِي
لِطَالِبِهَا عَلَى قَدْرِ الرِّسُولِ

آخر:

إذا كُنتَ فِي حَاجَةٍ مُرْسِلًا
وَأَنْتَ بِهَا كَلِفٌ مُفْرَمٌ
فَارْسِلْ حَكِيمًا وَلَا تَوْصِيهِ
وَذَاكَ الْحَكِيمُ هُوَ الدُّرُّهُمْ

آخر:

إذا مَا شِئْتَ أَنْ تُحْيَا سَعِيدًا
وَتَلْقَى اللَّهَ بِالْعَسَمَلِ الْكَرِيمِ
فَلَا تَصْحَبْ سِوَى الْأَخْيَارِ وَاقْطَعْ
زَمَانَكَ فِي مُدَارَسَةِ الْعُلُومِ

آخر:

إذا هبَّت رِيَّاحُكَ فَاغْتَنِمْهَا
فَعُقْبَى كُلِّ خَافِقَةٍ سَكُونُ
ولا تغفل عن الإحسانِ فيها
فَمَا تَدْرِي السُّكُونُ مَتَى يَكُونُ

آخر:

إذا كُنْتَ ذَا رَأْيٍ فَكُنْ ذَا عَزِيمَةٍ
فَإِنَّ فَسَادَ الرَّأْيِ أَنْ تَتَرَدَّدَا
ولا تُمَهِّلِ الْأَعْدَاءَ يَوْمًا بِقُدْرَةٍ
وَبَادِرْهُمْ أَنْ يَمْلِكُوا مِثْلَهُ غَدَا

آخر:

إذا كُنْتَ جَمَاعًا لِمَالِكَ مُنْسِكًا
فَأَنْتَ عَلَيْهِ خَازِنٌ وَأَمِينُ
تُؤَدِّيهِ مَذْمُومًا إِلَى غَيْرِ حَامِدٍ
فِيَأْكُلُهُ عَفْوَاً وَأَنْتَ دَفِينُ

آخر:

إذا المرءُ أفشى سِرَّهُ بلسانه
ولام عليه غيره فهو أحمقُ
إذا ضاق صدرُ المرءِ عن سرِّ نفسه
فصدرُ الذي يستودعُ السرَّ أضيقُ
آخر:

إذا أنت لم تُعرض عن الجهلِ والحنأ
أصبحتَ حليماً أو أصابك جاهلٌ^(١)
آخر:

إذا لم تستطع شيئاً فدعه
وجأوزه إلى ما تستطيعُ
آخر:

إذا وترتَ أمراً فاحذرْ عداوتهُ
من يزرعِ الشوكَ لا يَحصدُ به عنباً
آخر:

إذا امتحنَ الدنيا لبیبٌ تكشفتُ
له عن عَدُوٍّ في ثيابِ صديقٍ

(١) الحنأ: الفُحش في الكلام.

آخر:

إذا المرءُ لم يَدْنَسْ مِنَ اللُّؤْمِ عِرْضُهُ
فَكُلُّ رِداءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيلٌ

آخر:

إذا أنت أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكَتْهُ
وإن أنت أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا

آخر:

إذا المرءُ أَغْيَيْتْهُ المَرْوَةَ نَاشِئًا
فَمَطْلَبُهَا كَهَلًا عَلَيْهِ شَدِيدٌ

آخر:

إذا كنتَ في قومٍ فَصَاحِبُ خِيَارِهِمْ
ولا تَصْحَبِ الأَرْدَى فَتَرْدَى مع الرَّدَى

آخر:

إذا اشْتَدَّ عُسْرُ فَارِجٍ يُسْرًا فَإِنَّهُ
قَضَى اللَّهُ أَنَّ العُسْرَ يَتْبَعُهُ اليُسْرُ

فصل من

فمن الحديث الوارد عن النبي ﷺ:

«مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ رَفَعَهُ، وَمَنْ تَكَبَّرَ وَضَعَهُ اللَّهُ».

«مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ تَكَفَّلَ اللَّهُ بِرِزْقِهِ».

«مَنْ كَفَّ لِسَانَهُ عَنْ أَغْرَاضِ النَّاسِ أَقَالَهُ اللَّهُ تَعَالَى
عَثْرَتَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

«مَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ».

«مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ
لِيَصْمُتْ».

«مَنْ فَرَّجَ عَنْ أَخِيهِ كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ الدُّنْيَا فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ
كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

«مَنْ أَصْبَحَ مُعَافًى فِي بَدَنِهِ، آمِنًا فِي سِرِّهِ، عِنْدَهُ قُوَّةٌ
يَوْمِهِ، إِنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَائِيرِهَا».

«مَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ كَثُرَ سَقَطُهُ، وَمَنْ كَثُرَ سَقَطُهُ كَثُرَ خَطْوُهُ».

«مَنْ قَلَّ مَالُهُ قَلَّ وَرَعُهُ».

وَمَنْ الْحِكْمَةِ الْمَأْثُورَةِ عَنِ السَّلَفِ وَغَيْرِهِمْ:

مَنْ عَرَفَ قَدْرَهُ عَلَا أَمْرُهُ.

مَنْ حَاسَبَ نَفْسَهُ رِبْحًا، وَمَنْ غَفَلَ عَنْهَا خَسِرَ، وَمَنْ نَظَرَ
فِي الْعَوَاقِبِ نَجَا، وَمَنْ أَطَاعَ هَوَاهُ ضَلَّ، وَمَنْ لَمْ يَحْلُمْ نَدِمَ،
وَمَنْ صَبَرَ غَنِمَ، وَمَنْ خَافَ أَمِنَ، وَمَنْ اعْتَبَرَ أَبْصَرَ، وَمَنْ
أَبْصَرَ فَهَمَّ، وَمَنْ فَهَمَ عَلِمَ.

مَنْ سَرَّهُ بَنُوهُ سَاءَتْهُ نَفْسُهُ.

مَنْ اسْتَغْنَى عَنِ النَّاسِ وَقَرَّوهُ وَعَظَّمُوهُ.

مَنْ أَكْثَرَ الْمَشُورَةَ لَمْ يَعْدَمْ عِنْدَ الصُّوَابِ مَادِحًا، وَعِنْدَ
الْخَطَا عَازِرًا.

مَنْ كَتَمَ سِرَّهُ جَهْلَ عَدُوِّهِ أَمْرُهُ.

مَنْ نَقَضَ عَهْدَهُ، وَمَنَعَ رَفْدَهُ^(١)، وَأَظْهَرَ حِقْدَهُ، فَلَا
خَيْرَ عِنْدَهُ.

(١) الرُّفْدُ: الْعَطَاءُ.

مَنْ صَاحِبَ الْعُلَمَاءِ وَقُرَّ ، وَمَنْ جَالَسَ السُّفَهَاءَ حَقُرَ .
مَنْ كَثُرَ مَسْرَاحُهُ زَالَتْ هَيْبَتُهُ ، وَمَنْ كَثُرَ خِلَافُهُ طَابَتْ
غَيْبَتُهُ .

مَنْ عُرِفَ بِالصِّدْقِ جَازَ كَذِبُهُ ، وَمَنْ عُرِفَ بِالكَذِبِ لَمْ
يَجْزُ صِدْقُهُ .

مَنْ نَجَا بِرَأْسِهِ فَقَدْ رُبِحَ .
مَنْ اسْتَرْعَى الذُّئْبَ ظَلِمَ .
مَنْ أَدَّبَ وَلَدَهُ صَغِيرًا سُرَّ بِهِ كَبِيرًا .
مَنْ سَأَلَ صَاحِبَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ فَقَدْ اسْتَوْجِبَ الْحَرَمَانَ .
مَنْ صَانَعَ بِالْمَالِ لَمْ يَحْتَشِمْ مِنْ طَلَبِ الْحَاجَةِ .
مَنْ غَضَّ بَصَرَهُ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ ، غَضُّوا أَبْصَارَهُمْ
عَنْهُ .

مَنْ نَهَضَ إِلَى الْمَعَالِي ظَفِرَ بِالْمَكَانِ الْعَالِي .
مَنْ لَمْ يَرْكَبِ الْأَهْوَالَ لَمْ يَنْلِ الرِّغَائِبَ .
مَنْ اسْتَغْنَى كَرُمَ عَلَى أَهْلِهِ .

مَنْ غَرَسَ الْعِلْمَ اجْتَنَى النَّبَاهَةَ، وَمَنْ غَرَسَ التَّزَهُدَ
اجْتَنَى الْعِزَّ، وَمَنْ غَرَسَ الْإِحْسَانَ اجْتَنَى الْمَحَبَّةَ .
مَنْ لَمْ يَأْسَ عَلَى مَا فَاتَهُ أَرَأَيْتَ قَلْبَهُ، وَمَنْ قَنَعَ بِمَا هُوَ فِيهِ
قَرَّتْ عَيْنُهُ .

ومن الشعر في هذا الفصل قولهم:
مَنْ عَاشَ عَيْشًا حَمِيدًا يَسْتَفِيدُ بِهِ
فِي دِينِهِ ثُمَّ فِي دُنْيَاهُ إِقْبَالًا
فَلْيَنْظُرَنَّ إِلَى مَنْ فُوقَهُ أَدْبًا
وَلْيَنْظُرَنَّ إِلَى مَنْ دُونَهُ مَسَالًا

آخر:

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَمْ يَعْدَمْ جَوَازِيَهُ
لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ

آخر:

مَنْ يَدَّعِ الْحِلْمَ أَغْضِبَهُ لِيَعْرِفَهُ
لَا يَعْرِفُ الْحِلْمُ إِلَّا سَاعَةَ الْغَضَبِ

آخر:

مَنْ يَزْرَعِ الْخَيْرَ يَحْصُدْ مَا يُسْرِبُهُ
وَزَارِعُ الشُّوكِ مَنَكُوشٌ عَلَى الرَّأْسِ

فصل ليس

فمن الحديثِ الواردِ عن النبي ﷺ :

«ليس الخبَرُ كالمُعَايَنَةِ» .

«ليسَ بعدَ الموتِ مُسْتَعْتَبٌ»

«ليسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يوقُرْ الكَبِيرَ ، وَيَرْحَمْ الصَّغِيرَ» .

«ليسَ لَكَ مِنْ مَالِكَ مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ» .

«ليسَ الْأَعْمَى مِنْ عَمِيَّ بَصَرُهُ ، إِنَّمَا الْأَعْمَى مِنْ عَمِيَّتِ بَصِيرَتُهُ» .

«ليسَ بِمُؤْمِنٍ مَنْ لَمْ يَأْمَنْ جَارَهُ بِوَائِقِهِ» .

«ليسَ مِنَّا مَنْ غَشَّ مُسْلِمًا أَوْ ضَرَّه» .

ومن الحكمة المأثورة عن السلف وغيرهم :

ليس لِلثَّيْمِ مِثْلُ الْهَوَانِ .
ليس يُعَدُّ حَكِيمًا مَنْ لَمْ يَكُنْ لِنَفْسِهِ خَصِيمًا .
ليس مِنَ الْعَدْلِ سُرْعَةُ الْعَدْلِ .
ليس لِلْأُمُورِ بَصَاحِبٌ ، مَنْ لَمْ يَنْظُرْ فِي الْعَوَاقِبِ .
ليس الْحَكِيمُ بِكَثْرَةِ الْعِلْمِ ، إِنَّمَا الْحَكِيمُ فِي الْإِنْتِفَاعِ بِهِ فِي
الْعَمَلِ .

ليسَ مَنْ عَادَةَ الْكِرَامِ سُرْعَةُ الْإِنْتِقَامِ .
ليسَ الْأَسِيرُ مَنْ أَوْثَقَهُ عِدَاةُ ، إِنَّمَا الْأَسِيرُ مَنْ أَوْثَقَهُ هَوَاهُ
قَسْرًا ، أَوْ أَرَهَقَهُ خُسْرًا .

وَمَنْ الشُّعْرُ فِي هَذَا الْفَصْلِ قَوْلُهُمْ :
لَيْسَ الْعَدُوُّ بِشَرٍّ
مِنَ الصَّدِيقِ الْحَسُّودِ
فَعَمَّ أَمْرَكَ عَسْنُهُ
وَدَارِهِ مِنْ بَعْسِيْدِ

آخر :

ليس الكريمُ الذي إنْ زلَّ صاحبُهُ

بثُّ الذي كانَ مِنْ أسرارِهِ علِمَا

بلِ الكريمُ الذي تبقى مودَّتُهُ

ويحفظُ السِّرَّ إنْ صافى وإنْ صرَمَا

آخر:

ليس الغبيُّ سيِّدَ في قومِهِ

لكنَّ سيِّدَ قومِهِ المتغابي

آخر:

ليس الظَّريفُ بكاملٍ في ظرْفِهِ

حتَّى يكونَ مِنَ الحَرَامِ عَفِيفَا

آخر:

ليس النِّعيمُ ولا الشَّقَاءُ بدائمٍ

لا بُدَّ للإقْبَالِ مِنْ إِدْبَارِ

فصل رُبَّ

فَمِنْ الْحَدِيثِ الْوَاردِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ:

«رُبَّ حَامِلٍ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ».

«رُبَّ مَلُومٍ لَا ذَنْبَ لَهُ»

«رُبَّ مُكْرِمٍ لِنَفْسِهِ وَهُوَ لَهَا مُهِينٌ، وَرُبَّ مُهِينٍ لِنَفْسِهِ وَهُوَ لَهَا مُكْرِمٌ».

«رُبَّ طَرْفٍ أَنْتُمْ مِنْ لِسَانٍ».

«رُبَّ صَلَفٍ^(١) أَدَّى إِلَى التَّلَفِ».

وَمِنْ الْحِكْمَةِ الْمَأْثُورَةِ عَنِ السَّلَفِ وَغَيْرِهِمْ:

رُبَّ قَوْلٍ أَشَدُّ مِنْ صَوْلِ.

رُبَّ أَخٍ لَكَ لَمْ تَلِدْهُ أُمُّكَ.

(١) الصَّلَفُ: التَّيَهُ والكِبْرِيَاءُ.

رُبُّ عَجَلَةٍ تَهَبُ رِيثًا.

رُبُّ مَمْلُولٍ لَا يُسْتَطَاعُ فِرَاقُهُ.

رُبُّ عَاجِلٍ لَذَّةٌ قَدْ أَعْقَبَتْ طُولَ حَسْرَةٍ.

رُبُّ سَاعٍ لِقَاعِدٍ ، أَكَلٍ غَيْرِ حَامِدٍ.

ومن الشعر في هذا الفصل قولهم:

رُبُّ حِلْمٍ أَضَاعَهُ عَدَمُ الْمَا

لِ وَجَّهٍ غَطَّى عَلَيْهِ النَّعِيمُ

آخر:

رُبُّ مَهْزُولٍ سَمِينٍ حَسَابُهُ

وسمين الجسم مهزول الحسب

آخر:

رُبُّ عَيْرٍ يَرَعَى وَيَعْلَفُ فِي الْخَصْبِ

بِ وَلِيْثٍ يَجْسُوعٌ فِي الصَّحَرَاءِ

فصل الأعداد المذكورة قبل في الأحاديث والحكم والشعر

فصل واحد

فَمِنْ الْحَدِيثِ الْوَاردِ فِي ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ:

«طَلَبُ الدِّينِ أَحَدَ الْعُسْرَيْنِ» .

«الزَّوْجَةُ الصَّالِحَةُ أَحَدَ الْكَسْبَيْنِ» .

«قِلَّةُ الْعِيَالِ أَحَدُ الْيَسَارَيْنِ»

وَمِنْ الْحِكْمَةِ الْمَأْثُورَةِ عَنِ السَّلَفِ وَغَيْرِهِمْ:

الْمَشْفِقُ أَحَدُ الْوَالِدَيْنِ .

الْعَيْنُ إِحْدَى الرَّسُولَيْنِ .

الْعَشْقُ أَحَدُ الرُّقْمَيْنِ .

اللِّسَانُ أَحَدُ السِّيفَيْنِ

الدَّهْرُ أَحَدُ الْمُؤَدِّينَ .

السَّلَامَةُ إِحْدَى الْغَنِيمَتَيْنِ .

الْمُبْلَغُ أَحَدُ الشَّاتِمِينَ .

وَمِنَ الشُّعْرِ فِي هَذَا الْفَصْلِ قَوْلُهُمْ :

تَأْمَلْ صُورَةَ الْعَدَدِ

فَمَنْ يَنْظُرْ إِلَيْهِ هُدًى

كَمَا الْأَعْدَادُ رَاجِعَةٌ

وَإِنْ كُنْتُ رَتُّ إِلَى الْأَحَدِ

كَذَاكَ الْخَلْقُ مَرْجِعُهُمْ

لِرَبِّ وَاحِدٍ صَمَدٍ

فصل اثنين

فَمِنْ الْحَدِيثِ الْوَاردِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ:

«اِثْنَانِ لَا تُرَدَّانِ: الدُّعَاءُ عِنْدَ النَّدَاءِ، وَعِنْدَ الْيَأْسِ».

«خُلِقَانِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ: الْحِلْمُ وَالْأَنَاةُ، وَخُلِقَانِ يُبْغِضُهُمَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ: الْبُخْلُ وَسُوءُ الْخُلُقِ».

«قَطْرَتَانِ مِنْ أَفْضَلِ الْأَشْيَاءِ: قَطْرَةٌ دَمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَقَطْرَةٌ دَمْعٍ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ».

«اِثْنَانِ لَيْسَ فِي الدُّنْيَا أَقَلُّ مِنْهُمَا، وَلَا يَزْدَادَانِ إِلَّا قِلَّةً: دِرْهَمٌ حَلَالٌ، وَأَخٌ فِي اللَّهِ يُسْكَنُ إِلَيْهِ».

«مَنْهُومانِ لَا يَشْبَعَانِ مِنْهُومٌ فِي الْعِلْمِ، وَمِنْهُومٌ فِي الْمَالِ».

«شَيْئَانِ لَا يَجْتَمِعَانِ: الْإِيمَانُ وَالْحَسَدُ»

«صِنْفَانِ مِنَ النَّاسِ إِذَا صَلَحَا صَلَحَ النَّاسُ، وَإِذَا فَسَدَا
فَسَدَ النَّاسُ: الْعُلَمَاءُ وَالْأَمْرَاءُ».

وَمِنَ الْحِكْمَةِ الْمَأْثُورَةِ عَنِ السَّلَفِ وَغَيْرِهِمْ:

اِثْنَانِ مَعَذَّبَانِ فِي الدُّنْيَا. رَجُلٌ أُعْطِيَ الدُّنْيَا فَهُوَ بِهَا
مَشْغُولٌ مُتْعَبٌ، وَرَجُلٌ فَقِيرٌ زُوِيََتْ عَنْهُ الدُّنْيَا، فَهُوَ يَطْلُبُهَا،
وَنَفْسُهُ تَتَقَطَّعُ عَلَيْهَا حَسَرَاتٌ.

شَيْئَانِ لَا يُعْرَفَانِ إِلَّا بَعْدَ ذَهَابِهِمَا: الصِّحَّةُ وَالشَّبَابُ.

خَصِلَتَانِ فِيهِمَا خَيْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ: الْغِنَى وَالتَّقَى.
وَخَصِلَتَانِ فِيهِمَا شَرُّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ: الْفَقْرُ وَالْفُجُورُ.

خَصِلَتَانِ مِنَ الْكَرَمِ: إِنْصَافُ النَّاسِ مِنْ نَفْسِكَ،
وَمُوَاسَاةُ الْإِخْوَانِ.

شَيْئَانِ الْعَجَلَةِ فِيهِمَا مَحْمُودَةٌ: إِطْعَامُ الضَّيْفِ إِذَا حَلَّ،
وَقَضَاءُ الدَّيْنِ.

خَصِلَتَانِ يَحِبُّهُمَا الْعَاقِلُ وَيَكْرَهُهُمَا الْجَاهِلُ: الصَّبْرُ عِنْدَ
النَّوَائِبِ، وَالْعَفْوُ عِنْدَ الْمَقْدَرَةِ.

ومن الشعر:

اثنان لربكتِ الدماء عليهما

عَيْنَايَ حَتَّى تُؤْذِنَا بِذَهَابِ

لَمْ يَبْلُغَا الْمَعْشَارَ مِنْ حَقِّيهِمَا

فَقَدُ الشَّبَابِ وَفُرْقَةُ الْأَحْبَابِ

فصل ثلاثة

فَمِنْ الْحَدِيثِ الْوَاردِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ :
«ثَلَاثَةٌ مِنَ الْمَوَبَقَاتِ^(١) فَاحْذَرُوهُنَّ : الْحِرْصُ، وَالْحَسَدُ،
وَالكِبْرُ» .

«ثَلَاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ : الْإِمَامُ الْمَقْسِطُ، وَالصَّائِمُ حَتَّى
يَفْطُرَ، وَالْمَظْلُومُ» .

«ثَلَاثَةٌ لَا يُسْأَلُ أَحَدٌ عَنْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا أَنْفَقَ فِي مَرْضَاهُ،
وَفِي إِفْطَارِهِ، وَمَا أَنْفَقَ فِي قِرَى ضَيْفِهِ» .

«ثَلَاثَةٌ مِنْ نَعِيمِ الدُّنْيَا - وَإِنْ كَانَ لَا نَعِيمَ لَهَا - : مَرْكَبٌ
وَطِيءٌ، وَالْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ .، وَالْمَنْزِلُ الْوَاسِعُ» .

«ثَلَاثَةٌ مَرْحُومُونَ : عَزِيزٌ قَوْمٍ ذُلٍّ، وَغَنِيٌّ قَوْمٍ افْتَقَرُوا،
وَصَاحِبٌ دِينَ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ» .

(١) الموبقات : المهلكات من المعاصي والذنوب .

«ثلاثة لا ينتصفون من ثلاثة : برٌّ من فاجر ، وشريفٌ من دنيء ، وحليمٌ من سفيه» .

«ثلاثة لا يُعرفون إلا في ثلاثة مواطن : الحليم عند الغضب ، والشُّجاع في الحرب ، والأخ عند الحاجة» .

«ثلاثة يطلبون المرءَ وإن فرَّ منهم : الموتُ ، والرُّزقُ ، والمصيبةُ» .

«ثلاثة يطلبون مَنْ كُنَّ فيه فهو منافق : مَنْ إذا وعدَ أخلف ، وإذا حدَّثَ كذَّبَ ، وإذا أوْتَمَنَ خان وثلاثة مَنْ كُنَّ فيه مؤمن . إذا قال صدق ، وإذا وعد وفَّى ، وإذا أوْتَمَنَ لم يخُنْ» .

«ثلاث مَنْ رُزِقهنَّ فقد جُمعَ له خير الدُّنيا والآخرة : الرِّضا بالقضاء والقدر ، والصَّبْر عند البلاء ، والدُّعاء في الرُّخاء» .

ثلاثٌ لَنْ ينفعَ المرءَ بعد وفاته إلا هُنَّ : صدقةٌ تجري من بعده ، وسنةٌ يُعملُ لها من بعده ، وولدٌ يدعو له» .

ومن الحكمة المأثورة عن السلف وغيرهم :

العَيْش لثلاث : سعةُ المال ، وكثرةُ الخدم ، وموافقةُ الأهل .

ليس لثلاث حيلة : فقرٌ يخالطه كسلٌ ، وخصومة
يداخلها حسدٌ ، ومرضٌ يمازجه هرمٌ .

ثلاثة لا يستخفُّ بهم عاقل : السلطان ، والعالم ،
والصديق ، لأنَّ مَنْ استخفَّ بالسلطان أفسد دُنياه ، ومن
استخفَّ بالعالم أفسد دينه ، ومن استخفَّ بالصديق أفسد
مروءته .

ثلاثة لا يأنفُ الكريم من القيام عليهم : أبوه ، وضيِّفه ،
ودابَّتُه .

كدرُ العيشِ في ثلاث : الجارُ السُّوءُ ، والوكْدُ العاقُ ،
والمرأةُ السيِّئةُ الخلق .

ثلاثة تنفع في الدُّنيا مع ثوابها في الآخرة : الحجُّ ينفي
الفقر ، والصدقةُ تردُّ البلاء ، والبرُّ يزيد في العمر .

ثلاثة تدلُّ على عقولِ أصحابها : الرُّسولُ ، والكتابُ ،
والهدية .

العيشُ في ثلاث : إقبالُ الزَّمان ، وعزُّ السلطان ، وكثرة
الإخوان .

ثلاثة لا يُشَبَّعُ مِنْهُمْ: الحياة، والعافية، والمال.

ثلاثة من الأفعال من علامات الأحمق: كثرة الالتفات من غير منادٍ ولا مُتَكَلِّمٍ، وسرعة الجواب والمسؤول غيره، والضَّحْكُ في غير وقته.

ثلاثة من حقيقة الإيمان: الاقتصاد في الإنفاق، والابتداء بالسَّلام، والإنصاف في الأمور.

النِّسَاءُ ثلاث: فَهَيْتَةٌ لَيْتَةٌ، عَفِيفَةٌ مُسْلِمَةٌ تُعِينُ أَهْلَهَا عَلَى الْعَيْشِ، وَلَا تُعِينُ الْعَيْشَ عَلَى أَهْلِهَا. وَأُخْرَى وَعَاءٌ لِلوَكْدِ، وَأُخْرَى غُلٌّ قَمَلٌ يَضَعُهُ اللَّهُ فِي عُنُقِ مَنْ يَشَاءُ، وَيَفْكُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ.

ثلاثة أشياء مَنْ أَخَذَهَا مِنَ الدُّيُكِ تَمَّ بِهَا أَدَبُهُ: سَخَاؤُهُ، وَشَجَاعَتُهُ، وَغَيْرَتُهُ.

وثلاثة من أخذها من الغراب تَمَّتْ بِهَا مَرْوَعَتُهُ: بَكُورُهُ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ، وَشِدَّةُ حَذَرِهِ، وَسِتْرُهُ سَفَادَهُ.

ثلاثة ما اجتمعت في حُرٍّ: مُبَاهِتَةُ الرُّجَالِ، وَالْغَيْبَةُ لِلنَّاسِ، وَالْمَلَلُ لِأَهْلِ الْمَوَدَّةِ.

والأنسُ في ثلاثة : صديق تأمن منه في صداقتك
ما يرتصدك به عدوك، وامرأة تسرُّك إن دخلتَ عليها،
وتحفظك إذا غبتَ، ومملوك يأتي كلَّ ما في نفسك حتى كأنَّه
يطلع على غيبك.

ثلاثة تُزري بالمرء : الحسدُ، والنَّميمةُ، والطَّيِّشُ.

ثلاثة تُفسد المروءة : الشُّحُّ، والحرصُ، والغضبُ.

ثلاثة يصيرون أجنَّ المجانين، وإن كانوا أعقل العقلاء :
الغضبُ، والغيران، والسكران.

الأيادي ثلاث : بيضاء، وخضراء، وسوداء. فاليد
البيضاء : الابتداء بالمعروف، واليد الخضراء : المكافأة على
المعروف، واليد السوداء : المنُّ بالمعروف.

احذر ثلاثاً : الكِبَرُ، والغضب، والطَّمع.

تلقَّ النُّعمة من الله بثلاث : كثرة الشُّكر، ولزوم
الطَّاعة، واجتناب المعصية.

من الشعر:

ثلاثُ بهانٍ نلتُ المعالي والغنى
وأصبحتُ مُعتزًّا الجَنابِ مُمَوِّلا
طويتُ على قِصْدِ المروءةِ باطني
وفي ظاهري أبديتُ فيه التَّجَمُّلا
وأغضيتُ عما في يد الخلقِ ناظري
وأبصرتُ مَالَهُ عِنْدِي أَفْضَلا

فصل أربعة

فَمِنْ الْحَدِيثِ الْوَارِدِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ :

«أربع من سنن المرسلين : الخِتانُ، والسُّواكُ، والتَّعَطُّرُ،
والنِّكاحُ».

«أربع يذهبنَ ضياعاً : الأكل مع الشَّبع، والسُّراج في
القمر، والزرع في السَّبخة، والصَّنِيعَةُ في غير أهلها».

«أربع خصالٍ من سعادة المرء : أن تكون زوجته صالحة،
وولده أبراراً، وخلطأؤه صالحين، ومعيشتُهُ في بلاده».

«أربعٌ من كُنَّ فيه وجبت له الجنَّةُ . مَنْ ملك نفسه حين
يرغب، وحين يرهب، وحين يغضب، وحين يشتهي».

«من اجتنبَ أربعة دخل الجنَّةُ : الدُّمَاءُ، والأموال،
والفُرُوجُ، والأشربة».

«أحبُّ الكلام إلى الله أربعٌ، لا يضركَ بأيهنَ بدأت .
سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر».

«أربعة مواطن يُستجابُ بها الدُّعاء، وتُفتح أبواب السَّماء: عند التَّقاء الصَّفِّينِ في سبيل الله، وعند نزول الغيث، وعند إقامة الصَّلَاة، وعند رؤية الكعبة».

ومن الحكمة الماثورة عن السَّلَف وغيرهم:

أربعة يسودُ بها المرء: الأدب، والعِلْم، والعِفَّة، والأمانة.

أربعة ينبغي للعاقل أن يمنع نفسه منها: العَجَلَةُ، واللَّجاجة، والعُجْبُ، والتَّواني.

أربع لا يُستطاعُ إشباعُهُنَّ: النَّارُ من الحطب، والبحر من الماء، والموت من الأرواح، والشرُّ من المال.

أربعٌ إذا كُنَّ في الرَّجل أهلكته: محبةُ النِّساء، والقمار، والصِّيد، والخمر.

أربعة أعداء المؤمن: شيطان يُضِلُّه، وكافر يقاتله، ومنافق يفتنه، ومؤمن يحسده.

أربع كلمات اجتمعت العرب والعجم عليها. لا تحملنَّ على قلبك ما لا يطيق، ولا تعملنَّ عملاً ليس لك فيه منفعة، ولا تثق بامرأة، ولا تغترَّ بجالٍ وإن كثر.

أربعة تذهب ماء الوجه : الكذب ، والوقاحة ، والتكبر ،
والنَّظَرُ إلى المقتول .

أربعة تزيد ماء الوجه : الوفاء بالعهد ، والكرم ، والكلام
الطيب ، وطاعة الله سبحانه وتعالى .

أربعة لا تُدْرِكُ بأربع : الشَّبابُ بالخضاب ، والغنى
بالمنى ، والبقاء بالدَّواء والصَّحَّةُ بالحمية .

أربع من كنوز البر : كتمان الفاقة ، وكتمان المصيبة ،
وكتمان الوجد ، وكتمان السر .

أربع ترفع الرَّجُلَ إلى أعالي الدَّرَجَات وإن قُلَّ علمه :
الحلم ، والتواضع ، والسَّخاء ، وحسن الخلق .

أربعة تؤكِّد المحبة : حُسْنُ البِشْرِ ، وبذل البر ، وقصد
الوفاق ، وترك الشَّقَاق .

أربعة من علامات الكرم : بذلُ النَّدَى ، وكفُّ الأذى ،
وتعجيل المثوبة ، وتأخير العقوبة .

وأربعة من علامات اللُّؤْم : إفشاءُ السَّرِّ ، واعتقادُ الغدر ،
وتغيبه الإخوان ، وإساءة الجوار .

أربعة من علامات الإيمان : حُسْنُ العَفَافِ ، والرُّضَا
بالكَفَافِ ، وحَفَظُ اللِّسَانِ ، واعتقاد الإحسان .

أربعة تتولد من أربعة : الشرُّ من الممازحة ، والبُغْضُ من
المكادحة والوحشة من الخلاف ، والنُّبُوَّةُ ^(١) من الاستخفاف .

أربعة لا تنتصف من أربعة : الشَّرِيفُ من الدُّنْيَى ،
والرَّشِيدُ مِنَ الْغَوْيِ ، والْبِرُّ مِنَ الْفَاجِرِ ، والمنصف من الجائر .

أربعة تؤدي إلى أربعة : الصَّمْتُ إلى السَّلَامَةِ ، والْبِرُّ إلى
الْكَرَامَةِ ، والجود إلى السِّيَادَةِ ، والشكر إلى الزِّيَادَةِ .

أربعة تعرف بأربعة : الكاتب بكتابته ، والعالم بجوابه ،
والْحَكِيمُ بِأَفْعَالِهِ ، والحليم باحتماله .

أربعة لا تستغني عن أربعة الرَّعِيَّةُ عن السَّاسَةِ ، والجيش
عن القادة ، والرأي عن الاستشارة ، والعزمُ عن الاستخارة .

أربعة تقوي البدن : أكلُ اللحم ، وشمُّ الطَّيِّبِ ، وكثرة
الغُسْلِ من غير جماع ، ولبس الكتان .

أربعة تمرض الجسم : الكلام الكثير ، والنَّوْمُ الكثير ،
والأكل الكثير ، والجماع الكثير .

(١) النبوة : الجفوة .

أربعة تقوي البصر : الجلوس مستقبل القبلة ، والكحل
عند النوم ، والنظر إلى الخضرة ، وتنظيف المجلس .

أربعة إذا أفسدهم البطر ، لا تزيدهم التكرمة إلا فساداً :
الزوجة ، والولد ، والخادم ، والرعية .

السعادة أربع : سلامة الخلق ، وجودة العقل ، وتأتي
المطلوبات ، والمحبة في الناس .

الرجال أربعة : رجل يدري ، ويدري أنه يدري ، فذلك
عالم فسكوه . ورجل يدري ، ولا يدري أنه يدري ، فذلك غافل
فنبهوه . ورجل لا يدري ، ويدري أنه لا يدري ، فذلك
مسترشد فعلموه ، ورجل لا يدري ، ولا يدري أنه لا يدري ،
فذلك جاهل فرفضوه .

أركان الدين والدنيا أربعة : الصبر ، والصدق ،
والحلم ، والوفاء .

أربعة لا يدري قدرها إلا أربعة : لا يعرف قدر الحياة إلا
الموتى ، ولا قدر الصحة إلا المرضى ، ولا قدر العافية إلا أهل
البلاء ، ولا يعرف قدر الغنى إلا الفقراء .

ومن الشعر:

بأربعة أرجو نجاتي وإنَّها
لأكرم مَذْخُورٍ لَدِيٍّ وَأَعْظَمُ
شهادةُ إخلاصي وحُبِّي محمداً
وحُسْنُ ظنوني ثمَّ إني مُسَلِّمٌ

فصل خمسة

فَمِنْ الْحَدِيثِ الْوَارِدِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ:

«خمسٌ لا يجتمعنَ إلا في مؤمنٍ حقًا: النُّور في القلب، والفقہ في الإسلام، والورع في الدين، والمودَّة في النَّاس، وحسن السَّمَت في الوجه».

«خمس يفطرن الصَّائم وينقضنَ الوضوء: الغيبة، والنَّميمة، والكذب، والنَّظرة بالشَّهوة، واليمين الغموس»^(١).

«خمس دعوات لا تُردُّ: دعوة الغازي حتَّى يرجع، ودعوة المريض حتَّى يبرأ، ودعوة المظلوم، ودعوة الصَّائم حتَّى يفطر، ودعوة الرَّجل لأخيه بظهر الغيب».

«خمسٌ لا يتعدَّاهنَّ كلُّ عبد: عمله، وأجلُّه، وأثره، ورزقه، ومضجعه»

(١) اليمين الغموس: الكاذبة التي يتعمدها صاحبها عالمًا بأن الأمر بخلافه، وهي التي تغمس صاحبها في الإثم.

«خمس من الإيمان من لم يكن فيه شيء منهنّ فلا إيمان له : التّسليم لأمر الله ، الرّضا بقضاء الله ، والتّفويض إلى الله ، والتّوكّل على الله ، والصّبر عند الصّدّمة الأولى» .

«خمس خصال من السّعادة : اليقين في القلب ، والورع في الدّين ، والزّهّد في الدّنيا والحياء ، والعمل .

«خمس خصال من الشّقاء : القسوة في القلب ، وجمود العين ، وقلة الحياء والرّغبة في الدّنيا ، وطول الأمل» .

ومن الحكمة المأثورة عن السّلف وغيرهم :

خمسة تقبح بخمسة : ضيق الذّرع بذي المال ، وسرعة الغضب بالعلماء ، والبذاء بالنّساء ، والمرض بالأطباء ، والكذب بالقضاة .

مفاتيح الأرزاق خمس : حُسن الخلق ، وحُسن الجوار ، وكفّ الأذى ، وصِدق الحديث ، وأداء الأمانة .

قال عليّ رضي الله عنه : خمسٌ خذوها عني : ألا لايرجُونَ أحدٌ إلّا ربّه ، ولا يخافنّ إلّا ذنبه ، ولا يستنكف أن يتعلّم ما ليس عنده ، وإذا سئل عمّا لا يعلم فليقل : لا أعلم ، والصّبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد .

ومن الشعر:

أقبل على صلواتك الخمس
كم مُصبح عَساهُ لا يُمسي
واستقبل اليومَ الجديدَ بتوبةٍ
تَمْحو ذنوبَ صحيفةِ الأمسِ

فصل ستة

فَمِنْ الْحَدِيثِ الْوَاردِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ :

«ستٌ خصالٌ من لقي الله تعالى ولم يعمل بهنَّ دخل الجنة : لم يشرك بالله شيئاً، ولم يسرق، ولم يزن، ولم يرم محصنة، ولم يعصِ ذا أمر، ويقول الحقَّ أو يصمت» .

«ستٌ خصالٌ اكفلوهنَّ لي أكفل لكم الجنة : الصلاة، والزكاة، والصيام، والبطن، واللسان، والفرج» .

ومن الحكمة الماثورة عن السلف وغيرهم :

«ستٌ خصالٌ مَنْ كُنَّ فيه فهو إنسانٌ كامل : الألفة، والحياء، والأدب، والأنفة، والشكر، والرجاء» .

«ستة لا بقاء لها : ظلُّ الغمام، وخلة الأشرار، وعشق النساء، والمال الكثير، والسلطان الجائر، والثناء الكاذب» .

فروع الشرِّ ستة : حبُّ الدنيا، وحبُّ الرئاسة، وحبُّ الثناء، وحبُّ الشُّبَّع، وحبُّ النوم، وحبُّ الراحة» .

سته لا تفارقهم الكآبة : حديثُ عهدٍ بِغِنَى ، ومكثُر
لا يخاف على ماله ، وطالب مرتبة فوق صدره ، والحسود ،
والحقود ، وخليط أهل الأدب وهو غير أديب .

من جمع ستّ خصال لم يدع للجنة مطلباً ، ولا عن
النار مهرباً : مَنْ عرف ربّه فأطاعه ، وعرف شيطانه فعصاه ،
وعرف الحقّ فاتّبعه ، وعرف الباطل فاتّقاه ، وعرف الدُّنيا
فرفضها ، وعرف الآخرة فطلبها .

ومن الشُّعر :

ستُّ بليتُ بها والمستعاضُ بهِ

مِنْ شرّها مَنْ إليه الخلقُ يبتهِلُ

نفسِي وإبليس والدُّنيا التي فتنت

مَنْ قبلنا ، والهوى والحرصُ والأملُ

إن لم تكن منك يا مولاي واقيةٌ

مِنْ شرّها فقد أعيتُ عَبْدَكَ الحِيلُ

فصل سبعة

فَمِنْ الْحَدِيثِ الْوَاردِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ:

«سبعة يُظِلُّهم الله في ظِلِّه يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ: إمام عادل، وشابٌ نشأ في عبادة الله، ورجلٌ قلبه معلقٌ بالمسجد حتى يرجع إليه، ورجلان تحابَّا في الله، اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات حسن وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدَّقَ بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه».

ومن الحكمة الماثورة عن السلف وغيرهم:

سبع خصال من كانت فيه لم يعدم سبعا: من كان ذا وفاء لم يعدم المنَّة، ومن كان صدوقاً لم يعدم القبول، ومن كان شكوراً لم يعدم الزيادة، ومن كان ذا رعاية للحقوق لم يعدم السُّودد، ومن كان منصفاً لم يعدم العافية، ومن كان متواضعاً لم يعدم الكرامة.

سبع خصال لا توجد معهنَّ غربة: حُسن الأدب،
واجتناب الرِّيب، وكفُّ الأذى، وسعة الخلق، واحتمال
الصبر، وجميل العشرة، وصحبة النَّاس على أخلاقهم.

ومن الشُّعر:

جاء الصَّيَّامُ ومن صاداته بيدي
سبعٌ، فقد أكسبَتني بالقبولِ ثِقَةً
صوفيتي وصفائي في صلاحيتي
والصَّبْرُ، والصَّوْنُ، ثمَّ الصَّدْقُ والصَّدَقَةُ

فصل ثمانية

قال المؤلف : لم أجد في هذا الفصل حديثاً عن
النبي ﷺ :

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لابنه الحسن رضي
الله عنه : يا بني ؛ احفظ عني هذه الثمانية خصال لا يضرُّك
ما عملتَ بهنَّ شيءٌ : أغنى الغنى العقل ، وأكبر الفقر الحمق ،
وأوحش الوحشة العجب ، وأكرم الحسب حسنُ الخلق ، وإياك
ومصاحبة الأحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرك ، وإياك
ومصادقة الكذاب فإنه يقرب لك البعيد ، ويبعد عنك القريب ،
 وإياك ومصادقة البخيل فإنه يقعد عنك أحوج ما تكون إليه ،
 وإياك ومصادقة التاجر فإنه يبيعك بالتأفه اليسير .

ومن الحكمة الماثورة عن السلف وغيرهم :

ثمانية إن أهينوا فلا يلوموا إلا أنفسهم : الآتي إلى صنع

لم يُدْعَ إليه ، والمتأمّر على ربّ البيت في بيته ، والدّاخِل بين
اثنين في حديث لم يُدْخِلْهُ فيه ، والمستخفُّ بالسُّلطان ،
والجالس مجلساً ليس فيه بأهل ، والمقبل بحديث على من
لا يسمعه . وطالب الخير من أعدائه ، وطالب الفضل من
اللّثام .

ومن الشعر :

ثمانيةٌ قامَ الوجودُ بها فهلُ
تري من مَحِيصٍ للورى عن ثمانية
سرورٌ وحُزنٌ واجتماعٌ وفرقةٌ
وعُسْرٌ ويسرٌ ثمَّ سُقمٌ وعافية
بهنَّ انقضت أعمارُ أولادِ آدمٍ
فهل من رأى أحوالهم متساوية

فصل تسعة

فمن الحديث الوارد عن النبي ﷺ:

«أمرني ربي بتسع خصال: الإخلاص في السر والعلن،
والعدل في الرضى والغضب، والقصد في الغنى والفقر، وأن
أعفو عمن ظلمني، وأصل من قطعني، وأعطي من حرمني،
وأن يكون نطقي ذكراً، وصمتي فكراً، ونظري عبرة».

ومن الحكمة المأثورة عن السلف وغيرهم:

تسعة أشياء تحتاج إلى تسعة لا تصلح إلا بها، ولا تحسن
إلا معها، العقل محتاج إلى التجارب، والنَّجدة إلى الجدة،
والحَسَب محتاج إلى الأدب، والسرور محتاج إلى الأمن،
والقراية محتاجة إلى الصداقة، والشرف محتاج إلى التواضع،
والعمر محتاج إلى الصُّحَّة، والمال محتاج إلى الكفاية،
والاجتهاد محتاج إلى التوفيق.

شروط العلم تسعة : العقل ، والفطنة ، والذكاء ،
والشُّهرة ، والكفاف من العيش ، والفراغ ، وعدم المانع ،
وطول العمر ، ومعلم عارف سمح .
ومن الشعر :

بتسع يُنالُ العلم : قوتٌ وصحَّةٌ
وحِرصٌ وفهمٌ ثاقبٌ في التَّعلُّمِ
ودرسٌ وحفظٌ للعلوم وهِمَّةٌ
وشَرخٌ شبابٍ واجتهادٌ مُعلِّمِ

فصل عشرة

فمن الحديث الوارد عن النبي ﷺ:

«سُهامُ الإسلام عشرة خاب من لا سهم له فيها: أولُها: شهادة أن لا إله إلا الله، وهي المِلَّة. والصَّلَاة، وهي الفِطْرَة. والزَّكَاة، وهي الطُّهْر. والصُّيَام، وهو الجَنَّة. ، والحَجُّ، وهو الشَّريعة. والجهادُ، وهو الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر. والطَّاعة، وهي العِصْمَة. والجماعة، وهي الإلْفَة، والغُسْلُ من الجنابة، وهي السَّريرة».

ومن الحكمة الماثورة عن السلف وغيرهم:

عشرة من أخلاق العاقل: الحِلْم، والعِلْم، والرُّشْد، والعَفَاف، والتَّعَاوُن، والحَيَاء، والرَّزَانَة، والمُداوِمة على الخير، وكراهية الشرِّ، وطاعة النَّاصِح.

ومن الشعر :

إنَّ المكارمَ أخلاقٌ مطهَّرةٌ

فالعقلُ أوَّلُها والدينُ ثانيها

والعلمُ ثالثُها والحِلْمُ رابعُها

والصَّبْرُ خامِسُها والصَّدقُ سادِثُها

والشُّكرُ سابعُها والجودُ ثامنُها

والرِّفقُ تاسِعُها واللِّينُ عاشِثُها

والنَّفْسُ تُعلمُ مِن عَيني مُحدِّثُها

إنَّ كانَ مِن حِزْبِها أو مِن أَعادِثِها

ولستُ عُمرِي في حالٍ أَصدِّقُها

ولا أرى الرُّشدَ إلَّا حينَ أَغصِثِها

القسم الثاني

في السُّؤدد، والمروءة، ومكارم الأخلاق، ومدارة
الناس والتأدب معهم في حالي الغنى والإملاق

اعلم أنه يجب على الإنسان أن يتخلق بالأخلاق الموجهة
للسيادة، ويعتني في طلب المكارم، والمجادة، وألا يتشاغل
عنها بسواها، ولا يصرف همته إلى ما عداها.

قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ أَسْرَعَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يَبْطَأْ بِهِ حَسَبُهُ، وَمَنْ أَبْطَأَ بِهِ
عَمَلُهُ لَمْ يُسْرَعْ بِهِ حَسَبُهُ»

قال حكيم لحكيم: ما السُّؤدد؟ فقال: اصطناع
العشيرة، واحتمالُ الجريرة. قال: فما الشَّرَفُ؟ فقال: كَفُّ
الأذى، وبذلُ النَّدَى. قال: فما الثَّنَاءُ؟ فقال: استعمال

الأدب، ورعاية الحسب . قال : فما المجد؟ فقال : احتمال
المغارم ، وابتناء المكارم .

قال : فما المروءة؟ قال : عرفان الحق ، وتعاهد الصنيعة ،
قال : فما السماحة؟ فقال : حب السائل ، وبذل النائل . قال :
فما الكرم؟ فقال : صدق الإخاء في الشدة والرخاء .

قال رسول الله ﷺ : «مكارم الأخلاق عشرة تكون في
الرجل ولا تكون في ابنه ، وتكون في الابن ولا تكون في أبيه ،
وقد تكون في العبد ولا تكون في سيده ، يقسمها الله تعالى لمن
أراد به السعادة ، وهي : صدق الحديث ، وصدق البأس ، وألا
يشبع وجاره وصاحبه جائعان ، وإعطاء السائل ، والمكافأة
بالصنائع ، وحفظ الأمانة ، وصلة الرحم ، والتدبم
للصاحب ، وقرى الضيف ، ورأسهن الحياء .

قال بعضهم : وشرف الوالد جزء من ميراثه ، منتقل إلى
ولده كانتقال ماله ، فإن رعى وحرس ثبت وازداد ، وإن أهمل
وضيع هلك وباد .

وكذلك شرف الولد يعم القبيلة ، وللوالد منه الحظ
الأكبر ، والقسم الأوفر .

قال أبو علي حسن بن رشيّق : والذي يقع عليه الاختيار
عندهم قول المتوكّل اللّبيّ :

إنا وإن أحسبنا كرّمّت

لَسنا على الأحساب نتكلُّ

نبني كما كانت أوائلنا

تبني ونفعل مثلما فعلوا

وقول عامر بن الطّفيل :

وإني وإن كنتُ ابنَ سيّدٍ عامر

وفارسها المشهور في كلّ مؤكّب

فما سوّدتني عامرٌ عن ورائته

أبى الله أن أسمو بأمٍّ ولا أب

ولكنّي أحمي حماها وأنقي

أذاها وأرمي من رماها بمقنب^(١)

(١) المقنب : جماعة من الفرسان والخيل دون المئة ، تجتمع للغارة .

قال بعض الحكماء : من جَمَعَ إلى شرفِ أصله شرفَ نفسه فقد استدعى الفضل بالحجة ، ومن أغفل نفسه ، واعتمد على شرف آبائه فقد عَقَّهم واستحقَّ ألاَّ يقدم بهم على غيرهم .
والافتخار نوعان : فخر الإنسان بنفسه ، وفخره بسلفه ، والكمال في الجمع بين الأمرين .

قال الشاعر :

ما السُّودُّ المكسوبُ إلا دونَ ما

يومي إليه السُّودُّ المولودُ

فإذا هما اجتمعا تكسرتِ القنا

إن غولبا وتضعُ الجلمودُ

قال أبو عمرو بن العلاء : كان أهل الجاهلية لا يُسَوِّدون إلا مَنْ كانت فيه ستُّ خصال ، وتماها في الإسلام سابعة : السَّخَاءُ ، والنَّجْدَةُ ، والصَّبْرُ ، والحِلْمُ ، والبيانُ ، والحُسْبُ ، وفي الإسلام زيادة : العَفَافُ .

وقيل لقيس بن عاصم : بِمَ سَوَّدَكَ قومك؟ قال : بكفُّ الأذى ، وبذل النَّدَى ، ونُصرة المولى .

وقال الأشعث بن قيس يوماً لقومه : إنما أنا رجل منكم ،
ليس لي فضلٌ عليكم ، لكنني أبسطُ لكم وجهي ، وأبذل لكم
مالي ، وأقضي حقوقكم ، وأحوط حريمكم ، فمن فعل مثلَ
فعلي فهو مثلي ، ومن زاد علي فهو خير مني ، ومن زدتُ عليه
فأنا خيرٌ منه ، قيل له : يا أبا محمد ما يدعوك إلى الكلام ؟ قال :
حضتهم على مكارم الأخلاق .

قال رسول الله ﷺ : «بُعِثْتُ لِأَتَمَّ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ» .
ولما أتني ﷺ بسبأيا طيِّء ، كانت في السبأيا جاريةٌ
جميلةٌ فضيحةٌ ، فقالت : يا رسول الله ، بل يا مُحَمَّد ، هلك
الوالد ، وغاب الرَّأْفَد ، فإن رأيتَ أن تُخَلِّيَ عَنِّي ، ولا تُشِمْتَ
بي أحياءَ العرب فإنني بنتُ سيِّد قومي ، كان أبي يفكُّ العاني ،
ويحمي الذُّمار ، ويقري الضَّيف ، ويشبع الجائع ويُفَرِّجُ عن
المكروب ، ولم يردِّدْ سائلاً قطُّ ، أنا بنتُ حاتم الطَّائي . فقال
رسول الله ﷺ : هذه صفة المؤمن ، ولو كان أبوك مُسْلِمًا
لَتَرَحَّمْتُ عليه ، خَلُّوا عنها فإنَّ أباهَا كان يُحِبُّ مَكَارِمَ
الأخلاق .

قيل لعصابة الأوسي : بمَ سَوَّدَكَ قومك ؟ قال : بأربع
خلال : أنخدع لهم في مالي ، وأذلُّ لهم في عِرْضي ، ولا أحقر

صَغِيرَهُمْ ، وَلَا أَحْسَدَ كَبِيرَهُمْ ، وَفِي عَرَابَةِ الْأَوْسِيِّ يَقُولُ
الشَّاعِرُ :

رَأَيْتُ عَرَابَةَ الْأَوْسِيِّ يَسْمُو
إِلَى الْخَيْراتِ مَنْقَطَعَ الْقَرِينِ
إِذَا مَسَّ رَايَةً رُفِعَتْ لِمَجْدٍ
تَلَقَّاهَا عَرَابَةُ بِالسَّيْمِينِ
وَقَالَ أَبُو الطَّيِّبِ :

إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلْمَرْءِ فَضْلٌ وَلَمْ يَكُنْ
يُدَافِعُ عَنْ إِخْوَانِهِ لَمْ يُسَوِّدْ
وَكَيْفَ يَسْوَدُ النَّاسَ مَنْ كَانَ دَهْرُهُ
بِلَا مَنَّةٍ مِنْهُ عَلَيْهِمْ وَلَا يَدٍ

وَكَانَ أَسْمَاءُ بْنُ خَارِجَةَ الْفَزَارِيِّ سَيِّدَ أَهْلِ الْكُوفَةِ ، فَقَالَ
لَهُ يَوْمًا عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ : مَا أَشْيَاءُ تَبْلُغُنِي عَنْكَ يَا أَسْمَاءُ ؟
فَقَالَ : يُحَدِّثُكَ غَيْرِي عَنِّي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ :
وَعَلَى ذَلِكَ فَأَحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهَا مِنْكَ يَا أَسْمَاءُ ، فَقَالَ : نَعَمْ ،
يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : مَا مَدَدْتُ رِجْلِي بَيْنَ يَدَيْ جَلِيسٍ لِي قَطُّ مَخَافَةَ

أن ير أنني تكبرتُ عليه، ولا سألني رجل قط حاجة إلا كان
أكبر همي من الدنيا قضاء حاجته، ولا أكل رجل قط عندي
أكلة إلا كان له الفضلُ عليَّ أيام حياتي، ولا ظلمني رجل قط
بمظلمة إلا رأيتُ عقوبته العفو عنه، فقال عبد الملك: حسبك
بهذا شرفاً يا أسماء، ثم أنشد عبد الملك يقول:

إذا ماتت خارجة بن حصنٍ

فلا مطرت على الأرض السماءُ

ولا رجع الوفورُ بغنم عيشٍ

ولا حملت على الطُهر النساءُ

ليوم منك خيرٌ من أناسٍ

كثير حولهم نعم وشاءُ

فبورك في بنيك وفي بنيهم

إذا ذكروا ونحن لك الفداءُ

وهذه الأبيات لعبد الله بن الزبير الأسدي في مدح

أسماء بن خارجة المذكور.

قال الشاعر :

والابنُ ينشأ على ما كان والدهُ

إنَّ العُروقَ عليها ينبتُ الشَّجرُ

ومن محض النصيحة بمقتضى مضمون هذا الباب قول

ابن دريد :

وإنَّما المرءُ حديثٌ بعدهُ

فَكُنْ حديثًا حسنًا لِمَنْ وَعَى

وقد قال المُفسِّرون في قول الله - عزَّ وجلَّ - يَمُنْ خَلِيلُهُ

إبراهيمَ ، صلوات الله ، سلامه على نبينا وعليه : ﴿ واجعل لي لسانَ صدقٍ في الآخرين ﴾ (الشعراء : ٨٤) أي ثناءً حسنًا .

قال قسُّ بن ساعدة : مَنْ فاتهُ حَسَبُ نَفْسِهِ لَمْ يَنْفَعِهِ

حَسَبُ أَبِيهِ .

وقيل لبعض الحكماء : متى يبلغ الرَّجُلُ درجةَ الكمالِ ؟

قال : إذا اتقى مَنْ خَلَقَهُ ، وجاد بما رزقه ، فذاك الذي أنهجَ إلى الكمالِ طُرُقَهُ .

قال عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى

جعل مكارم الأخلاق ، محاسنها وصلًا بينكم وبينه ، بحسب الرَّجُلِ أَنْ يَتَّصِلَ إِلَيْهِ بِخُلُقٍ مِنْهَا .

وقال بعضهم : إذا رغبتَ في المكارم ، فاجتنبِ المحارم .
قال بعض الحكماء : مَنْ أَخَذَ نَفْسَهُ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ ،
جَرَى مِنَ الْفَضْلِ فِي مِيدَانِ السَّبَاقِ ، فَاسْتَوْجِبَ حُسْنَ الثَّنَاءِ
بِالاستحقاق .

قال عمرو بن العاص : في كل شيء سرف ، إلا في
ابتناء مكرمة ، واصطناع معروف .

وقال الشاعر :

إذا أعجبتك خصال امرئٍ
فكنه تكن مثل ما يعجبك
فليس على الجسد والمكرمات
إذا جئتها حاجبٌ يحجبك

الفصل الأول

في الأدب

قالت الحكماء : الأدب أحد المتصفين .

وقالوا : نِعَمَ الْعَوْنُ لِمَنْ لَا عَوْنَ لَهُ الْأَدَبُ .

وقال الأحنف : الأدب نور العقل ، كما أن النار في الظلمة نور البصر .

واعلم أن الأدب - كما قيل - أربعة : أدب لسان ، وأدب جَنَان^(١) ، وأدب زمان ، وأدب إيمان . فأدب اللسان الفصاحة والبلاغة ، وذكر ما صدر عن أربابها . وأدب الجنان : الانقياد ، والسهولة والتزينُ بهما ، وأدب الزمان : سيرة كبراء أهله في مخاطباتهم وتصرفاتهم ، وحفظ أخبارهم ، وأدب إيمان : ما جاء به الشرع من المحاسن المكملة في الأخلاق والأقوال والأفعال .

(١) الجنان : القلب أوروعه .

وقيل : التَّادُّبُ نوعان : ما يلزم الإنسان في تأديب ولده ، أو فيمن يلزمه تأديبه ، وهو أن يأخذه بمبادئ الأدب ليأنس بها حتى يصير له كالطَّبع ، وما يلزم الإنسان في تأديب نفسه . فأما ما يلزم الإنسان في تأديب نفسه فقسمان : أدب مواضعة واصطلاح ، وأدب رياضة واستصلاح .

فالأوّل : ما اصطلاح عليه العقلاء ، واستحسنه الأدباء .

والثاني : ما هو محمول على حال لا يجوز في العقل أن يكون على خلافها .

قال المفضل : رأس الأدب معرفة الرَّجُل نفسه .

وقال بعضهم : رأس الأدب المنطق ، ولا خير في قول إلا بفعل ، ولا في مال إلا بجود ، ولا في صدق إلا بوفاء ، ولا في فقه إلا بورع ، ولا في صدقة إلا بنية .

ولما دخل ضمرة بن ضمرة على المنذر بن ماء السماء ، وهو إذ ذاك ملك الحيرة واليمامة . وكان ضمرة ذا عقل وعلم ، وحلم وحكمة وشجاعة ، إلا أنه كان دميم الخلقة ؛ قصير القامة ، وكان ذكره قد شاع في الآفاق لما فيه من الخصال الحمودة ، فلما راه المنذر احتقره لدماثة خلقة وقصر قامته .

فقال : سماعك بالمعديّ خير من أن تراه فقال له ضمرة : أيّها الملك ليس المرء بحسنه وجماله ، وبهائه وكماله ، وهيئته وثيابه ، لا والله حتّى يُشرّفه أصغراه : لسانه وقلبه ، ويعلّو به أكبراه : همته ولُبُّه^(١) . وقد قال الشاعر :

وما المرء إلا الأصغران لسانه

ومِقْرولُهُ ، والجِسمُ خُلُقٌ مُصَوَّرٌ

وفي هذا المعنى قول بعضهم :

وكائن ترى من صامتٍ لك معجب

زيادته أو نقصه في التكلّم

لسانُ الفتى نصفٌ ، ونصفُ فؤاده

فلم يبقَ إلا صورةُ اللحم والبدن

وقولهم : فلان لا أصل له ولا فصل . الأصل :

الحَسَبُ . والفَصْلُ : اللُّسان .

قالت الحكماء : جاهك بالمال إنّما يصحبك ما صحبتك

المال ، وجاهك بالأدب غير زائل .

(١) اللَّبُّ : العقل .

قال علي بن الجهم :

لو قيل لي : تملك الدنيا بأجمعها

ولا تكون أديباً تُحسِنُ الأدباً

لَقُلْتُ : لا أبتغي هذا بذاك ولا

أرى إلى غيره مُستدعياً أرباً

لَجَلْسَةٍ مع أديبٍ في مذاكسرةٍ

أنفي به الهمُّ أو أستجلب الطرباً

أشهى إليَّ من الدنيا وزخرفها

ومثلها فضةٌ أو مثلها ذهباً

وقال بزرجمهر : ما ورث الآباءُ الأبناءَ خيراً من الأدب ،

لأنَّ بالأدب يكسبون المال وبالجَهل يتلفونه .

قال الشاعر :

يطيب العيشُ إن تلقى أديباً

غذاهُ العلمُ والرأيُ المُصَيَّبُ

فيكشفُ عنكَ حيرةَ كُلِّ جَهِلٍ

وفضلُ العلمِ يعرفهُ الأديبُ

وقالت الحكماء : الأدب أفضل من الحسب ، لأنَّ الرَّجُلَ
ينطقُ به فيُعَرَفُ قبل حَسَبه ، ومن فقدَ نَسَبه نُهَضَّ به أدبه .

وقد جمع الله تعالى لنبيه ﷺ جملة من الأدب في قوله
سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ، وَإِيتَاءِ ذِي
الْقُرْبَى ، وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُونَ ﴾ (النحل : ٩٠) وأمر بذلك عباده ، فيجب على
الإنسان أن يؤدِّب نفسه قبل أن يؤدِّب لسانه ، وأن يهذبَ
أخلاقه قبل أن يهذبَ ألفاظه .

قال أبو بكر بن شيبه : قيل للعباس بن عبد المطلب رضي
الله عنه : أنت أكبر أم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال :
هو أكبر منِّي ، وأنا أسنُّ منه .

وقال بعضهم : الأديب من اعتصم بعزِّ الأدب من ذلَّة
الجهل لم يتورط في هفوة ، وكان أدبه زُكُفَةً^(١) في دنياه وأخراه .

وقال عبد الله بن عمر بن عبد العزيز : قال لي رجاء بن
حيوة : ما رأيت رجلاً أكمل أدباً ، ولا أجمل عِشْرَةً من أبيك ؛

(١) الزُّكُفَةُ : القرية والمنزلة .

وذلك أني سهرتُ معه ليلةً، فبينما نحن نتحدث إذ غشى
المصباح، وقد نام الغلام، فقلت له: يا أمير المؤمنين قد غشى
المصباح، أفنوقظ الغلام ليصلح المصباح؟ فقال: لا تفعل.
فقلت: أفتأذن لي أن أصلحه؟ فقال: لا، لأنه ليس من المروءة
أن يستخدم الإنسانُ ضيفه، ثم قام هو بنفسه، وحطَّ رداءه عن
منكبيه، وأتى إلى المصباح فأصلحه، وجعل فيه الزيت،
وأشخص الفتيل، ثم رجع وأخذ رداءه وجلس، ثم قال:
قمتُ وأنا عمر بن عبد العزيز، وجلستُ وأنا عمر بن عبد
العزيز.

ووصف الشعبيُّ أدبَ عبد الملك بن مروان فقال: واللّه
ما أعرفه قطُّ إلا أخذاً بثلاثٍ تاركاً لثلاث: أخذاً بحسن
الحديث إذا حدث، وبحسن الاستماع إذا حدث، وبأيسر
المؤونة إذا خولِفَ، تاركاً للمحاورة مع اللّثيم، وممارسة السّفيه،
ومنازعة اللّجوج.

قال بعض الحكماء: من لزم الأدب أمن العطب.

وقال بزرجمهر: أفضل منازل الشرف لأهل العلم
والأدب.

وتكلّم عند عبد الملك بن مروان رجل ، وذهب كلّ
مذهب ، فأعجب عبد الملك فقال : ابنُ مَنْ أنت ؟ فقال : ابنُ
نفسي التي توسّلت بها إليك .

قال عمر بن الخطّاب : من قعد به أدبه لم يرفعه حسبه .

قال محمد بن الحنفية : أفضلُ ما ورث الآباءُ الأبناءُ
الأدبُ النافعُ ، والثناءُ الحسنُ ، والإخوان الصّالحون .

وقيل لأرسطاطاليس : ما أحسنُ الحيوان ؟ قال : الإنسان
المُزَيَّنُ بالأدب .

وقال بعض العرب : إنّ لكلّ شيء ذؤابة ، وذؤابة
الشرفِ العقلُ والأدب . وإنّ لكلّ شيء عروة ، وعروة العزِّ
الأدب .

قال شهاب الدين القرافي : ومن نفاسة الأدب وكثرة
جدواه ، أنّ قليله خير من كثير العمل . ولذلك هلك إبليس
لعنه الله ، وضاع أكثر عمله بقلّة أدبه .

وقالوا : حسبُ الرّجل مروءته وحين فعله ، فإذا كان
الرّجل طاهر الأثواب ، كثير الآداب ، صلح بصلاحه ، وتأدب
بأدبه جميع أهله .

قال الشاعر :

رَأَيْتُ صَلاَحَ الْمَرْءِ يُصْلِحُ أَهْلَهُ

وَيَعْدِيهِمْ دَاءُ الْفَسَادِ إِذَا فَسَدَ

يُعْظَمُ فِي الدُّنْيَا لِفَضْلِ صَلاَحِهِ

وَيُحْفَظُ بَعْدَ الْمَوْتِ فِي الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ

دخل أعرابيٌ على أبي جعفر المنصور ، فتكلّم فأحسن ،

فأعجبه كلامه ، فقال له المنصور : سَلْ حاجَتَكَ ، فقال : يبيك

الله يا أمير المؤمنين ، ويزيد في سلطانك ، قال المنصور : ليس

في كُلِّ وقتٍ يمكنني أن أمر لك بما تُحِبُّ . فقال : والله يا أمير

المؤمنين ما أَسْتَقْصِرُ عُمْرَكَ ، ولا أَخافُ بُخْلَكَ ، ولا أَغْتَنِمُ

مَالَكَ ، وإنَّ سؤَالَكَ لَزِينٌ ، وإنَّ عطاءَكَ لَشَرَفٌ ، فأطال الله

الأمّة بقاءك ، وأحسنَ عنها جزاءك ، فأمر المنصور بحشوفمه

جوهراً ، وكتبه في العطاء .

ودخل رجل يوماً على الإسكندر رث الهيئة ، فتكلّم

فأحسن ، وسُئِلَ فأصاب الجواب ، . فقال له الإسكندر : لو

أعطيتَ جسمَكَ حقّةً من الزينة كما أعطيتَ نفسك حقّها من

العلم والمعرفة ، لأشبهه بعضك بعضاً . فقال له : أيّها الملك ،

أما الكلام فأقدر عليه فيأتي مالكة، وأما الزينة فلا أقدر عليها
لأنني لا أملكها. فعلم أنه محتاج، فخلع عليه، وأحسن إليه
وقربه.

ودخل بعض العلماء على الرشيد، وكان دميم
الصورة، قصير القامة، فاستحققه الرشيد، فقال: ما أقبح هذا
الوجه أفعال العالم: يا أمير المؤمنين إنَّ حسنَ الوجه ليسَ ممَّا
يُتوسَّلُ به إلى الملوك. هذا يوسف -عليه السلام- أحسن الناس
وجهاً، قال: ﴿اجعني على خزائن الأرض إنني حفيظ عليم﴾
(يوسف: ٥٥) ولم يقل: إنني حسنُ الوجه جميل. قال:
صدقت، ارتفع، فرفع قدره، وقرب مجلسه.

ومن الواجب على من عري من الأدب، وتخلَّى عن
المعرفة والفهم، ولم يتحلَّ بالعلم أن يلزم الصمت، ويأخذ
نفسه به، فإنَّ ذلك حظُّ كبير من الأدب، ونصيب وافر من
التوفيق، لأنَّه يأمنُ من الغلط، ويعتصم من دواعي السَّقط،
فالأدب رأس كلِّ حكمة، والصمتُ جماع الحكم.

قال الشاعر:

وفي الصمتِ سترٌ للعيِّ وإنَّما

صحيفة لب المرء أن يتكلَّمَا

قال يحيى بن خالد: ما رأيت رجلاً قط إلا هبته حتى
يتكلم، فإن كان فصيحاً عظم شأنه في صدري. وإن كان
مُتَصَرِّفاً سقط عن عيني.

قال الشاعر:

لسان المرء يُنبئ عن حجه
وعني المرء يستتره السكوت
وكان يقول: الجمال في اللسان، والمرء مخبوء تحت
لسانه.

قال ابن مسعود: إن كل مؤدب يجب أن يؤخذ بأدبه،
وإن أدب الله هو القرآن. ولولا ما قد جبلت عليه النفوس من
ارتياحها إلى أنواع تختلف، وارتياحها، بل واسترواحها إلى
فنون تُستطرف لكان كتاب الله كافياً، وذكر غيره مستحسناً.

الفصل الثاني

في المروءة

اعلم أنَّ المروءة دالةٌ على كرم الأعراق ، باعثة على مكارم الأخلاق . وهي مراعاة الأحوال التي يكون الإنسان على أفضلها .

قال رسول الله ﷺ : «من عامل النَّاس فلم يظلمهم ، وحدثهم فلم يكذبهم ، ووعدهم فلم يخلفهم ، فهو ممن كملت مروءته ، وظهرت عدالته ، ووجبت أخوته» .

وقال ﷺ : «لا دين إلا بمروءة» .

وقال ﷺ : «المروءة في الإسلام : استحياء المرء من الله أولاً ، ثم من نفسه آخرًا»

قال ابن سلام : حدُّ المروءة رعي مساعي البرِّ ، ورفع دواعي الضرِّ ، والطَّهارة من جميع الأدناس ، والتخلُّص من عوارض الالتباس ، حتَّى لا يتعلَّق بحاملها لوم ، ولا يلحق به

ذمّ، وما من شيء يحمل على صلاح الدين والدنيا ، ويبعث على شرف الممات والمحيّا إلا وهو داخل تحت المروءة .

قيل لبعض الحكماء : ما المروءة؟ قال : طهارة البدن ، والفعل الحسن .

وسئل بعضهم : أيّ الحلال أجمع للخير ، وأبعد من الشرّ ، وأحمد للعقبى؟ فقال : الجنوح إلى التقوى والتحيز إلى فئة المروءة .

وقال بعض العلماء : اتقِ مصارع الدنيا بالتمسك بحبل المروءة ، واتقِ مصارع الآخرة بالتعلّق بحبل التقوى تفزّ بخير الدارين ، وتحلّ أرفع المنزلتين .

وقال بعضهم : إذا طلبَ رجلانَ أمراً ظفر به أعظمهم مروءة .

قال الشاعر :

كمالُ المروءة صدقُ الحديثِ

وسِرُّ القبيح عن الشامتينا

قيل للأحنف بن قيس : ما المروءة؟ قال : صدق اللسان ، ومواساة الإخوان .

قال رسول الله ﷺ: «تجافوا عن عقوبة ذي المروءة ما لم تبلغ حداً، وإذا أتاكم كريم قوم فأكرموه».

وأسباب المروءة إنما هي مرتبطة بشرف النفس، وعلو الهمة إذا اجتمعا ولم يتفرقا.

قال بعض الحكماء: المروءة سجيةٌ جبلت عليها النفوسُ الزكية، وشيمٌ طبعت عليها الهمم العلية، وضعفت عنها الطباع الدنية، فلم تطق حمل أشراتها السنية.

وقال غيره: لا يدرك المروءة إلا من حوى خصالها، وجمع خلالها. وفي ذلك يقول الشاعر:

إن المروءة ليس يدركوها امرؤ

ورث المكارم عن أب فاضاعها

أمرته نفس بالدناءة والخنأ

ونَهته عن سُبُل العُلا فاطاعها

فإذا أصاب من المكارم خلة

يبني الكريمُ بها المكارم باعها

وللمروءة وجوهٌ وآدابٌ لا يحصرها عدد ولا حساب،

وقلما اجتمعت شروطها قط في إنسان، ولا اكتملت وجوهها

في بشر، فإن كان ففي الأنبياء - صلوات الله عليهم - دون
سائرهم . وأما الناس فيها فعلى مراتب بقدر ما أحرز كل واحد
منهم من خصالها ، واحتوى عليه من خلالها .

قال بعض الحكماء : لا تفارق الصبر فتعظم عليك
البلوى ، ولا المروءة فتشمت بك الأعداء ، قال الشاعر :

من فارق الصبر والمروءة

أمكن من نفسه عدوه

قيل لعبد الملك بن مروان : كان مصعب بن الزبير يشرب
الطلا^(١) قال : لو علم مصعب أن الماء يفسد مروءته ما شربه .
قال الشاعر :

أعفو عن الأمر القبيح تكرماً

وإن لم أكن حبراً ولا متخشعاً^(٢)

وأمنع نفسي ما تلذ وتشتهي

إذا أنا يوماً خفت عينا ومقرعاً

(١) الطلا : الخمر .

(٢) الحبر : العالم الصالح .

ولو خِلْتُ أَنَّ الماءَ يَوْمًا يَشِينَنِي

لَمِتُّ وَلَمْ أَجْرَعْ مِنَ الماءِ مَجْرَعًا

قيل لسفيان بن عيينة : قد استنبطت من القرآن كلَّ شيء ، فأين المروءةُ فيه ؟ فقال : في قوله تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (الأعراف : ١٩٩) ففيه المروءة ، وحُسن الآداب ، ومكارم الأخلاق . فجمع في قوله : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾ صلة القاطعين ، والعفو عن المذنبين ، والرفق بالمؤمنين ، وغير ذلك من أخلاق المطيعين ودخل في قوله تعالى : ﴿ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ﴾ صلة الأرحام ، وتقوى الله في الحلال والحرام ، وغضّ الأبصار ، والاستعداد لدار القرار . ودخل في قوله : ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ والحضّ على التَّخَلُّقِ بِالْحِلْمِ ، والإعراض عن أهل الظلم ، والتَّنَزُّهِ عن منازعة السُّفَهَاءِ ، ومساواة الجَهْلَةِ والأَغْبِيَاءِ ، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة والأفعال الرشيدة .

وقال الله عزَّ وجلَّ حكاية عن قوم قارون : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا ، وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ، وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ ﴾ (القصص : ٧٧) وفيها عين المروءة وحقيقتها .

وقال أنوشروان : المروءة ألا تعمل عملاً في السرّ
تستحي منه في العلانية .

وقال أبو منصور الثعالبي : لا مروءة لمن لا يجتمع
الإخوان على خوانه ، ولا تقع الأجفان على جفانه .

وقال بعضهم : المروءة إدامة الإهداء ، وترك الاستهداء .
وكان يقال : ما أَرْضَى الغضبانَ ، ولا استعطفَ
السُّلطانَ ، ولا سلَّت السَّخائمُ ، ولا دُفَعَت المغارمُ ، ولا تُوقِيَ
المحذورُ ، ولا استُعْمِلَ المهجورُ بمثل الهدية .

قال الشاعر :

هدايا النَّاسِ بعضهم لبعضِ
تُولَدُ في قُلُوبِهِم الوَصْـالَا
وتزْرَعُ في الضَّمَمِـيرِ هَوًى ووداً

وتكسُوهم إذا حضروا جَمالاً
والطَّيْبُ لسانُ المروءة ، قال محمد بن عبد الله العتبيّ :
في الطَّيْبِ أربع خصال : سَنَةٌ ومروءَةٌ ، وَلَذَّةٌ وقُوَّةٌ .

قال المبرّد في كتاب «الكامل» : ثلاثة تحكم لهم بالشرف
والمروءة قبل أن تعرفهم : رجل شممت منه طيباً ، ورجل

تربيته في بلاد العجم وهو يُعرب في كلامه ، ورجل راكب
فرساً جواداً .

قال بعض السلف : المروءة إصلاح المال ، وحسن
التدبير ، وتعاهد الصنعة ، والإفضال على الإخوان .

وقال أبو منصور : المروءة أن تكون بمالك متبرعاً ، وعن
مال غيرك متورعاً .

وقال مسلمة بن عبد الملك : ما أعان على مروءة المرء
كالمرأة الصالحة .

قال الشاعر :

إذا لم يكن في منزل المرء حُسرةٌ

مُسدِّرةٌ ضاعت مروءة داره

وسئل مسعر بن كدام عن المروءة ، فقال : التفقه في
الدين ، ولزوم المسجد إلى أن تطلع الشمس .

وسئل عبد الله الفارسي عنها ، فقال : هي التألفُ ،
والتَّطَرُّفُ ، والتنظُّفُ ، وترك التَّكَلُّفِ .

قال الإمام أبو الحسن الماوردي : الفرق بين العقل
والمروءة أنَّ العقل يأمرُ بالأنفع ، والمروءة تأمرُ بالأجمل ،

ولا ينقادُ للمروءة إلا مَنْ سهلت عليه المشاقَّ رغبة في الحمد،
ولذلك سيّد القوم أشقاهاهم .

قال أبو الطيّب :

لولا المشقّةُ سادَ النَّاسُ كُلُّهُمْ

الجودُ يُفْقِرُ والإقدامُ قَتَالُ

وقال أيضاً :

وإذا كانت النُّفوسُ كُباراً

تعبت في مُرادها الأجسامُ

الفصل الثالث

في المال

اعلم أنَّه قد يحتاجُ الزيادةُ في المالِ زهْلُ التَّكْرُمِ
والإفضالِ، فالمالُ على المروءة من أكبر العون، وللحَسَبِ
والمجد من أعظم الصُّون، وهو يستر العوار، وعدمه يُطفئ
الأنوار.

قال بعض العرب: المروءة طعام مأكول، ونائل مبدول،
وبِشْرٌ مقبول، وكلام معسول.

وقال أحيحةُ بن الجلاح:

رُزِقْتُ لُبًّا ولم أرْزُقْ مُرُوءَةً

وما المروءةُ إلا كثرَةُ المالِ

إذا أرادتْ مُساماةَ تَقَاعِدِي

عَمَّا يَنْوَهُ بِاسْمِي رَقَّةُ الْحَالِ

قيل : لا مروءة لمُقلٍ.

قال بعضهم : المالُ والمروءةُ رَضِيعَا لَبَانٍ، وشريكا عنان،
وغزيا حصان، وفرسًا رهان.

رُفِعَ إِلَى المنصور كثرة نفقات محمد بن سليمان والي
البصرة، فوقع : أعظم الناس مروءةً أكثرهم مؤونةً.

قال بعضهم : لا مروءة إلا بالمالِ والفعالِ.

وقال ابن نباتة :

مثل خلعتُ على الزَّمانِ رداءً

عَوْنُ الدِّراهمِ آفةُ الأَجـ_____وادِ

فَمالُ المرءِ مُؤَثِّلُهُ^(١)، وعمدته، وعدته، وجماله،

ومروءته.

قال رسول الله ﷺ : «نِعَمَ الْعَوْنُ عَلَى تَقْوَى اللَّهِ - عَزَّ
وَجَلَّ - هَذَا الْمَالُ».

وقال - ﷺ : «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَيْنِ : رَجُلٌ أَتَاهُ اللَّهُ مَالاً
فَهُوَ يَنْفِقُهُ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ أَتَاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ، فَهُوَ يَقْضِي بِهَا
وَيُعْلِمُهَا».

(١) أثَّل : أَصْل، وَقَدَّمَ وَشَرَّفَ.

وقد قال بعض الحكماء : خير الدارين الثَّقَى والغنى ،
وشرُّ الدارين الفقر والعجز ، فأجمل في الطلبِ فلن يعدوك
ما قُدِّرَ لك .

وكان يُقال : الشكرُ زينةُ الغنى ، والعفافُ زينةُ الفقر .
ويُقال في المثل : رُبَّ شَرَفٍ عَالِي الذُّرَى ، أَلْحَقَهُ عَدَمُ
الثَّرَاءِ بِالثَّرَى .

قال الشاعر :

يغدو الفقيرُ وكلُّ شيءٍ ضِدَّةً
والنَّاسُ تُغْلِقُ دُونَهُ أَبْوَابَهَا
حَتَّى الْكَلَابَ إِذَا رَأَتْ ذَا مَلْبَسٍ
هَشَّتْ إِلَيْهِ وَبَصَبَصَتْ أَذْنَابَهَا^(١)
وَإِذَا رَأَتْ يَوْمًا فَقِيرًا خَاطِرًا
هَزَّتْ عَلَيْهِ وَكَشَّرَتْ أُنْيَابَهَا
وَيُرْوَى أَنَّ لُقْمَانَ الْحَكِيمَ قَالَ لِابْنِهِ : يَا بُنَيَّ اسْتَعِنْ
بِالْكَيْسِ الْحَلَالِ عَلَى الْفَقْرِ ، فَإِنَّهُ مَا افْتَقَرَ أَحَدٌ إِلَّا أَصَابَتْهُ ثَلَاثُ

(١) بصبص الكلب : حرك ذنبه طمعاً أو ملقاً أو خوفاً .

خلال : رقة في دينه ، وضعف في عقله ، وذهاب مروءته .
وأعظم من هذه الثلاث استخفاف الناس به .

قال قيس بن عاصم لبيه : يا بني عليك باصطناع المال ،
فإنه منبهة للكريم ، ويستغنى به عن اللئيم .

قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - : حسب الرجل
ماله ، وكرمه دينه ، ومروءته خلقه .

وقال حكيم لابنه : اطلب المال ، فإنه عز في قلبك ، وذل
في قلب غيرك .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : الدنيا العافية ،
والشباب الصحة ، والمروءة الصبر ، والكرم التقوى ، والحسب
المال .

وقالت الحكماء : يجمع المال ليصان به العرض ، وتُحيا
به المروءة ، وتوصل به الرحمة .

قال الثوري : المال صلاح المؤمن في هذا الزمان .

وقال عبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنه - : يا حبذا
المال أصون به عرضي ، وأتقرب به إلى ربي .

وقال معاوية : إِنَّ الشَّرَّفَ وَالسُّودَّ لِيَتَقْلَانِ مَعَ الْغِنَى
كَمَا يَتَقَلُّ الظِّلُّ.

قال الشاعر :

يُسَوِّدُ هَذَا الْمَالُ غَيْرَ مُسَوِّدٍ
وَيُحَرِّمُهُ لَيْثٌ فَيُصْبِحُ ثَعْلَبًا
وَأَوَّلُ مَنْ يَجْفُو الْفَقِيرَ لِفَقْرِهِ
بَنُوهُ، وَلَنْ يَرْضَوْهُ فِي فَسْقَرِهِ أَبَا
كَأَنَّ فَاقِيرَ الْقَوْمِ فِي النَّاسِ مُدْنِبٌ
وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ أَذْنَبًا
وَمِنْ أَقْوَالِ الْحُكَمَاءِ : الْمَالُ يُسْتَرُّ الْقَبَائِحَ ، وَالْفَقْرُ يُحْجِبُ
الْمَحَاسِنَ إِلَّا مَنْ رَفَضَ الدُّنْيَا اخْتِبَارًا ، أَوْ تَرَكَهَا تَهَاوُنًا لَهَا
وَاسْتَصْغَارًا.

قال الشاعر :

إِذَا اكْتَسَبَ الْمَالُ الْفَتَى مِنْ وَجْهِهِ
وَأَحْسَنَ تَدْبِيرًا لَهُ حِينَ يَجْمَعُ

وميز في إنفاقه بين مصلح
معيشته فيما يضر وينفع
وأرضى به أهل الحقوق ولم يضع
به الذخـر زاداً للتي هي أنفع
فذاك الفتى لا جامع المال ذاخراً
لأولاد سوء حيث حلوا وأوضعوا^(١)
وصاحب الدنيا يطلب ثلاثاً لا يدركها إلا بأربعة، فأما
الثلاثة التي يطلب: فالسعة في المعيشة، والمنزلة في الناس،
والمنزلة في الآخرة.

وأما الأربعة التي يدرك بها الثلاثة، فاكْتساب المال من
أحسن وجوهه، ثم حسن القيام عليه، ثم التَّشْمير له، ثم إنفاقه
فيما يصلح المعيشة، ويرضي أهل والإخوان، ويعود في
الآخرة نفعه، فإن أضاع شيئاً من هذه الأربعة لم يدرك شيئاً من
الثلاثة. وإن لم يكتسب لم يكن له مال يعيش به، وإن كان ذا
مال واكتساب. ولم يحسن القيام عليه، يوشك أن يفنى ويبقى

(١) أوسعوا: تنقلوا، وأسرعوا

بلا مال ، وإن هو أنفق ولم يثمره ، لم تنفعه قلة الإنفاق من سرعة النفاذ ، كالكحل الذي إنما يؤخذ على مثل الغبار ، ثم هو مع ذلك سريع نفاذه ، وإن هو أصلح واكتسب وثمر ، ثم لم ينفق المال في أبوابه ، كان بمنزلة الذي لا مال له ، ثم لا يمنع ذلك له من أن يفارقه ، ويذهب حيث لا منفعة فيه ، كحابس الماء الذي تنصب فيه المياه إن لم يخرج منه بقدر ما يدخل فيه نَصَل^(١) وسال من نواحيه فيذهب ضياعاً .

قال بعض الحكماء : آفة المال سوء التدبير ، وآفة الكامل من الناس العدم .

وقال أرسطاطاليس : الغنى في الغربة وطن والفقير في الوطن غربة .

سأل رجل الحكيم اليوناني فقال : علّمني ما يقربني من الله ومن الناس . فقال : أما ما يقربك من الله فمسألته ، وأما ما يقربك من الناس فترك مسألتهم .

وقالوا : أفضل المال ما قضى به الحقوق .

وكان يُقال : شرُّ مالِك ما لزمك إثم مكسبه ، وحرمت لذة إنفاقه .

قال بعضهم : الرُّزْقُ الواسع بمن لا يستمتع به ، بمنزلة طعام موضوع على قبر .

وقال علي رضي الله عنه : أفضل المال ما أكسبَ حمداً ، وأعقب أجراً .

قال الشاعر :

ذهابُ المالِ في حمْدٍ وأجرٍ
ذهابٌ لا يُقالُ له ذهابٌ
ومن أمثال الحكماء : خير الأموال ما استرقَّ حرّاً ، وخيرُ
الأعمال شكرُ ما استحقَّ شكراً .

وفي كتاب الهند : لينفق ذو المال ماله في ثلاثة وجوه :
في الصدقة إن أراد الآخرة ، وفي مصانعة السلطان إن أراد
الذكر ، وفي النساء إن أراد نعيم العيش .

وقالت الحكماء : مَنْ أصلحَ ماله فقد صانَ الأكرمين :
الدين والعرض .

قال الشاعر :

ولم أرَ مثلاً للفقرِ أَوْضَعَ للفتى
ولم أرَ مثلاً للمالِ أرفعَ للنذلِ

ولم أرَ عِزًّا لِمَرِيٍّ كَعَشِيرَةٍ
ولم أرَ ذُلًّا مِثْلَ نَاءٍ عَنِ الْأَهْلِ
وقال آخر:

ألمْ تعلمي أَنَّ الْغِنَى يجعلُ الْفَتَى
سَيًّا وَأَنَّ الْفَقْرَ بِالْمَرْءِ قد يُزْري
فما رفعَ النَّفْسَ الْوَضِيعَةَ كَالْغِنَى
ولا وضعَ النَّفْسَ الرَّفِيعَةَ كَالْفَقْرِ
وقال بزرجمهر: إِنْ كَانَ شَيْءٌ فَوْقَ الْحَيَاةِ فَالصُّحَّةُ . وَإِنْ
كَانَ شَيْءٌ مِثْلَهَا فَالْغِنَى ، وَإِنْ كَانَ شَيْءٌ فَوْقَ الْمَوْتِ فَالْمَرَضُ ،
وَإِنْ كَانَ شَيْءٌ مِثْلُهُ فَالْفَقْرُ .

وقال بعضهم: الْحَاجَةُ الْمَوْتُ الْأَكْبَرُ .
وقال مُجَاهِدٌ: الْخَيْرُ فِي الْقُرْآنِ كُلُّهُ الْمَالُ .
وقال السَّرِيُّ بْنُ زَيْدٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي
الدُّنْيَا حَسَنَةً ، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً ﴾ (البقرة : ٢١) : إِنَّ الْحَسَنَةَ
فِي الدُّنْيَا الْمَالُ ، وَفِي الْآخِرَةِ الْجَنَّةُ .

قال الشاعر :

وقائلةٍ ما العلم والحلم والحسبُ

وما الدينُ والدُّنيا فقلتُ: الدرَاهمُ

تداوي جراحَ الفقير حتى تُزيلَهَا

فما هي في التحقيق إلا مَرَاهِمُ

لما نزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْدَنَّ عَيْنِكَ إِلَى مَا مَتَعْنَا بِهِ

أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ الآية (الحجر : ٨٨) أمر النبي ﷺ منادياً ينادي :

مَنْ لَمْ يَتَأَدَّبْ بِآدَابِ اللَّهِ ، تَقَطَّعَتْ نَفْسُهُ عَلَى الدُّنْيَا حَسْرَاتٍ .

الفصل الرابع

في التَّحِبِّ إلى النَّاسِ ومداراتهم والمسألة بينهم

أجمعت الحكماء وأهل الفضل على أنَّ السِّيَّادة
والمروءة، وأجمع خلال العشرة في المسارعة إلى المعونة، وفي
العفو مع القدرة، وفي التَّوَدُّد إلى النَّاسِ، والتَّحِبُّ لهم.

قال رسول الله - ﷺ : «لنَّ تَسْعُوا النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ،
فَسَعَوْهُمْ بِبَسْطِ الْوَجْهِ وَحُسْنِ الْبَشْرِ».

وقال - عليه الصَّلَاة والسلام - : «أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ
- عَزَّ وَجَلَّ - أَكْثَرُهُمْ تَحِبًّا إِلَى النَّاسِ».

وقال - عليه الصلاة والسلام - : «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا
حَبَّهٖ إِلَى النَّاسِ».

قال الشاعر :

وجهٌ عليه من الحياءِ سَكِينَةٌ
ومَحَبَّةٌ تُجْرِي مع الأنفاسِ
وإذا أحبَّ اللهُ يوماً عَبْدَهُ

ألقى عليه مَحَبَّةً في النَّاسِ
وقال أرسطاطاليس للإسكندر : أعظم ما أوصيك به
ألا تتبغَّضَ إلى أحد من خلق الله ، فرأسُ العقل بعد الإيمان
التَّحِبُّ إلى النَّاسِ كافة .

قال الشاعر :

البِشْرُ يُكْسِبُ أَهْلَهُ
صِدْقُ المودَّةِ والمَحَبَّةِ
والتُّبَّيْهُ يُسْتَدْعِي لصا

حبه المذمَّةُ والمسَبَّةُ
وقال اليزيديُّ النَّحويُّ : أتيتُ إلى الخليل بن أحمد ،
فوجدته جالساً على طِنْفَسَةٍ^(١) صغيرة ، فرحَّبَ بي ، ووسَّعَ

(١) الطَّنْفَسَةُ : البساط .

لي، فكرهتُ أن أضيقَ عليه، فانقبضتُ عنه، فأخذ بعضدي
وقربني من نفسه. وقال لي: إنه لا يضيق سمّ الخياط بمتحابين،
ولا تسع الدنيا متباغضين.

أخذ هذا المعنى أحمد بن عبد ربّه فقال:

صِلْ مَنْ هَوَيْتَ وَإِنْ أَبَدَى مُعَاتِبَةً

فَأَخْبَبَ الْعَيْشَ وَصَلَ بَيْنَ خَلَيْنِ

واقطع حبائلَ خِيدِنٍ لا تلائمُهُ

فَرَبِّمَا ضَاقتِ الدُّنْيَا عَلَى اثْنَيْنِ

قال معاذ بن جبل: إذا أحببت رجلاً فابذلْ له مالكَ،
وأخلصْ له ودَّكَ، ولذوي الفاقة رِفْدَكَ، وللعامّة بِشْرَكَ،
ولِعَدَوِّكَ عَدْلَكَ، وشحّ بدينك وعرضك عن كلِّ أحد.

قال الشّاعر:

أَحْسِنْ إِلَى النَّاسِ تَسْتَعْبِدُ قُلُوبَهُمْ

فَطَالَمَا اسْتَعْبَدَ الْإِنْسَانُ إِحْسَانُ

وإن أساء مُسِيءٌ فليكنْ لك في

عروضِ زلتِه عَفْوٌ وغُفْرَانُ

قال أبو جعفر المنصور: إن أحببت أن يكثر الثناءُ الجميلُ عليك من الناس بغير نائل فالفهمُ بِبِشْرٍ حَسَنٍ .

وقالوا: ثلاثة لا يقوم للمرء الرُّشد إلا فيهنَّ: مشاورة ناصح، ومداراة حاسد، والتَّحَبُّبُ إلى الناس .

وقالوا: التَّوَدُّدُ إلى الناس إحدى الحُسنيين .

قال رسول الله ﷺ: «رأس العقل بعد الإيمان التَّوَدُّدُ إلى الناس» .

وقالت الحكماء: من لم يُحسن المداراة للناس نادَ به^(١) المكروه .

وقال بعضهم: مداراة الناس نصف العقل .

وقال العتَّابي: المداراة سياسة لطيفة، لا يستغني عنها ملك ولا سوقة، يجتلبون بها المنافع، ويدفعون به المضارَّ، فمن كثرت مداراته، كان في ذمَّة الحمد والسلامة .

قال الشَّاعر:

فَمَنْ لَمْ يُدَارِ النَّاسَ قَلَّ صَدِيقُهُ

وَمَنْ ذَمَّهُمْ كَانَ الْغَنِيِّ الْمُنْعَمًا

(١) ناد به: أسرع إليه .

وَمَنْ يُهِنْ الْإِخْوَانَ لَا يُكْرَمُونَهُ

وَمَنْ يُكْرَمُ الْإِخْوَانَ كَانَ الْمُكْرَمًا

وقال بعضهم: ينبغي للعاقل أن يُداري زمانه مُداراةَ
السَّابِحِ الْمَاءِ الْجَارِي .

قال الشاعر:

إِنْ تَرَمِكَ الْغُرْبَةُ فِي مَعْشَرٍ

تَطَابَقُوا فِيكَ عَلَى بُغْضِهِمْ

فَدَارِهِمْ مَا دُمْتَ فِي دَارِهِمْ

وَأَرْضِهِمْ مَا دُمْتَ فِي أَرْضِهِمْ

وقال آخر:

مَا دُمْتَ حَيًّا فَدَارِ النَّاسَ كُلَّهُمْ

فَإِنَّمَا أَنْتَ فِي دَارِ الْمُدَارَةِ

مَنْ يَذَرِ دَارِي وَمَنْ لَمْ يَذَرْ سَوْفَ يُرَى

عَمَّا قَلِيلٍ نَدِيمًا لِلنَّدَامَاتِ

وينبغي مُداراةُ العدوِّ، وأن يُحَرِّزَ منه، ولا يوثقُ به،

وإنَّما يُدْفَعُ بِالْمُدَارَةِ إِظْهَارُ الْعَدَاوَةِ .

قالت الحكماء : المسألة السَّلامَة .

وقالوا : سالم تسلم .

قال الشَّاعر :

سَالِمٌ جَمِيعُ النَّاسِ تَسْلَمُ مِنْهُمْ
إِنَّ السَّلَامَةَ فِي مَسْأَلَةِ الْوَرَى
وَإِذَا أَتَاكَ مِنْ أَمْرٍ يَوْمًا أَدَى

لا تَجْزِزْهُ أَبَدًا بِمَا مِنْهُ تَرَى

لَمَّا قَدِمَ حَاتِمُ الْأَصَمِ إِلَى أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ ، قَالَ لَهُ أَحْمَدُ
بَعْدَ بَشَاشَتِهِ بِهِ : أَخْبِرْنِي كَيْفَ التَّخَلُّصُ إِلَى السَّلَامَةِ مِنَ
النَّاسِ ؟ فَقَالَ لَهُ حَاتِمٌ : بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ ، فَقَالَ لَهُ أَحْمَدُ : مَا هِيَ ؟
قَالَ : تَعْطِيهِمْ مَالَكَ وَلَا تَأْخُذَ مَالَهُمْ ، وَتَقْضِيَ حَقُّوْقَهُمْ
وَلَا تَطَالِبَهُمْ بِقَضَاءِ حَقُّوْقِكَ ، وَتَصْبِرَ عَلَى أَذَاهُمْ وَلَا تُؤْذِهِمْ .
فَقَالَ أَحْمَدُ : إِنَّهَا لَصَعْبَةٌ ! قَالَ لَهُ حَاتِمٌ . وَلَيْتَكَ تَسْلَمَ .

قالت الحكماء : مَنْ غَضَّ بَصْرَهُ عَنْ عِيُوبِ النَّاسِ غَضَّوا
أَبْصَارَهُمْ عَنْهُ .

قال الشَّاعر :

لا تلتمس من مساوي الناس ما فيكما
فيكشف اللهُ ستراً من مساويكما
واذكرُ محاسنَ ما فيهم إذا ذكروا
ولا تغِبْ أحداً منهم بما فيكما
وفي المثل : استر عورة أخيك بما تعلم فيه .
قال الشاعر :

أحبُّ معالي الأخلاقِ جهدي
وأكرهُ أن أعيبَ وأن أعابا
فمن عزَّ الرجالَ تهَيَّوهُ

ومن حقَّرَ الرجالَ فلنْ يُهابا
وفي المثل : الأخلاق الصالحة ثمرة العقول الراجحة ،
فمن لقي الناس بالإحسان ، وعاملهم بالأخلاق الحسان ، فهو
الذي يخفُّ عليهم جانبه ، وتُحمدُ أنحاؤه ومذاهبه ، ولن يعدم
منها حُسْنَ الثناء ، ومن الله جزيل الجزاء .

القسم الثالث

في طرف من الحكايات والآداب، الصادرة عن أولي الألباب والأسباب

اعلم أن في الحكايات والأخبار سلوة للنُّفوس ، وآداباً
نافعة للرئيس والمرؤوس ، والقلوب ترتاح إليها من شجونها ،
والآذان تصغي لسماع طرفها وفنونها ، والوحيد يأنس
بمطالعتها ، والجلس ينسبط بمذاكرتها ومحاضرتها ، والطَّباع
تجمّ بها من مللها ، ويذهب عنها قلة نشاطها وكثرة كسلها ،
والملوك يتحفون بها ، وينال الجاه والرفعة منهم بسببها .

وقال عمر بن الخطَّاب : عليكم بطرائف الأخبار فإنَّها
من علم الملوك والسَّادة ، وبها تُنال المنزلة والحظوة منهم .
وقال علي رضي الله عنه : قيمة كل امرئ ما يُحسن .

وقيل للمؤمن : ما ألدُّ الأشياء؟ قال : التَّنَزُّه في عقول
النَّاس ، يعني قراءة أقوالهم .

ولم تزل الحكايات والأخبار تُذكر في معرض الاعتبار ،
وتورد موارد الاستبصار . وهذا القسم لا تضبطه الفصول
والأبواب ، ولا يستوفيه مصنّف في كتاب ، غير أنّه يأتي بما
يناسب تبويبه ، ويشاكل تفصيله وترتيبه .

الفصل الأول

في الأخبار التي تتعلق بذوي الإمرة والسياسة

قال المسعودي في كتابه «عيون المعارف» : مما حفظ من كلام أزدشير عندما وضع التاج على رأسه أن قال : الحمد لله الذي خصنا بنعمه ، وشملنا بفوائده وقسمه ، ومهد لنا البلاد ، وقاد إلى طاعتنا العباد ، نحمده حمد من عرف فضل ما أتاه ، ونشكر شكر الدآري بما منحه وأعطاه ، ألا وإننا ساعون في إقامة منار العدل ، وإدرار الفضل ، وتشيد المآثر ، وعمارة البلاد ، والرفافة بالعباد ، وزم أقطار المملكة ، ورد ما تخرم في سائر الأيام منها ، فليسكن طائركم أيها الناس ، فإنني أعم بالعدل سنة محمودة ، وشريرة مورودة ، وسترون في سيرتنا ما تحمدوننا عليه ، وتصدق أقوالنا أفعالنا إن شاء الله تعالى .

وحدث الفضل بن سهل قال : كانت رسل الملوك إذا جاءت بالهدايا تجعل اختلافها إليّ ، فكنت أسأل الرجل منهم

عن سيرة ملوكهم، وأخبار عظمائهم، فسألتُ رسول الملك
الرُّوم عن سيرة ملكهم، فقال: ملك بذل عُرْفَه، وجَرَدَ
سيفه، فاجتمعت عليه القلوب رغبةً مرهبةً، لا يبطر جنده،
ولا يخرج رعيّته، سهل النّوال، جريء النّكال^(١)، الرّجاء
والخوف معقودان في يديه. قلت: فكيف حكمه؟ قال: يردّ
الظّلم، ويردع الظّالم، ويعطي كلّ ذي حقّ حقّه. فالرّعيّة
اثنان: راضٍ ومغتبط، قلت: فكيف هيبتهم له؟ قال: يتصور
في القلوب فتغضّ له العيون. قال: فنظر إلى رسول الحبشة
-وأنا أصغي إليه- وأقبل عليه فسأل ترجمانه: ما الذي يقول
الرُّومي؟ فقال: يذكر ملكهم ويصف سيرته، فتكلّم مع
الترجمان بشيء، فقال لي الترجمان: إنّه يقول: إنّ ملكهم ذو
أناة عند القدرة، وذو حلٍ عند الغضب، وذو سطوة عند
المغالبة، وذو عقوبة عند الإجرام، قد كسا رعيّتهُ جميل نعمته،
وخوّفهم خَسَف^(٢) عقوبته، فهم يتراءونه ترائي الهلال خيالاً،
ويخافونه مخافة الموت نكالاً، وسعهم عدلُهُ، وردعتهم
سَطَوَتُهُ، إذا أعطى أوسع، وإذا عاقب أوجع، فالنّاس اثنان:
راجٍ وخائف، فلا الرّاجي خائب الأمل، ولا الخائف بعيد

(١) النّكال: العقاب

(٢) الخَسَفُ: الظلم والإذلال.

الأجل . قلت : فكيف هيبتهم له ؟ قال : لا ترفعُ إليه العُيونُ أجفانَهَا ، ولا تُتبعهُ الأبصارُ إنسانَهَا ، كأنَّ رعيَّتَه قَطاً رُفِرت عليهم صقورٌ صَوائِد .

فحدَّثت المأمون بهذين الحديثين فقال : كم قيمتها عندك ؟ قلت : ألفا درهم . قال : يا فضلُ ! إنَّ قيمتها عندي أكثر من الخلافة ، أما عرفت قول عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه : «قيمة كل امرئ ما يُحسن» ؟ أتعرف أحداً من الخطباء البلغاء يحسن أن يصف أحداً من خلفاء الله الراشدين بمثل هذه الصِّفة ؟ قلت : لا . قال : فقد أمرت لهما بعشرين ألف دينار . واجعل العذر مادةً بيني وبينهما في الجائزة عن العود . فلو لا حقوق الإسلام وأهله لرأيت إعطاءهما ما في الخاصة والعامة دون ما يستحقّانه .

سُئِلَ رجل من بني أميّة عاقل ، فقيل له : أخبرنا من أيّ شيء كان بدء زوال ملككم ؟ فقال : سألت فاسمع ، وإذا سمعت فافهم : إنّا تشاغلنا بِلَدِّنا عن تَفَقُّد ما كان تَفَقُّدُهُ يلزمنا ، ووَثَقنا بوزراء آثروا مرافقهم ، وأبرموا أموراً أسروها عنا ، وظَلِمَت رعيَّتُنا ففسدت نيّاتهم لنا ، وجذبَ معاشنا فخلت بيوتُ أموالنا ، وقلَّ جُنْدنا فزالَت هيبتُهم لنا ،

واستدعاهم أعداؤنا فظافروهم علينا ، وكان أكبر الأسباب في ذلك استتارُ الأخبار عنا .

كتب أبرويز لابنه : يا بني ! إن كلمة منك تسفك دماً ، وكلمة تحقن دماً ، وأمرك نافذ ، وكلامك ظاهر ، فاحترس في غضبك من قولك أن يُخطئ ، ومن لولتك أن يتغير ، ومن جسّدك أن يخف ، فإن الملوك تعاقب قُدرةً ، وتعفو حلمًا .

قال الشاعر :

لن يدركَ المجدَ أقوامٌ وإن شرفوا
حتى يذلُّوا وإن عزُّوا لأقوام
ويصفحوا عن كثيرٍ من إساءاتهم

لا صفحَ ذلٌّ ولكن صفحَ أحلام
رُوي عن الرّشيد أنّه أحضر رجلاً يولّيه القضاء ، فقال :
يا أمير المؤمنين ! إنّي لا أحسنُ القضاء ، ولا أنا فقيه . فقال
الرّشيد : فيك ثلاثُ خلال : فيك شرفٌ ، والشرفُ يمنعُ أهلهُ
من الدّناءات . ولك حلمٌ ، والحلمُ يمنعُك من العجلة ، ومن لم
يُعجلْ قلَّ خطؤه . وأنتَ رجلٌ تُشاورُ في أمرك ، ومن شاور

كثير صوابه، وأما الفقه فسينضم إليك من تتفق به، فولّي فما
وُجد فيه طعنٌ.

قالت الحكماء: السياسة أن يخلط الوعد بالوعيد،
والعطاء بالمنع، والحلم بالإيقاع، فإن الناس لا يصلحون إلا
على الثواب والعقاب، والإطماع والإخافة، ومن أخاف ولم
يوقع وعُرف بذلك كان كمن أطمع ولم ينجز، فحيز الخير
ما كان ممزوجاً، وشرُّ الشرِّ ما كان صرفاً، وإذا كان الناس إنما
يصلحون على الشدّة واللّين، وعلى العفو والانتقام، وعلى
البذل والمنع، وعلى الخير والشرِّ، عاد ذلك الشرُّ خيراً، وذلك
المنع عطاءً، وذلك المكروه نفعاً، قال الله عزّ وجلّ: ﴿ولكم
في القصص حياةٌ يا أولي الألباب لعلكم تتقون﴾
(البقرة: ١٧٩) فأسوسُ الناس لرعيته من قاد أبدانها بقلوبها،
وقلوبها بخواطرها، وخواطرها بأسبابها من الرّغبة والرّهبة.

وقال بعضهم: الرّغبة والرّهبة أصلان لكل تدبير،
وعليهما مدار كلّ سياسة عظمت أو صغرت، بذلك بعث الله
الرّسل، وأنزل الكتب، وأقام الوعد مع الوعيد، والثواب مع
العقاب، والرّجاء مع المخافة، والعفو مع السّطوة. قال عزّ
وجلّ: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال

ذرةً شرّاً يره ﴿ (الزلزلة: ٧-٨) . فكلّ عامل على ثقة بما وعده ، فتعلقت قلوب العباد بالرغبة والرّهبة فاطرد والتدبير ، واستقامت السّياسة لموافقتها ما في الفطرة ، ومن ظنّ أحداً من الخلق فوقه ، أو دونه يصلح بخلاف ما دبّرهم الله عليه ، خالف الرّبّ في تدبيره ، وظنّ أنّ رحمته فوق رحمة ربه ، ولو كان النّاس يصلحون على الخير وحده ، لكان الله عزّ وجلّ أولى بذلك الحكم ، قال الله تعالى في محكم كتابه : ﴿ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدِيَ الْمُرْسَلُونَ . إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (النمل: ١٠-١١) .

وكان أنوشروان إذا وليّ رجلاً أمر الكاتب أن يضع في كتاب العهد موضع ثلاثة أسطر ، فيوقع فيها بخطّه : سُسْ خيار النّاس بالمحبّة ، وامزج للعامة الرغبة بالرّهبة ، وسُسْ سفلة النّاس بالمخافة .

قال الشّاعر :

إذا كنتم للنّاس أهل سيّاسةٍ
فَسُوسُوا كرام النّاس بالّينِ والبذلِ
وسُوسُوا لثام النّاسِ بالذلِّ يصلحوا
على الذلِّ ، إنّ الذلَّ يصلحُ للذلِّ

لَمَّا أَرَادَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ الْمَسِيرَ إِلَى مِصْرَ قَالَ لِمَعَاوِيَةَ :
يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! إِنِّي مُوصِيكَ ، قَالَ : أَجَلْ فَأَوْصِنِي ، قَالَ :
انْظُرْ فَاقَةَ الْأَحْرَارِ فَاعْمَلْ فِي سَدِّهَا ، وَطَغْيَانَ السُّقَلَةِ فَاعْمَلْ فِي
قَمْعِهَا ، وَاسْتَوْحِشْ مِنَ الْكَرِيمِ الْجَائِعِ ، وَمَنِ اللَّثِيمِ الشَّبْعَانِ ،
فَإِنَّمَا يَصُولُ الْكَرِيمُ إِذَا جَاعَ ، وَاللَّثِيمُ إِذَا شَبِعَ .

وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءَ : أَحْسَنُ جَبِيلَةٍ ^(١) الْوَلَاةُ إِصَابَةُ
السِّيَاسَةِ ، وَرَأْسُ إِصَابَةِ السِّيَاسَةِ الْعَمَلُ بِطَاعَةِ اللَّهِ ، وَفَتْحُ بَابَيْنِ
لِلرَّعِيَّةِ : أَحَدُهُمَا : رَأْفَةٌ ، وَرَحْمَةٌ ، وَبَذْلٌ ، وَتَحَنُّنٌ . وَالْآخَرُ :
غُلْظَةٌ ، وَمُبَاعَدَةٌ ، وَإِمْسَاكٌ ، وَمَنْعٌ .

وَخَطَبَ سَعِيدُ بْنُ شَرِيكَ بِحَمَصَ ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى
عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ ! إِنَّ الْإِسْلَامَ حَائِطٌ مَنِيعٌ ، وَبَابٌ
وَثِيقٌ ، فَحَائِطُ الْإِسْلَامِ الْحَقُّ ، وَبَابُهُ الْعَدْلُ ، وَلَا يَزَالُ الْإِسْلَامُ
مَنِيعًا مَا اشْتَدَّ السُّلْطَانُ ، وَلَيْسَ شِدَّةُ قِتْلًا بِالسَّيْفِ ، وَلَا ضَرْبًا
بِالسَّوْطِ ، وَلَكِنْ قَضَاءٌ بِالْحَقِّ ، وَأَخْذٌ بِالْعَدْلِ .

قَالَ أَبُو وَائِلٍ الثَّقَفِيُّ : دَعَانِي سَلِيمَانُ بْنُ وَهَبٍ ، وَقَالَ
لِي : إِنِّي قَدَّمْتُ حُسْنَ الظَّنِّ بِكَ ، وَالثَّقَّةَ بِأَمَانَتِكَ ، وَوَلَيْتَكَ

(١) الْجَبِيلَةُ : الْخَلْقَةُ .

قلادة في عنقي ، فَصَدَّقْ ظَنِّي فيك ، وحقَّقْ ثِقَتِي بك ،
ولا تفارق العدلَ في المخلوقين ظاهراً ، والعدل بينك وبين
الخالق باطناً ، والله تعالى المستعان ، ثم دفع إليَّ رقعة فيها
توليتي على بعض الأمور .

وروي أنَّ المهدي ولَّى الربيع بن أبي الجهم فارساً ، وقال
له : يا ربيع : انشر الحقَّ ، والزم القصدَ ، وارفق بالرعيَّة ، واعلم
أنَّ أعدل النَّاسِ مَنْ أنصفَ مَنْ نفسه ، وأنَّ أجورَهم مَنْ ظلم
النَّاسَ لغيره .

وفي كتاب الهند : إنَّما يسلم العاقل بالأخذ بالآناة ،
ولا يزال صاحب العجلة يجتني منها ثمرة الندامة ، وضعف
الرأي ، وليس أحدٌ أخوجَ إلى التَّوَدَّة ، والتَّثَبُّت من الملوك ،
فإنَّ المرأة إنَّما هي بزوجه ، والمولود بأبويه ، والمتعلِّم بمؤدِّبه ،
والجند بالقائد ، والنَّاسك بالدين ، والعامَّة بالملوك ، والملوك
بالتَّقوى ، والتَّقوى بالتَّثَبُّت ، فالحزمُ للملك معرفةُ أصحابه ،
وإنزالهم منزلتهم ، واتِّهام بعضهم على بعض ، فإنَّهم يلتمسون
هلاك بعضهم بعضاً ، وإظهار مساءة المسيئين ، وإخفاء إحسان
المحسنين .

قال الحجاج لعبد الملك بن مروان : يا أمير المؤمنين ! إنك أعزُّ ما تكون أحوج ما تكون إلى الله ، فإذا عززت بالله فاعفُ له ، فإنَّك به تقدر ، وإليه ترجع .

وقال بعض الحكماء : وجدتُ المسيءَ إليَّ عبدَ الله ، ولو أساءَ إليَّ عبدٌ لأخي لصفحت عنه إكراماً له ، فكيف لا أصفح عن مسيء هو عبد الله .

قال الشاعر :

ارحم أخي عبادَ الله كلَّهم

وانظر إليهم بعينِ اللطفِ والشفقة

وقرُّ كبيرهم ، وارحم صغيرهم

وراع في كلِّ خلقٍ وجهَ من خلقه

قال الشعبي : دخلتُ على ابن هُبيرة ، وقد أتني بقوم فأمر بضرب أعناقهم ، فقال له رجل منهم : أيها الأمير ! إنَّ الذي جعل السُّجنَ كان حكيماً ، جعله قيلاً للعجلة ، وباباً إلى التَّثبت ، وسبباً إلى الأناة ، فعليك بالتَّؤدة ، وإياك والعجلة ، فأنتَ على عقوبتنا أقدرُ منك على ردِّها ، فأمر بحبسهم ، ثم عفا عنهم ، وأحسنَ إليهم .

قال محمد بن نصر الكاتب :

إذا ما اللهُ شاءَ صلاحَ قومٍ

أتاحَ لهمَ أكابرَ مُصلِحينا

ذوي رأيٍ ومعرفةٍ وفهمٍ

وإعدادٍ لما قد يحذرونَا

ذكروا أنَّ عبدَ الملكِ بنَ مروانَ لما وَلَّى ابنَه الوليدَ دمشقَ

عهدَ إليه بما أحبَّ، ثم قال له : يا بُنيَّ : لأبيكَ صنائعٌ قد

رُسِخت في المجدِ أصولُها، وأورقت في العلا فروعُها،

وأنشُر^(١) عندَ النَّاسِ ذكراها، فلا تهدمنَّ ما قد شرف لك بناؤه،

وأضاءَ لك ضياؤه، فكفى من سوء رأي المرء، وقبيح أثره،

وَضعة نفسه، أن يهدم ما قد شيدَ له من فضيلة البناء، ورفيع

الثناء . إِيَّاكَ وأعراض الأحرار، فإنَّ الحرَّ لا يرضيه من عِرضه

عوض، واجتنب العقوبة في الأَبشار، فإنَّه وِثْرٌ مطلوب، وِعَارٌ

باقٍ، ولا يَمْنَعُكَ من ذي فضل سبقت إليه صنِعة غيرك أن

تصطنعه . فإنَّ صنِعة ذي الفضل شكر تستوجبُه، وكنز

(١) أنشُر : انتشر .

تَدَّخِرُهُ، واستعمل أهل الفضل دون أهل الهُون^(١)، ولا تعزل
إلا عن عجز أو خيانة، وليكن جُلُساؤك غير أسنانك. فإنَّ
الشَّبَاب شعبة من جنون، وإن نازعتك نفسك على أخذ شيء
من المال، فلا يكن خصمك إلا بيت المال، وليكن رسولك فيما
بينني وبينك من يفهم عني وعنك، وإذا كتبت كتاباً فأكثر النَّظر
فيه، فإنَّ الكتاب موضع عقل الرَّجُل، ورسوله موضع عقله،
وأستودعك الله العظيم.

وروي أنَّه لما ولي الحسن بن عمارَةَ مظالم الكوفة،
أصبح الأعمش يقول: ظالمٌ ولي المظالم، فبلغ الحسن بن
عمارَةَ قوله، فوجه إليه بنفقة وثياب، فلما أصبح الأعمش
قال: مثل هذا يولّي علينا؛ يوقّر كبيرنا، ويرخم صغيرنا،
ويعود على فقيرنا، فقال له رجل من جلسائه: يا أبا محمد!
ما هذا قولك بالأمس، قال: حدّثني خيثمة عن عبد الله بن
مسعود، قال: «جُبِلَتِ النَّفُوسُ عَلَى حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا،
وَبُغِضَ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْهَا».

وفي «كتاب العجم»: إن بعض الملوك استشار وزراءه،
فقال أحدهم: لا ينبغي للملك أن يستشير منّا أحداً إلا خالياً

(١) الهُون: الخزي والهوان والذلة.

به ، فإنه أَمُوتُ لِلسِّرِّ ، وأحزم للرَّأي ، وأجدر بالسَّلامة ، وأعفى
لبعضنا من غائلة بعض ، فإنَّ إفشاء السِّرِّ إلى واحد أو ثلث من
إفشائه إلى اثنين ، وإفشاؤه إلى ثلاثة كإفشائه إلى العامة ، لأنَّ
الواحد رهنٌ بما أفشي إليه ، والثاني يعلق عنده ذلك الرهن ،
والثالث علاوة . فإذا كان سِرُّ الرَّجل إلى واحد كان أخرى ألا
يظهره رغبة منه ورهبة ، وإذا كان عند اثنين دخلت إلى الملك
شُبْهة ، واتَّسعت على الرَّجلين المعارض ، فإن عاقبهما عاقب
اثنين بذنب واحد ، وإن اتَّهمهما اتَّهم بريئاً بجناية مجرم ، وإن
عفا عنهما كان العفو عن أحدهما ولا ذنب له .

قال الشاعر :

شاور سواك إذا نابتك نائبةٌ

يومًا وإن كنتَ من أهلِ المشوراتِ

فالعَيْنُ تنظرُ منها ما دنا ونأى

ولا ترى نفسَها إلا بمرآةٍ

قال الوليد بن عتبة : أسرَّ إليَّ معاوية حديثًا ، فأُتيتُ

أبي ، فقلتُ له : إنَّ أمير المؤمنين أسرَّ إليَّ حديثًا ، ولا أظنُّه كان

يطوي عنك ما بسطَه إليَّ ، أفأخبرك به قال : لا يا بُنيَّ ، إنَّ من

كتم سرّاً كان الخيارُ إليه ومن أفساه كان الخيار عليه ، فلا تكن
مملوكاً بعد أن كنت مالكاً . قال : فقلت : يا أبت ، إنَّ هذا
لا يدخل بين الرجل وابنه . قال : لا يا بُنيّ ، ولكن أكرهُ أن
يتدلَّلَ لسانك بأحاديث السرِّ . فدخلتُ على معاوية فحدثته بما
جرى بيني وبين أبي ، فقال : ويحك يا وليد ، أعتقك أخي من
الخطأ .

قال الشاعر :

تَحَفَّظْ مِنْ لِسَانِكَ فَهُوَ عُضْوٌ

أَشَدُّ عَلَيْكَ مِنْ وَقْعِ الْيَمَانِي

فلا والله ما في الأرض شيءٌ

أحقُّ بطولِ سجنٍ من لِسَانِ

قال بعض الحكماء : يجب للوالي أن يعلم أن رأيه

لا يتسع للأمور كُلِّها ، فيتفرَّغ للمُهمِّ منها ، وليعلم أنه متى

شغَلَ نفسه بغير المهمِّ أضرى بالمهمِّ .

وقالوا : يُستَدَلُّ على إدبار الملكِ بخمسة أمور : أحدها :

أن يستكفي الملك بالأحداث ، ومن لا خبرة له بالعواقب .

الثاني : أن يقصد أهل مودته بالأذى . الثالث : أن ينقصَ

ينقص خراجهُ عن قَدْر مؤونة ملكه . الرَّابِع : أن يكون تقريبهُ
وتبعيدهُ للهوى لا للرأي . الخَامِسُ : استهانتَه بنصائح العقلاء ،
وآراء ذوي الحنكة .

وقالوا : رأس أعمال الملك أربعة أشياء : حفظ المملكة ،
وتحصين الديانة ، وإثابة المحسن ، وإنصاف المظلوم .

قال بعض الحكماء : الدُّول تشبُّ ، وتكهل ، وتخرف ،
فإذا كان عائدها أكثر ممَّا يستحقُّه الملك ، فهي شابةٌ تنذر بطول
البقاء ، وإن كان عائدها بمقدار ما يحتاج إليه فهي مكتهلة ، وإن
كان عائدها أقلُّ ممَّا يحتاج إليه فهي خرفة متولية .

الفصل الثاني

في الأخبار التي تتعلق بذوي الهمم والرياسة

حدّث محمد بن عبد الأعلى بن هاشم القاضي ، قال :
كان الوزير سليمان بن وانسوس رجلاً جليلاً أديباً من رؤساء
البربر ، وكان أثيراً عند الأمير عبد الله بن محمد صاحب
الأندلس من بني أمية ، فدخل عليه يوماً ، وكان عظيم اللّحية ،
فلما رآه مقبلاً جعل الأمير ينشد :

مَعْلُوفَةٌ كَأَنَّهَا جِوَالِقٌ^(١)

نَكَدَاءٌ لَا بَارِكَ فِيهَا الْخَالِقُ

لِلْقَمَلِ فِي حَافَاتِهَا تَعَانِقُ

فِيهَا لِبَاغِي الْمُتَكَا مُرَافِقُ

(١) الجوّالق : العدل من صوف أو شعر .

وفي احتشام الضيف ظل رائق^١

إن الذي يحملها لائق^(١)

ثم قال له : اجلس يا بُريري ، فجلس وقد غضب ، فقال له : أيُّها الأمير ! إنَّ النَّاسَ يرغبون في هذه المنزلة ليدفعوا عن أنفسهم الضَّيِّم ، وأما إذا صارت جالبةً للذُّلِّ ، فلنا دورٌ تسعنا وتُغنيننا عنكم ، فإن حلتُم بيننا وبينها ، فلنا قبورٌ تسعنا لا تقدرُون على أن تحولوا بيننا وبينها ، ثم وضع يديه في الأرض وقام من غير أن يُسلم ونهض إلى منزله . قال : فغضب الأمير ، وأمر بعزله عن الوزارة ، ورفع دَسَّتَهُ^(٢) الذي كان يجلس عليه ، وبقي كذلك مُدَّةً ، ثم إنَّ الأمير عبد الله وجد^(٣) على فقده لعفافه ، وأمانته ، ونصيحته ، وفضل رأيه ، فقال للوزراء : لقد وجدتُ لفقْدِ سليمان تأثيراً ، وإن أردتُ استرجاعه وتبرأ منّا ، كان ذلك غضاضة علينا . ولَوَدِدْتُ أن يبدأنا بالرَّغبة . فقال له الوزير أبو محمد بن الوليد بن غانم : إن أذنت لي في المسير إليه استنهضتُهُ إلى هذا ، فأذن له ، فنهض

(١) المائق : الأحق في غباوة .

(٢) دَسَّتُ الوزارة : منصبتها .

(٣) وجد : حزن .

ابن غانم إلى دار بن وانسوس ، وكانت رتبة الوزارة بالأندلس أيام بني أمية ألا يقوم الوزير إلا لوزير مثله ، فإنه كان يتلقاه وينزله معه على مرتبته ، ولا يحجبه ولا لحظة ، فأبطأ الإذن على ابن غانم حيناً ، ثم أذن له فدخل عليه ، فوجده قاعداً ، فلم يتزحزح له ولا قام إليه ، فقال له ابن غانم : ما هذا الكبير ؟ عهدي بك وأنت وزير السلطان ، وفي أبهة رضاه تتلقاني على قدم ، وتزحزح لي عن صدر مجلسك ، وأنت الآن في موجدته بضد ذلك . فقال له : نعم ، لأنني كنت حينئذ عبداً مثلك ، وأنا اليوم حرٌّ ، قال : فيئس ابن غانم منه وخرج ولم يكلمه ، ورجع إلى الأمير فأخبره : فابتدأ الأمير بالإرسال إليه ، وردّه إلى أفضل مما كان عليه .

لما جاءت الخلافة هشام بن عبد الملك سجد من معه غير الأبرش الكلبي ، فقال له هشام : مالك لم تسجد يا أبرش ؟ فقال : مالي وللسُّجود يا أمير المؤمنين ؟ بينما أنت صاحبي إذ ذهبت في السماء وتركتني . قال : فإن ذهبنا بك معنا أو تفعل ؟ قال : نعم . قال : فالآن طاب السُّجود ، فسجد .

ركب جلال الدولة يوماً إلى الصيد على عادته ، فلقيه سوادي يبيكي ، فقال له : مالك ؟ فقال : لقيني ثلاثة غلمان

أخذوا لي حملَ بطيخ كان معي ، هو بضاعتي ، فقال : امضِ
إلى العسكر ، فهناك قُبَّةٌ حمراء ، فاقعد عندها ، ولا تبرح إلى
آخر النهار ، فأنا أرجع وأعطيك ما يغنيك ، فلما عاد السلطان
قال لناقبة : إنني قد انتهيتُ بطيخًا ، ففتَّشَ العسكر ، وفتَّشَ
الخيامَ على شيء منه ، وأخذَ البطيخ ، فقال : عند من
وجدتموه ؟ قيل له : في خيمة فلان الحاجب ، فقال :
أحضروه ، فأحضر ، فقال له : من أين هذا البطيخ ؟ فقال : إنَّ
الغلَّمان جاؤوا به ، فقال : أريدهم الساعة ، فأحسُّوا بالشرِّ ،
فهربوا خوفًا من أن يقتلهم ، فقال : أحضروا السَّوادي ،
فأحضر ، فقال له : هذا هو بطيخك الذي أخذ منك ؟ قال :
نعم ، فقال : خذه وهذا الحاجب مملوك لي ، وقد سلَّمته إليك ،
ووهبتهُ لك حين لم يحضر الذين أخذوا البطيخ منك ، والله
لئن خلَّيته لأضربنَّ عنقك ، فأخذ السَّوادي بيد الحاجب
وخرجوا ، فاشترى الحاجب نفسه منه بثلاث مئة دينار ، فعاد
السَّوادي إلى السلطان ، وقال : يا مولاي قد بعتُ المملوك
الذي وهبت لي بثلاث مئة دينار ، قال : ورضيتَ بذلك ؟ قال :
نعم ، قال : اقبضها وامضِ بالسَّلامة .

لَمَّا وَلَّى مَعَاوِيَةُ عَمْرًا مِصْرَ ، احْتَبَسَ فِي بَعْضِ الْأَعْوَامِ
خَرَجَهَا عَنْ مَعَاوِيَةَ ، فَعَزَمَ عَلَى عِزْلِهِ عَنْهَا ، وَأَرَادَ اسْتِعْمَالَ
أَبِي الْأَعْوَرِ السُّلَمِيِّ عَلَيْهَا ، وَكُتِبَ إِلَى عَمْرٍو بِالتَّسْلِيمِ . ، فَلَمَّا
بَلَغَ عَمْرًا الْخَبَرَ أَحْضَرَ وَرْدَانَ غُلَامَهُ فَقَالَ لَهُ : إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
قَدْ عَزَلَنَا وَاسْتَعْمَلَ أَبَا الْأَعْوَرِ ، فَهَلْ عِنْدَكَ مِنْ حِيلَةٍ ؟ قَالَ :
نَعَمْ ! إِذَا قَدِمَ عَلَيْكَ فَاصْنَعْ لَهُ طَعَامًا ، وَلَا تَنْظُرْ لَهُ فِي كِتَابٍ
حَتَّى يَأْكُلَ ، وَدَعْنَا نَسْتَعْمَلَ عَلَيْهِ الْحِيلَةَ . فَلَمَّا قَدِمَ أَبُو الْأَعْوَرِ
عَلَى عَمْرٍو قَالَ لَهُ : هَذَا كِتَابُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ . قَالَ عَمْرٍو :
لَوْ جِئْتَنَا بِغَيْرِ كِتَابٍ لَصَدَقْنَا مَقَالَتَكَ . قَالَ : انْظُرْ فِي الْكِتَابِ .
قَالَ : مَا أَنَا نَاطِرُكَ فِيهِ حَتَّى تَأْكُلَ . قَالَ : فَدَعَا عَمْرٍو
بِالطَّعَامِ ، وَوَضَعَ أَبُو الْأَعْوَرِ كِتَابَهُ وَعَهْدَهُ إِلَى نَاحِيَةٍ ،
وَأَقْبَلَ عَلَى الطَّعَامِ يَأْكُلُ ، فَجَاءَ وَرْدَانُ فَسَرَقَ الْكِتَابَ
وَالْعَهْدَ فَلَمَّا فَرَّغَ أَبُو الْأَعْوَرِ مِنْ طَعَامِهِ أَقْبَلَ يَطْلُبُ الْكِتَابَ
وَالْعَهْدَ فَلَمْ يَجِدْهُمَا ، فَقَالَ : أَيْنَ كِتَابِي وَعَهْدِي ؟ قَالَ لَهُ
عَمْرٍو : مَهْ يَا أَبَا الْأَعْوَرِ ، إِنَّمَا جِئْتَنَا زَائِرًا فَنَحْسَنُ جَائِزَتَكَ ،
فَاضْطَرَبَ مِنْ ذَلِكَ أَبُو الْأَعْوَرِ ، ثُمَّ صَارَ إِلَى أَنْ قَبِلَ الْجَائِزَةَ .
وَبَلَغَ ذَلِكَ مَعَاوِيَةَ فَضَحِكَ حَتَّى اسْتَلْقَى وَأَقْرَأَ عَمْرًا عَلَى مَا كَانَ
عَلَيْهِ مِنْ وِلَايَةِ مِصْرَ .

قال الأصمعيُّ: تطاول رجل من قُرَيْشٍ على رجل من
أخلاق النَّاسِ عند عمر بن الخطَّاب - رضي الله عنه - فجعل
القُرَشِيُّ يقول: أنا من معتلج البطاح، وأنا، وأنا . . فغاض
ذلك عمر، فقال له: يا هذا! إن كان لك عقل فلك حَسَبٌ،
وإن كان لك خلق فلك شرف، وإن كان لك تقوى فلك كلام،
وإلا فَلَسْتَ خيراً من أحد، وذلك الحمار خير منك . ثم قال
عمر: إنَّ أَحَبَّكُمْ إلينا قبل أن نراكم أَحْسَنُكُمْ اسْماً، فإذا
رأيناكم فأحسنكم صمتاً، فإذا تكلمتم فأثبتم منطقاً، فإذا
اختبرناكم فأحسنكم عملاً أَحَبُّ إلينا، وشَرُّكُمْ عملاً أَبْغَضُ
إلينا، سرائركم بينكم وبين ربكم .

قال إياس بن معاوية: خرجت في سفر ومعى رجل من
الأعراب، فلما كان في بعض المناهل لقيه ابنُ عُمٍّ له فتعابها،
وإلى جانبهما شيخٌ من الحيِّ، فقال لهما الشَّيْخُ: أنعما عيشاً،
إن المعاتبة تبعثُ التَّجَنِّيَّ، والتَّجَنِّيُّ يبعثُ المخاصمة،
والمخاصمة تبعثُ العداوة، ولا خير في شيء ما ثمرته
العداوة. فقلت للشَّيْخِ: من أنت؟ فقال: أنا ابنُ تجربة الدَّهْرِ،
فقلت: ما أفادك الدَّهر؟ قال: العلم به. قلت: فأيتُّهُ أحمد؟
قال: أن يُبْقِيَ المرءُ أَحَدَوِثَهُ حَسَنَةً بعده .

حكى أنه شكّا بعض أهل الأقطار إلى المأمون والياً كان عليهم ، فقال لهم : كذبتُم فقد صحَّ عندي عدلُهُ فيكم ، وإحسانه إليكم ، فاستحيوا أن يردّوا عليه قوله ، فقال له شيخ منهم : يا أمير المؤمنين ! قد عدل فينا خمسة أعوام ، فاجعله في قُطر غيره حتّى يسعَ عدلُهُ جميع رعيّتك ، وتربح الدُّعاء الحسن ، فضحك المأمون واستحيا منهم ، وصرفه عنهم .

عادَ المعلّى بن أيوب صديقاً له ، فرأى علةً وخنلةً ، فأسرَّ إلى وكيله فقال : اذهب وجثني بخمس مئة درهم مختومة في قُرطاس ، فذهب ، وجاءه ، ووضعها بين يديه ، فدفعها إلى العليل ، وقال له : هذا دواؤك فاستعمله ، ونهض ، ففتحها العليل عن مُنية التمني ، وغيرَ ما كان من حاله . فلما كان الأسبوع عادَه ثانياً ، فرآه متماثلاً نشيطاً ، فقال : كيف وجدتَ الدّواء ؟ قال : يا سيّدي وجدته نافعا لِعِلَّتِي وحالي . قال : أتريد زيادة ؟ قال : نعم يا مولاي ، فقال للوكيل : اذهب وجثنا بمثل ذلك الدّواء ، فذهب وجاءه بخمس مئة أخرى ، فأنشط العليل من عقال العلة ، وقال : هذه إعادة حياة لا عيادة .

وكان لعمر بن سعيد صديقٌ ينقطع إليه ، فرأى يوماً ثوبه الذي يلي بدنه من تحت جبته فيه أثر بلى . فلما انصرف من

عنده وجه إليه بتخت من ثياب، وصرّة من دنانير، فأخذها
الرجل وكتب إليه :

سأشكرُ عمرًا إن تراخت منيَّتي

أيادي لم تمنُنْ، وإن هي جلّت

فتى غير محجوب الغنى عن صديقه

ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلّت

رأى خلتي من حيث يخفى مكانها

فكانت قدى عينيه حتى تجلّت

حكى أنّه لما مرض الشافعي - رضي الله عنه - مرضه

الذي مات منه، قال لقومه : إذا أنا مت، فقولوا لفلان

يغسلني . فلما توفي وبلغه الخبر، قال : ائتوني بتذكرته، فجيء

بها إليه، فوجد فيها على الشافعي سبعون ألف درهم دينًا

لفلان وفلان، فكتبها الرجل على نفسه، وقال : هذا هو

الغسل الذي أراه .

مرّ الشافعي بسوق الحدادين بمصر، فسقط قوسه من

يده، فقام رجل من دكانه فأخذه ومسحه بكُمّه، وناوله إيّاه،

فقال الشافعيّ - رضي الله عنه - لغلّامه : كم معك؟ قال :
سبعة دنانير ، فقال له : ادفعها إليه .

مرّ يزيد بن المهلب بأعرابية عقب خروجه من سجن عمر
ابن عبد العزيز ، يريد البصرة ، فقرّته عنزاً ، فقبلها ، وقال لابنه
معاوية : ما معك من النّفقة؟ قال : ثمان مئة دينار ، فقال :
ادفعها إليها ، فقال ابنه : إنك تريد الرّجال ، ولا يكون الرّجالُ
إلاّ بالمال ، وهذه يرضيها اليسير ، وهي بعد لا تعرفك . قال :
فإن كانت ترضى باليسير ، فإنّا لن نرضى إلاّ بالكثير ، وإن
كانت لا تعرفني ، فأنا أعرفُ بنفسِي ، ادفعها إليها .

قدم أعرابيّ على عليّ بن أبي طالب - رضي الله عنه -
فقال : يا أمير المؤمنين لي إليك حاجة يمنعني الحياء أن أذكرها
لك ا فقال له : يا أعرابيّ : خطّها في الأرض ، فخطّها فيها : إنّي
فقير ، فقال عليّ لغلّامه قنبر : اكسه حلّتي ، فكساه الحلّة ،
فأنشد الأعرابيّ يقول :

كَسَوْتَنِي حَلَّةً تَبْلَى مَحَاسِنُهَا

فَسَوْفَ أَكْسُوكَ فِي حُلِّ الثَّنَا حُلًّا

إِنْ نِلْتَ حُسْنَ ثَنَاءٍ نِلْتَ مَكْرُمَةً

وَلَسْتُ تَبْغِي بِمَا قَدْ نِلْتَهُ بَدَلًا

إِنَّ الثَّنَاءَ لِيُحْيِي ذِكْرَ صَاحِبِهِ
كَالْغَيْثِ يُحْيِي نَدَاهُ السَّهْلَ وَالْجَبَلَ
لَا تَزْهَدِ الدَّهْرَ فِي عُرْفٍ بَدَأَتْ بِهِ
كُلُّ أَمْرٍ سَوْفَ يُجْزَى بِالَّذِي فَعَلَ
فَقَالَ عَلِيٌّ لَغُلَامِهِ : أَعْطَهُ مِئَةَ دِينَارٍ ، فَأَعْطَاهُ إِيَّاهَا ، فَلَمَّا
وَلَّى الْأَعْرَابِيَّ قَالَ لَهُ قَنْبَرٌ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! لَوْ فَرَّقْتَهَا فِي
الْمُسْلِمِينَ لَأَصْلَحَتْ بِهَا مِنْ شَأْنِهِمْ ، فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ : مَهْ يَا قَنْبَرُ ،
لَا تَفْعَلْ ، أَصْحَابِي مَعِيَ لَسْتُ أَنْسَاهُمْ ، مَعَ أَنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ
اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : « تَشْكُرُوا لِمَنْ أَثْنَى عَلَيْكُمْ ،
وَإِذَا أَتَاكُمْ كَرِيمٌ قَوْمٍ فَأَكْرَمُوهُ » .

قَالَ أَعْرَابِيٌّ لِدَاوُدَ بْنِ يَزِيدَ الْمُهَلَّبِيِّ : إِنْ لَمْ أَصُنْ وَجْهِي
عَنْ مَسْأَلَتِكَ ، فَصُنْ وَجْهَكَ عَنْ رَدِّي ، وَضَعْنِي مِنْ كَرَمِكَ
حَيْثُ وَضَعْتَ نَفْسِي مِنَ الثِّقَةِ بِكَ . فَأَمَرَ لَهُ بِعَشْرَةِ آلَافِ
دِرْهَمٍ ، وَقَالَ لَهُ : هِيَ أَكْبَرُ مِنْ قَدْرِكَ . فَقَالَ لَهُ الْأَعْرَابِيُّ : لَشَنْ
جَاوَزْتَ قَدْرِي لَمَّا بَلَغْتَ أَمْلِي فِيكَ .

سَأَلَ رَجُلٌ أَسَدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ فَاعْتَلَّ عَلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ :
مَا سَأَلْتُكَ إِلَّا عَنْ غَيْرِ حَاجَةٍ . قَالَ : وَلِمَ؟ قَالَ : لِأَنِّي رَأَيْتُكَ

تُحِبُّ مَنْ لَكَ عِنْدَهُ مَعْرُوفٌ ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَتَعَلَّقَ بِحَبْلٍ وَدُّ^١
مِنْكَ ، فَأَعْطَاه .

وَأَتَى ابْنَ السَّمَّاءِ رَجُلٌ ، فَقَالَ : إِنِّي قَدْ أَتَيْتُكَ فِي
حَاجَةٍ ، وَاعْلَمْ أَنَّ الطَّالِبَ وَالْمَطْلُوبَ إِلَيْهِ عَزِيزَانِ إِنْ قُضِيَتْ ،
وَذَلِيلَانِ إِنْ لَمْ تُقْضَ ، فَاخْتَرْتُ لِنَفْسِكَ عِزَّ الْبَذْلِ عَلَى ذُلِّ الْمَنْعِ ،
وَاخْتَرْتُ لِي عِزَّ النَّجْحِ عَلَى ذُلِّ الْمَنْعِ . فَقَضَى حَاجَتَهُ .

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ لِقُتَيْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ : إِنِّي أَتَيْتُكَ فِي
حَاجَةٍ رَفَعْتُهَا إِلَى اللَّهِ قَبْلَكَ ، فَإِنْ يَأْذَنُ اللَّهُ فِيهَا قَضَيْتُهَا
وَحَمْدُكَ ، وَإِنْ لَمْ يَأْذَنِ اللَّهُ فِيهَا لَمْ تَقْضُهَا وَعَذْرُكَ .

وَقَالَ فَيْضُ بْنُ إِسْحَاقَ : كُنْتُ عِنْدَ الْفُضَيْلِ بْنِ عِيَّاضٍ ،
إِذْ دَخَلَ رَجُلٌ فَسَأَلَهُ حَاجَةً ، وَأَلَحَّ فِي السُّؤَالِ عَلَيْهِ ، فَقُلْتُ :
لَا تُؤْذِ الشَّيْخَ ، فَقَالَ لِي الْفُضَيْلُ : اسْكُتْ يَا فَيْضُ ، أَمَا عَلِمْتَ
أَنَّ حَوَائِجَ النَّاسِ إِلَيْكُمْ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ؟ فَاحْذَرُوا أَنْ تَمْلُؤُوا
النَّعْمَ فَتَتَحَوَّلَ نَقْمًا ، أَلَا تَحْمَدُ رَبَّكَ أَنْ جَعَلَكَ مَوْضِعًا تُسْأَلُ ،
وَلَمْ يَجْعَلَكَ مَوْضِعًا تَسْأَلُ .

وَفَدَّ قَوْمٌ مِنْ قُرَيْشٍ عَلَى مُعَاوِيَةَ ، فَقَالُوا : السَّلَامُ عَلَيْكَ
يَا مُعَاوِيَةَ ، فَبَسَطَ لَهُمْ وَجْهَهُ ، وَأَلَانَ قَوْلَهُ ، فَطَلَبُوا الْمَوَادِعَةَ .
فَقَالَ : يَا وَجُوهَ قُرَيْشٍ مَا لَكُمْ أَتَيْتُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ، ثُمَّ لَمْ تَجْعَلُوا

بين السَّلام والمَوادعة حاجة تطلبونها؟ فقالوا: واللَّه يا أمير المؤمنين، ما أتيناك إلا مُفاخرين بأحسابنا، مُباهين لك برجالنا ومتعزِّزين عليك بسيوفنا، طالبين من مالك، غير راضين باليسير من نوالك. لكنَّك بسطت لنا الوجه، وألَّنت المقال، فاستغنينا بذلك عن طلب المال، فقال: إذن واللَّه لأجمعنَّ لكم بين الحُسنيين، ولأصرفنَّكم بما يُقدِّم من تخلف منكم.

قال ابن سعيد: كان أحد المغاربة الأدباء يتردَّد إلى جمال الدين بن مطروح بالقاهرة، وله حينئذ صِيتٌ، وتمكَّن من الدَّولة الصَّالحية، فمدحه بكثير، وكتب له من النثر والنظم والأمثال كثيرًا، فما ظهر له منه قبول على جميع ما كتب به إليه، وشكا إليَّ ذلك، فقلت له: اكتب له بقول ابن اللَّبانة:

جَمَالُكَ أَلْبَسَ الدُّنْيَا جَمَالًا

وَمَدَّ عَلَى مَنَاكِبِهَا ظِلَالًا

أَجَلُ نَظَرِ السَّيِّئَةِ فِي حَدِيثِي

فَإِنَّ الرُّزْقَ حَيْثُ تُمِيلُ مَالًا

قال: فواللَّه ما وقف عليهما حتَّى بسط وجهه، ونظر في قِصَّتِه، وظهر منه جميع ما فات من القول والالتفات.

لما مات عمرو بن مسعدة رُفِعت إلى المأمون رقعة أنه
خلف ثمانين ألف ألف درهم، فوقَّع في ظهرها: هذا قليل لمن
اتَّصل بنا، وطالت خدمته لنا، فبارك الله لولده فيما خلف،
وأحسن لهم النَّظَرَ فيما ترك.

لما استشعر الإسكندر الوفاة كتب إلى أمِّه يُقدِّم عندها
مقدِّمات التَّصَبُّر عن مُصابه، بمواعظ ذكرها في كتابه، ثمَّ قال
لها: يا أُمَّتِ إِذَا أَنَا مِتُّ فَاصْنَعِي طَعَامًا حَسَنًا كَامِلًا، وشرابًا
لذيذًا حلواً، وأحضري له كافَّة النَّاسِ، واعهدي إليهم ألاَّ
يحضره مَنْ نَابَتْهُ مِنَ الدَّهْرِ نَائِبَةٌ، وَلَا مَنْ أَصَابَتْهُ مِنَ الزَّمَانِ
مُصِيبَةٌ، ليكونَ مَأْتَمُ الإسكندر خلافاً عن مَأْتَمِ العامَّةِ، ويكونَ
لك في ذلك الذِّكْر والصِّيت، فلما مات امتثلت ذلك،
واحتفلت في الطَّعام والشراب، ودعت النَّاسَ إليه، وعهدت
إليهم بما أمرها، فلم يأتها أحد، فقالت: ما بال النَّاسِ مع
تَقَدُّمنا إليهم قد تخلَّفوا عَنَّا؟ ف قيل لها: أَمَرْتَ أَلاَّ يحضره مَنْ
أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ، وَكُلُّ النَّاسِ أَصَابَتْهُمُ المصائبُ، وَنَابَتْهُمُ
النَّوَابِ. فقالت: يا إسكندر! ما أشبه أواخركَ بأوائلك!
أردت والله أن تُعزِّيَنِي عَنْكَ التَّعْزِيَةُ الكَامِلَةُ.

قال شريح القاضي : إني لأصابُ بالمصيبة فأحمد الله
عليها لأربعة وجوه : أحمدُهُ إذا لم تكن أعظم مما هي ، وأحمده
إذا رزقني الصبرَ عليها ، وأحمده إذا وفقني لاسترجاعِ على
ما أرجو فيه الثواب ، وأحمده إذا لم يجعلها في ديني .

دخل المهدي الكعبة ومعه منصور الحنظلي من حجة
البيت ، فقال : ما حاجتك ؟ قال : إني أستحي أن أسأل في بيته
غيره ، فلما خرج أمر له بعشرة آلاف دينار .

قال خالد بن صفوان : لا تطلبوا الحوائج في غير حينها ،
ولا تطلبوها إلى غير أهلها ، ولا تطلبوا ما لستم له بأهل ،
فتكونوا للمنع خلقاء .

وقال خالد بن صفوان : شهدتُ عمرو بن عبيد ، ورجلٌ
يشتمه ، فما ترك منه شيئاً . فلما فرغ قال له عمرو : أجرك الله
على ما ذكرت من صواب ، وغفر لك ما ذكرت من خطأ . فما
حسدتُ أحداً حسدي عمراً على هاتين الكلمتين .

وشتم رجل الشَّعْبِيَّ ، فقال له : إن كنت صادقاً يغفر الله
لي ، وإن كنت كاذباً يغفر الله لك .

وشتتم رجل أبا ذرّ، فقال له : يا هذا لا تستغرق في شتمنا، ودع للصُّلح موضعاً، فإنّا لا نكافئ من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه .

وروي أن عليّ بن الحسين - رضي الله عنهما - كان يوماً خارجاً من المسجد فلقيه رجلٌ فسبّه، فشارت عليه العبيد والموالي، فقال عليّ بن الحسين : مهلاً على الرجل، ثمّ أقبل عليه فقال له : ما سترُ عنك من أمرنا أكثر، ألك حاجة نُعينك عليها؟ فاستحى الرجل ورجع إلى نفسه . قال : فألقى عليه ثوباً كان عليه، وأمر له بألف درهم . قال : فكان الرجل بعد ذلك يقول : أشهد أنّك من أولاد الرُّسل .

ومرّ المسيح بن مريم بقوم من اليهود، فقالوا له شراً، وقال لهم خيراً . ف قيل له : إنهم يقولون شراً وأنت تقول خيراً؟ فقال : كل واحد ينفق ممّا عنده .

وفي سير العجم أنّ رجلاً وشى برجل إلى الاسكندر، فقال له : أتحبُّ أن أقبلَ منك عليه، وتقبل منه عليك؟ قال : لا . قال : فكفّ عن الشرِّ فكفّ عنك الشرُّ .

أكبُّ رجل من بني مرة على مالك بن أسماء يحدثه في يوم صيف، ويغمة ويثقل عليه، ثم قال: أتدري من قتلنا منكم في الجاهلية؟ قال: لا، ولكنني أعرف من قتلتم منا في الإسلام. قال: ومن هم؟ قال: قتلني اليوم بطول حديثك، وكثرة فضولك.

ويروى عن الشافعي - رضي الله عنه - أنه وجه إليه بعض الخلفاء - أراه أبا جعفر المنصور - في الليل ليقتله، وهو قد اشتد غضباً عليه وحنقاً. فلما وصل إليه الرسول، قال: أجب أمير المؤمنين. قال: وما حاجته إلي في جوف الليل؟ فقال: لا أعرف، لكنني أمرت أن آتي بك، فاستشعر الشر وخرج مع الرسول. فلما انتهى إلى باب القصر، استأذن الرسول، فأمر أبو جعفر بإدخاله، فتوقف ساعة وحرك شفتيه. ثم دخل، فقام المنصور إليه وأخذه بيده، وأجلسه، وجعل يعتذر إياه من التوجيه وراءه في مثل ذلك الوقت، ثم عطف على الرسول، وقال له: لعلك روعته، فقال له: لا، ثم أمر الشافعي بالانصراف، وأمر له بمال كثير.

قال الرسول: فعجبت مما رأيت، وعلمت أن الذي نجّاه ما حرّك به شفتيه، فتبعه الرسول، وقال له بالذي استنقذك

وأجاب دُعَاءَكَ أَلَا مَا أَعْلَمْتَنِي بِالَّذِي حَرَّكَتَ بِهِ شَفَتَيْكَ حِينَ
أُمِرْتَ بِالْدُخُولِ حَتَّى أَنْزَلَكَ عَلَى الْمَقَامِ الَّذِي رَأَيْتَ . قَالَ :
نَعَمْ ، وَكَرَامَةً . وَأَنَا أَهْدِي ذَلِكَ إِلَيْكَ :

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِنُورِ قُدْسِكَ ، وَعِظْمَةِ طَهَارَتِكَ ، وَبِرَكَّةِ
جَلَالِكَ مِنْ كُلِّ آفَةٍ وَعَاهَةٍ ، وَمِنْ طَوَارِقِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ،
وَمِنْ طَوَارِقِ الْإِنْسِ وَالْجَانِ إِلَّا طَارِقًا يَطْرُقُ بِخَيْرٍ ، يَا اللَّهُ
يَا رَحْمَنَ ، اللَّهُمَّ أَنْتَ عِيَاذِي فِيكَ أَعُوذُ ، وَأَنْتَ مَلَاذِي فِيكَ
أَلُوذُ ، يَا مَنْ ذَلَّلْتَ لَهُ رِقَابَ الْجَبَابِرَةِ ، وَخَضَعْتَ لَهُ مَقَالِيدَ
الْفِرَاعِنَةِ ، أَعُوذُ بِجَلَالِ وَجْهِكَ ، وَكَرَمِ جَلَالِكَ مِنْ خِزْيِكَ ،
وَكَشْفِ سِتْرِكَ وَنَسْيَانِ ذِكْرِكَ ، وَالْإِضْرَابِ عَنْ شُكْرِكَ ، أَنَا فِي
كَنْفِكَ فِي لَيْلِي وَنَهَارِي ، وَنَوْمِي وَقَرَارِي ، وَظَعْنِي وَأَسْفَارِي ،
فَاَجْعَلْ ذِكْرَكَ شِعَارِي ، وَثَنَاءَكَ دِثَارِي ^(١) ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ تَنْزِيهَاً
لِاسْمِكَ ، وَتَكْرِيماً لِسُبْحَاتِ وَجْهِكَ ، أَجْرِنِي مِنْ خِزْيِكَ ، وَمِنْ
شَرِّ عِبَادِكَ ، وَاضْرِبْ عَلَيَّ سَرَادِقَاتِ حِفْظِكَ ، وَقْنِي سَيِّئَاتِ
عَذَابِكَ ، وَأَدْخِلْنِي فِي حِفْظِ عَنَائِتِكَ ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ ،
فَإِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَأَنْتَ حَسْبِي وَنَعْمَ الْوَكِيلُ .

(١) الدثار : الغطاء .

كان لمالك بن أنس - رضي الله عنه - بنت تحفظ «الموطأ» فكانت تقف خلف الباب، فإذا قرئ على مالك وغلط القارئ نقرت الباب فيعلم غلطه، وكان له ابن اسمه محمد يجيء، وأبوه مالك يحدث، وعلى يده بائق، فيلتفت مالك للحاضرين، فيقول: أما إن الأدب أدب الله، هذا ابني كما ترون، وهذه بنتي كما ترون.

وقال ابن سعيد في كتاب «الزهرات»: نقلت من كتاب البيهقي الموسوم بـ «العمائم بالكمائم»: أولى ما حفظ الرؤساء الكرام من الأشعار أشعار أمثالهم، وأولى ما حفظ من ذلك شعر أبي دُكف العجلي، لأن أقواله فيها تطابق أفعاله مع حلاوة منزعه، وعذوبة مشرعه، وأولى ما حفظ من شعره في ذلك قوله:

إذا جادت الدنيا عليك فجد بها

وبادر بها من قبل أن تتفلت

فلا الجود يُفنيها إذا هي أقبلت

ولا البخل يُبقيها إذا هي ولت

قال بعض الشعراء :

لا تبخلن بدنيا وهي مقبلة
فليس ينقصها التبذير والسرف
وإن تولت فأحرى أن تجود بها
فالحمد منها إذا ما أدبرت خلف

وقال آخر :

ثناء الفتي يبقى ويفنى ثراؤه
فلا تكتسب بالمال شيئا سوى الذكر
فقد أبلت الأيام كعبا وحامئا
وذكرهما غص جديد إلى الحشر

قال ابن سعيد : حكى لي الصاحب كمال الدين بن
العديم أن القاضي بهاء الدين بن شداد قاضي حلب ، الذي بلغ
عند صلاح الدين وابنه الظاهر ما لم يبلغه أحد من نظرائه ،
مرض بحلب . قال : فمشيت في جماعة من الشبان المبتدئين
في القراءة والظهور إلى عيادته ، فعندما دخلنا عليه قام لنا ،
فجعلنا نحلف ألا يفعل . فقال : يا سبحان الله ! تتفكرون في

مرضي ، وتتعنون من أماكنكم إلى منزلي ، ثم أبخل عليكم بقومه؟ هذا والله غير طريق المروءة . ثم قال : يا أولادي ! لقد دخلت على كبير وأنا في سننكم فلم يحتفل بي ، فإلى الآن ما أذكر ذلكم إلا أسأتُ ذكره .

قال : وكنتُ أترددُ إلى مجلس كمال الدين بن يغمور وهو نائب السلطنة بالشَّام ، وكان يقوم لي كلما دخلت عليه ، فدخلتُ يوماً فإذا به مضطجع فلم يقم ، وأخذ فيما كان يأخذ فيه ، فلما دخلتُ عليه في اليوم الثاني قام ثم جلس ، ثم قام ثم جلس ، وقال : هذه الأخيرة قومة أمس كانت عليّ ديناً ، لعذر تفضلُ بقبوله دون مطالبة بذكره ، فتعجبتُ من فضله ، وقلت : ما سار لهذا الرَّجل ما سار في الآفاق من باطل .

حدث الأصمعيّ قال : سأل رجل أبا عمرو بن العلاء حاجة فوعده بها ، ثم إنَّ الحاجة تعذّرت على أبي عمرو ، فلقبه الرَّجل بعد ذلك . فقال له : يا أبا عمرو ! وعدتني وعداً فلم تُنجزه . قال له أبو عمرو : فَمَنْ أُولَى بالغَمِّ أنا أو أنت ؟ فقال له : أنا . فقال له أبو عمرو : بل أنا ! فقال له الرَّجل : وكيف ذلك أصلحك الله ؟ قال : لأنني وعدتُك وعداً فأبّيتُ بفرح الوعد ، وأبّيتُ أنا بهمَّ الإنجاز ، وبِيتُ ليلتك فرحاً ، وبِيتُ مُفكراً

مغمومًا ، ثُمَّ قُمتُ مُهمومًا ، ثُمَّ عاقَ القَدْرُ عن بلوغِ الإرادة ،
فلقيتني مُدلاً^(١) ، ولقيتك مُحْتشِمًا ، فمن هنا صرتُ أولى
بالغمِّ منك .

اجتمع جماعة من الشعراء بباب أبي الغيث فلم يأذن
لهم ، فكتبوا إليه :

أيُّ هذا العَزِيزِ قَدِ مَسَّنَا الضُّرُّ

رُودِبَّتْ بِهِ الخُطوبُ إلينا

وَلَدَيْنَا بِضَاعَةٌ مُزَجَّاةٌ

قَلَّ طُلَّابُهَا فَبَارَتْ لَدَيْنَا

فَأَزِلْ ضُرَّنَا وَأَوْفِ لَنَا الْكِـ

لَ بِمَا شِئْتِ أَوْ تَصَدَّقْ عَلَيْنَا

فَأَحْسِنَ إِلَيْهِمْ وَانصرفوا .

امتدح نُصَيْبُ الشَّاعِرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ ، فَأَمَرَ لَهُ بِخَيْلٍ ،

وإِبِلٍ وَأَثَاثٍ ، وَدَنَانِيرٍ ، وَدِرَاهِمٍ . فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ : أَمِثْلُ هَذَا

الْأَسْوَدَ يُعْطَى مِثْلَ هَذَا الْمَالِ ؟ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ : إِنْ كَانَ

(١) المَدْلُ : الواثق من المحبة والإكرام .

أَسْوَدَ، فَإِنَّ شَعْرَهُ أَبْيَضُ، وَإِنْ ثَنَاءَهُ لِمُرَوِّىٍّ، وَقَدْ اسْتَحَقَّ بِمَا قَالَ أَكْثَرَ مِمَّا نَالَ، وَهَلْ أُعْطِينَاهُ إِلَّا ثِيَابًا تَبْلَى؟ وَمَالًا يَفْنَى؟ وَمَطَايَا تَضُنِّى؟ وَأَعْطَانَا مَدْحًا يُرَوِّى، وَثَنَاءً يَبْقَى.

دَخَلَ ابْنُ السَّمَّاكِ عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ سَلِيمَانَ بْنِ عَلِيٍّ، فَرَأَاهُ مُعْرَضًا عَنْهُ، فَقَالَ: مَا لِي أَرَى الْأَمِيرَ كَالْعَاتِبِ عَلَيَّ؟ قَالَ: ذَلِكَ لَشَيْءٍ بَلَّغْنِي عَنْكَ كَرِهَتُهُ. قَالَ: إِذَنْ وَاللَّهِ لَا أَبَالِي، قَالَ: وَلِمَ؟ قَالَ: لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ ذَنْبًا غَفَرْتَهُ، وَإِنْ كَانَ بَاطِلًا لَمْ تَقْبَلْهُ.

بَعَثَ زِيَادٌ إِلَى مُعَاوِيَةَ بِرَجُلٍ مُخَالَفٍ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ، فَلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ لَهُ: أَنْتَ الْقَائِمُ عَلَيْنَا، الْمَكْثَرُ لِعَدَوْتِنَا. قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّمَا كَانَتْ فَتْنَةٌ عَمَّ عَمَّاهَا، وَأَطْلَمَ دُجَاهَا، نَزَا^(١) فِيهَا الْوَضِيعُ، وَخَفَّ الْحَلِيمُ وَالرَّفِيعُ، فَاحْتَدَمَتْ، وَأَكَلَتْ عَلَيْنَا وَشَرِبَتْ، حَتَّى إِذَا انْحَسَرَتْ ظِلْمَاؤُهَا، وَانْكَشَفَ غَطَاؤُهَا، آلَ الْأَمْرُ إِلَى مَالِهِ، وَصَرَخَ عَنْ مَحْضِهِ، وَارْتَفَعَ الْعَبُوسُ، وَثَابَتَ النُّفُوسُ، فَتَرَكْنَا فَتْنَتَنَا، وَلَزِمْنَا عَصْمَتَنَا، وَعَرَفْنَا خَلِيفَتَنَا، وَمَنْ يَجِدُ مَتَابًا لَمْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ عِقَابًا، وَمَنْ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا. فَعَجِبَ مُعَاوِيَةُ مِنْ فَصَاحَتِهِ، وَاسْتَغْرَبَ حُسْنَ اعْتِذَارِهِ، وَعَفَا عَنْهُ، وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ.

(١) نَزَا: وَثَبَ.

ذُكِرَ أَنَّ الْمُتَوَكِّلَ بْنَ الْأَفْطُسِ فَرَّ إِلَيْهِ شَخْصٌ مِنْ بَنِي هُودٍ
مَغَاضِبًا لِابْنِ عَمِّهِ مَلِكِ سَرْقِسطَةَ ، فَأَوَاهُ وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ ، ثُمَّ
اخْتَبَرَهُ ، فَرَأَاهُ أَهْلًا لِلْوِلَايَةِ ، فَوَلَّاهُ ، فَقَالَ لَهُ أَحَدُ وَزَرَائِهِ : كَثِيرٌ
هَذَا فِي فِي تَغْيِيرِ قَلْبِ قَرِيبِهِ يَا مَوْلَايَ ، تُسَخِطُ قَادِرًا فِي حَقِّ
عَاجِزٍ ، تُفَرِّطُ فِيمَنْ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ كَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْنَا ، وَتَغْتَبِطُ بِمَنْ
لَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ ، بَلْ هُوَ مُوَكَّلٌ عَلَيْنَا ، فَقَالَ لَهُ الْمُتَوَكِّلُ : الَّذِي قُلْتَ
حَقٌّ ، وَلَكِنْ كَيْفَ يَكُونُ اقْتِنَاءُ الْمَكَارِمِ .

رُوي أَنَّ أُنُو شَرَوَانَ غَضِبَ عَلَى وَزِيرِهِ بَزْرَجْمَهَرَ ،
فَسَجَنَهُ فِي بَيْتٍ كَالْقَبْرِ ، وَصَفَّقَهُ بِالْحَدِيدِ ، وَأَلْبَسَهُ الْحَشِينَ مِنْ
الصُّوفِ ، وَأَمَرَ الْأَيُّزَادَ فِي كُلِّ يَوْمٍ عَلَى قُرْصِينَ مِنَ الْخُبْزِ ،
وَكَفِّ مَلْحٍ جَرِيشٍ ، وَدَوْرَقِ مَاءٍ ، وَأَنْ تُنْقَلَ أَلْفَاظُهُ إِلَيْهِ ، فَأَقَامَ
شَهْرًا لَا تُسْمَعُ لَهُ لَفْظَةٌ ، فَقَالَ أُنُو شَرَوَانُ : أَدْخِلُوا عَلَيْهِ
أَصْحَابَهُ ، وَمُرُوهُمْ أَنْ يَسْأَلُوهُ ، وَيَفَاتِحُوهُ فِي الْكَلَامِ ،
وَعَرَفُونِيهِ ، فَدَخَلَ إِلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُخْتَصِّينَ بِهِ ، فَقَالُوا لَهُ : أَيُّهَا
الْحَكِيمُ ! نَرَاكَ فِي هَذَا الضِّيقِ وَالْحَدِيدِ وَالشَّدَّةِ الَّتِي دُفِعْتَ
إِلَيْهَا ، وَمَعَ هَذَا فَإِنَّ سُحْنَةَ وَجْهِكَ ، وَصِحَّةَ جِسْمِكَ عَلَى
حَالِهَا لَمْ تَتَغَيَّرْ ، فَمَا السَّبَبُ فِي ذَلِكَ ؟ قَالَ : إِنِّي عَمِلْتُ
جَوَارِشَ مِنْ سِتَّةِ أَخْلَاطٍ ، فَأَخَذْتُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ شَيْئًا ، فَهُوَ الَّذِي

أبقاني على ما ترون . فقالوا له : فَصِّفْ لَنَا فَعَسَى أَنْ نَبْتَلي بِمِثْلِ
بِلْوَاكِ ، أَوْ أَحَدِ إِخْوَانِنَا فَنَسْتَعْمَلَهُ ، أَوْ نَصِفَ لَهُ . فقال : الخليل
الأول : الثِّقَّةُ بِاللَّهِ . والثَّانِي : أَنْ كُلَّ مُقَدَّرٍ كَائِنْ . والثَّالِثُ :
الصَّبْرُ خَيْرٌ مَا اسْتَعْمَلَهُ الْمُتَحَنِّنُ . والرَّابِعُ : إِنْ لَمْ أَصْبِرْ فَأَيُّ
شَيْءٍ أَعْمَلُ ، وَلَمْ أَعِزْ عَلَى نَفْسِي بِالْجَزَعِ . والخَامِسُ : قَدْ يُمْكِنُ
أَنْ أَكُونَ فِي شَرٍّ أَصْعَبُ مِمَّا أَنَا فِيهِ . وَالسَّادِسُ : مِنْ سَاعَةٍ إِلَى
سَاعَةٍ فَرَجٌ .

القسم الرابع

في جُمَل من الوصايا والمواعظ الحسان العظيمة الفائدة والمنفعة لكل إنسان

اعلم أنَّ الكلامَ في هذا القسم لا ينحصر لا تساع القول فيه، غير أنَّي آتي هنا بمقصدي منه، وأرجو بعون الله أن أوفيه، وأنقل من ذلك إن شاء الله جُملاً من الوصايا نافعة، وفنوناً من المواعظ كافية، لمن اتَّعظ بها شافية.

قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بعبد خيراً ألهمه رُشدَه»، فالانقياد إلى الرُّشد والتَّوفيق، والاستقامة على الخير، ونهج سواء الطريق، والتَّمسُّك بحبل الهدى، يصرف عن المرء الرَّدَى، ويكشف عن قلبه الرَّآن^(١) والصدَّاء، وما أجدر العاقل بذلك وأولاه، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

(١) الرَّآن: ما غطى على القلب وركبه من القسوة للذنب بعد الذنب.

قال بعض الحكماء : استصلح نفسك بعقلك ، واجعل
نظرك وتفكيرك بمنزلة المرأة ، فتدرك بها ما التبس من أمرك ،
فالعقل أفصح واعظ ، وأحرس حافظ ، وبالعقل أدرك الناس
معرفة الله تعالى ، قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلئن سألْتهم
مَنْ خَلَقهم ليقولنَّ : اللهُ ﴾ (الزخرف : ٨٧) فصديق المرء عقله ،
وعدوه جهله ، فالعاقل من عقله في إرشاد ، ومن رأيه في
إمداد ، والجاهل من جهله في إغواء ، ومن هواه في إغراء .
قال الشاعر :

مَنْ لَمْ يَكُنْ أَكْثَرُهُ عَقْلُهُ

أَهْلَكَهُ أَكْثَرُ مَا فِيهِ

قال رسول الله ﷺ : «العقل نور في القلب يُفَرِّقُ بِهِ بَيْنَ
الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ» .

وقال بعض العلماء : ليس الخرج في أن يتصرف
الإنسان في طلب حظّه من الدنيا فيما لا بدّ له منه ، ولا غنى به
عنه ، لأنّ أسباب الحاجة ، وحيل العجز إنّما هي في الدنيا التي
هي دار تكليف وعمل ، لأنّ الآخرة دار قرار وجزاء ،
فليصرف الإنسان إلى دنياه حظاً من عنايته ، لأنّها يتزوّد
لآخرته .

وقد قال مُجاهد في قول الله عزَّ وجلَّ لِنَبِيِّهِ ﷺ : ﴿ فَإِذَا
فَرَعْتَ فَأَنْصَبْ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴾ (الشَّرح : ٨) إي إذا
فرغت من مؤونة الدُّنيا ، فانصب في العبادة .

وقال لقمان الحكيم : خذ من الدُّنيا بلاغَكَ . ، أنفقْ
فُضُولَ كَسْبِكَ تقدِّمه لآخرتك ، ولا ترفضها كلَّ الرِّفْض فتكون
على النَّاسِ عِيَالاً ، وعلى أَعْنَاقِ الرِّجَالِ كَلَالاً^(١) .

ومن كلام عمر رضي الله عنه : ليس خيركم من عمل
للآخرة وترك الدُّنيا ، أو عمل للدُّنيا وترك الآخرة ، ولكنَّ
خيركم من أخذ من هذه ومن هذه . وإنَّما الحَرَجُ في الرِّغْبَةِ
فيما تجاوز قدر الحاجة ، وزاد على حدِّ الكفاية ، فإنَّها فُضُول
لا تُجدي ، وزوائد لا تنفع ولا تُغني ، تحمل المرء في اشتغاله
لها ، والنَّظَرُ فيها على التَّقْصِيرِ عَمَّا فيه الفائدة ، والتَّأخُّرُ عَمَّا فيه
العائدة ، والعقلاء تركوا فُضُولَ الدُّنيا ، فكيف الذُّنُوبُ ، وترك
فُضُولَ الدُّنيا من العقل ، وترك الذُّنُوبُ من الفرض .

قال بعض الحكماء : المُجَرَّبُ أَحْكَمُ مِنَ الطَّيِّبِ ، وفي
تَصَرُّفِ الدُّنيا موعظة لكلِّ أريب . فَمَنْ صَحَّ لَهُ يَقِينُهُ ، وَسَلِمَ لَهُ

(١) الكَلَال : التعب والإعياء .

دِينُهُ، فَلَا شَيْءَ يَضِيرُهُ وَلَا يَشِينُهُ، وَمَنْ لَمْ يَعتَبِرْ تَصَرَّفَ الْآيَّامَ،
غَرِقَ فِي بَحْرِ الْأَثَامِ، وَقَدْ قِيلَ : كَفَى بِالتَّجَارِبِ تَأْدِيبًا، وَبِتَقَلُّبِ
الْآيَّامِ عِظَةً.

وَمَنْ كَلَامَ بَعْضِ الْحُكَمَاءِ : مَوَاعِظُ الْآيَّامِ أبلغُ مِنْ
مَوَاعِظِ الْأَنَامِ، وَإِنْ أُعْرِبْتَ مِنْ غَيْرِ كَلَامٍ، وَأُفْصِحَتْ عَنْ
اسْتَعْجَامٍ، فَطَوْبَى لِمَنْ جَعَلَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَاعْظًا، وَنَصَبَ عَلَيْهِ
مِنَ اللَّهِ حَافِظًا.

وَمَنْ كَلَامَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : طَوْبَى لِلنَّاطِقِ فِي قَوْمٍ
يَسْمَعُونَ كَلَامَهُ، إِنَّهُ مَا تَصَدَّقَ رَجُلٌ بِصَدَقَةٍ أَعْظَمَ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ
مَوْعِظَةٍ قَوْمٌ يَصِيرُونَ بِهَا إِلَى الْجَنَّةِ. وَخَيْرُ ذَلِكَ مَا كَانَ مِنْ قَائِلٍ
مُخْلِصٍ إِلَى سَامِعٍ مُنْصَتٍ.

فصل

من مواعظ النبي ﷺ ووصاياه، ومواعظ السلف الصالح ووصاياهم وغيرهم من العلماء والحكماء

قال ﷺ: «أقبلوا على ما كُفِّتموه من إصلاح آخرتكم . وأعرضوا عما ضَمِنَ لكم من أمر دُنياكم، ولا تستعملوا جوارحَ غذيت بنعمته في التَّعَرُّضِ لِسَخَطِهِ بِمَعْصِيَتِهِ، واجعلوا شُغْلَكُمْ بِالتَّماسِ مَغْفِرَتِهِ، واصرِفُوا هِمَمَكُمْ إِلَى التَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِطَاعَتِهِ، والْجُؤُوا إِلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَأَكْرِهُوا عَلَيْهِ النُّفُوسَ، وَاصْبِرُوا عَلَى الضَّرَاءِ تُفْضُوا إِلَى النَّعِيمِ الدَّائِمِ» .

وقال ﷺ: «حَلُّوا أَنْفُسَكُمْ بِالطَّاعَةِ، وَأَلْبَسُوا قِنَاعَ الْمَخَافَةِ، واجعلوا آخرتكم لأنفسكم، وسَعْيَكُمْ لِمُسْتَقَرِّكُمْ، واعلموا أنَّكم عن قليل راحلون، وإلى الله صائرون، ولا يغني عنكم هنالك إلا صالحُ عملٍ قدَّمتموه، أو حُسْنُ ثَوَابٍ حُزَّتموه» .

وقال ﷺ في بعض خطبه : « أيها الناس ! إنَّ الأيامَ
تُطوى ، والأعمارَ تَفنى ، والأبدانَ في الثرى تبلى ، وإنَّ الليلَ
والنَّهارَ يترَاكضانَ تراكُضَ البريدِ ، يُقربانَ كلَّ بعيدٍ ، ويُخلقانَ
كلَّ جديدٍ ، وفي ذلك عباد الله ما ألهى عن الشهواتِ ، ورغَّبَ
في الباقيات الصالحاتِ » .

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : لا تكن ممن
يرجو الآخرة بغير عمل ، ويؤخر التَّوبةَ لطول الأمل ، ويقول
في الدُّنيا الزَّاهدين ، ويعمل فيها عمل الرَّاغِبين ، إن أعطى منها
لم يشبع ، وإن منع لم يقنع ، ويأمر بما لا يأتي ، يحبُّ الصَّالحين
ولا يعمل بأعمالهم ، ويبغض المُسيئين وهو منهم . يكره الموت
لكثرة ذنوبه ، و يقيم على ما يكره الموت له . إن سقم ظلَّ نادماً ،
وإن صحَّ أمنَّ لا هياً ، يعجب من نفسه إذا عوفي ، ويقنط إذا
ابتلي ، تُقلِّبهُ نفسه على ما يظنُّ ، ولا يُقلِّبها على ما يستيقن ،
ولا يثقُ من الرِّزق بما ضمن له ، ولا يعمل من العمل بما فُرض
عليه . إن استغنى بطر ، وإن افتقر قنط وحزن ، فهو من الذَّنْبِ
في حالِي المحنة والنَّعمة موقر ، يبتغي الزَّيادة ولا يشكر ،
ويتكلَّف من النَّاس ما لا يؤمر ، ويضيع من نفسه ما هو أكثر ،

ويبالغ إذا سأل، ويُقصر إذا عمل. يخشى الموت، ولا يبادر
الموت، يستكثر من معصية غيره، ما يسهل أكثره من نفسه.
مزاهر اللهو مع الأغنياء أحب إليه من الذكر مع الفقراء، يحكم
على غيره لنفسه، ولا يحكم عليها لغيره. وهو يُطاع فيعصي
ويستوفي فلا يوفي.

روي أن رجلاً قال لعلي رضي الله عنه : عظمي يا أمير
المؤمنين : فقال : لا تكن بما نلت من دنياك فرحاً، ولا على
ما فاتك منها أسفاً، وكُن مسروراً بما قدمت، أسفاً على
ما أبقيت، فرقاً مما بعد الموت.

وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : أيها الناس :
اتقوا الله، فليس من هالك إلا له كلفٌ بالتقوى، واحذروا
الموت فإنه أشدُّ ما قبله، وأهونُ ما بعده، ولا تستصغر
الذنوب، والتمسوا تمحيصها بالتوبة، فإن الحسنات يذهب
السيئات، ذلك ذكرى للذاكرين.

وكان رضي الله عنه يتمثل بهذه الأبيات :

نهارك يا مغرورٌ سهوٌ وغفلةٌ

وليلك نومٌ والأسى لك لازمٌ

تُسَرُّ بِمَا يَفْنَى وَتَفْرَحُ بِالْمُنَى

كَمَا سُرَّ بِاللَّذَاتِ فِي النَّوْمِ حَالُ

وَسَعَيْكَ فِيمَا يَوْفُ تَكْرَهُ غَبَّهُ

كَذَلِكَ فِي الدُّنْيَا تَعِيشُ الْبِهَائِمُ

دَخَلَ أَبُو الدَّرْدَاءِ الشَّامَ فَقَالَ : يَا أَهْلَ الشَّامِ ! اسْمَعُوا

قَوْلَ أَخِي نَاصِحٍ ، فَاجْتَمِعُوا إِلَيْهِ ، فَقَالَ : مَالِي أَرَاكُمْ

تَبْنُونَ مَا لَا تَسْكُنُونَ ، وَتَجْمَعُونَ مَا لَا تَأْكُلُونَ ،

وَتُؤَمِّلُونَ مَا لَا تَدْرِكُونَ ، إِنَّ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَكُمْ بَنَوْا مَشِيدًا ،

وَأَمَّلُوا بَعِيدًا ، وَجَمَعُوا عَتِيدًا^(١) ، فَأَصْبَحَ أَمْلَهُمْ غُرُورًا ،

وَجَمَعَهُمْ ثُبُورًا^(٢) ، وَمَسَاكِنُهُمْ قُبُورًا .

وَنَظَرَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ إِلَى النَّاسِ فِي مُصَلَّى الْبَصْرَةِ

يَضْحَكُونَ وَيَلْعَبُونَ فِي يَوْمِ عِيدٍ ، فَقَالَ : إِنَّ اللَّهَ جَعَلَ الصَّوْمَ

مُضْمَارَ الْعِبَادَةِ ، لِيَسْتَبِقُوا إِلَى طَاعَتِهِ ، فَسَبَقَ أَقْوَامٌ فَفَازُوا ،

وَتَخَلَّفَ أَقْوَامٌ فَخَابُوا ، فَالْعَجَبُ مِنَ الضَّاحِكِ اللَّاعِبِ فِي

الْيَوْمِ الَّذِي فَازَ فِيهِ الْمُحِقُّونَ ، وَخَسِرَ الْمُبْطِلُونَ ، وَلِعَمْرِي لَوْ

(١) العتيد : الجسيم

(٢) الثبور : الهلاك ، والخسران .

كُشِفَ الْغِطَاءَ لَشُغْلِ مُحْسِنٍ بِإِحْسَانِهِ . وَمُسِيءٍ بِإِسَاءَتِهِ عَنْ
تَجْدِيدِ ثَوْبٍ ، أَوْ تَرْجِيلِ شَعْرٍ .

ونظر وهب بن منبه إلى قوم يضحكون في يوم عيد ،
فقال : إِنْ كَانَ هَؤُلَاءِ غُفِرَ لَهُمْ فَمَا هَذَا فِعْلُ الشَّاكِرِينَ ، وَإِنْ
كَانُوا لَمْ يُغْفَرْ لَهُمْ فَمَا هَذَا فِعْلُ الْخَائِفِينَ .

روي أَنَّ الإسكندر مرَّ بمدينة قد تملكها سبعة أملاك ،
وبادَّ جميعهم ، فقال : هل بقي من نَسْلِهِمْ أَحَدٌ؟ فقالوا : نعم
رجل يسكن المقابر ، فدعاه ، فأتاه ، فقال له : ما دعاك إلى لزوم
المقابر؟ قال : أردتُ أَنْ أُمِيزَ عِظَامَ الْمُلُوكِ مِنْ عِظَامِ الْعَبِيدِ
فوجدتها سواء ، فقال له : هل لك أَنْ تتبعني فأحيي شرفك ،
وشرف آبائك إِنْ كَانَتْ لَكَ هِمَّةٌ؟ قال : هِمَّتِي عَظِيمَةٌ . قال :
وما هي ؟ قال : حياة لا موت معها ، وشباب لا هرم بعده ،
وغنى لا فقر معه ، وصحة من غير سقم ، وسرور من غير
مكروه . قال : هذا ما لا تجده عندي . فقال : فدعني أطلبه ممن
هو عنده . فقال الإسكندر : ما رأيتُ رجلاً أحكم من هذا ،
وخرج من عنده ، فلم يزل في المقابر حتى لحق بأهله ،
رحمه الله .

قال بعض السلف : عاملوا الله بتقواه ، واسترضوه
بطاعته ، ولا تملّوا من ذكره ، ففيه النجاة من النار ،
ولا تستصغروا الذنوب وتستحقروها ، فإنه من استصغر
الذنب وقع فيه ، ومن ركب المعصية أهلك نفسه ، فإن الله عزّ
وجلّ لم يترك صغير الذنوب للأنبياء ، فكيف للأشقياء ؟
قال الشاعر :

نسير إلى الأجل في كل ساعة
وأيامنا تطوى وهنّ مراحيل
ولم نرمِ مثل الموت حقاً كأنه
إذا ما تخطّته الأمانى باطل
ترحلّ من الدنيا بزاد من التقي
فعمرك أيام تعدّ قلائل
وقال الشاعر :

تأهب للحمام فكلّ حي
قصّاراه وإن عاش الممات
ودع شغلاً يفوتك منتهاه
فإن الشغل غايته الفوات

ولا يَطمع ذهابُك في رُجوع

فإنَّ طلاقَ ذي الدُّنيا باتُ

وقال بعضهم : إنَّ كلَّ يومٍ يمرُّ بكم يحمل ما ثبت فيه من
خير أو شرٍّ، ثمَّ يمضي فلا يعود أبداً . فإنَّ قدرتم أن تحظوا كلَّ
يومٍ بمكرمةٍ، وتثبتوا فيه حسنةً فلا تؤخروا، فإنَّ الأيام
صحائفٌ، فخلّدوا فيها الجميل، فقد رأيتم حفظها لما
استودعت من المحامد والمكارم في قديم الدهر وحديثه .

قال الشاعر :

حتَّى متى نَحْنُ في الأَيَّامِ نَحْسِبُهَا

وإنَّما نَحْنُ فِيهَا بينَ يومينِ

يومٌ تولَّى ويومٌ نَحْنُ نأملُهُ

لعلَّه أقربُ الأَيَّامِ لِلْحَيْنِ (١)

رأى إياس بن قتادة شيبَةً في لحيتِهِ، فقال : أرى الموتَ
يَطلبني، وأراني لا أفوته، اللهمَّ إِنِّي أعوذُ بك من فجأةِ
الأُمورِ، وبغتاتِ الحوادثِ . يا بني سعد ! قد وهبتُ لَكم شبابي

(١) الحَيْنُ : الهلاك .

فهبوا لي شيبتي . ولزم بيته صائماً قائماً ، فقال له أهله : تموت
هزلاً؟ فقال : لأن أموت مؤمناً مهزولاً أحبُّ إليَّ من أن أموت
مناً سميناً .

قال الشاعر محمود الوراق :

بكيتُ لِقُربِ الأجلِ
وبُعْدِ فواتِ الأملِ
ووافدِ شَيْبِ طَرا
بعقبِ شَبابِ رَحَلِ
شَبابٌ كانَ لم يَكُنْ
وشَيْبٌ كانَ لم يَزَلْ
طواك بشيرُ البَقا

وحلَّ بشيرُ الأجلِ^(١)

قال بعض العلماء : وُجِدَ مكتوب في حجر : ابن آدم ،
لو رأيتَ يسير ما بقي من أجلك ، لزهدت في طول ما ترجو
من أملك ، ولرغبْتَ في الزيادة من عمَلِك ، ولقصرت من

(١) أراد ببشير البقاء : سواد الشعر ، وبشير الأجل : الشيب .

حرصك وحيلك، وإنما يلقاك ندمك، إذا زلَّ بكَ قدمُك،
وأسلمك أهلك وحشمك، وتبرأ منك القريب وانصرف عنك
الحبيب، فلا أنت إلى دُنياك عائد، ولا في حسناتك زائد .

قال رجل لرجل من الزُّهاد: ما رأيت أزهد منك . قال :
أنت أزهد مني . قال : وكيف ؟ قال : لأنك زهدت في الجنة
على بقائها، وزهدت أنا في الدنيا على فنائها .

قال الشاعر :

إِنَّ لِلَّهِ عِبَادًا فُطُنَا

طَلَّقُوا الدُّنْيَا وَخَافُوا الْفِتْنَا

فَكَّرُوا فِيهَا فَلَمَّا عَلِمُوا

أَنَّهَا لَيْسَتْ لِحَيٍّ وَطَّنَا

جَعَلُوهَا لُجَّةً وَاتَّخَذُوا

صَالِحَ الْأَعْمَالِ فِيهَا سُفُنَا

حكى أن عبد الله بن عتبة باع غلَّةً بثمانين ألفاً . ف قيل له :
لو اتخذت بهذا المال ذخيرة لولدك لكان حسناً . قال : أجعل
هذا المال عند الله ذخراً، وأجعل الله ذخراً لولدي، ثم قسم
المال كلَّه في أهل الحاجة .

قال عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه :
صَبْرٌ جَمِيلٌ إِذَا نَابَتْكَ نَائِبَةٌ
وإن عتبتَ فلا عُشْبِي على الزَّمنِ
هي المقاديرُ فاحذرْها فكم صرَعَتْ
من وافرِ العَقْلِ ذِي لُبٍّ وَذِي فِطْنِ
وارضَ القَنَاعَةَ لا تبغي بها بَدَلًا
لو لم تُنَوِّلكَ إِلَّا راحَةَ البَدَنِ
وانظرْ إلى مَنْ حَوَى الدُّنْيَا بأجمَعِها
هل راحَ منها بغيرَ الزَّادِ والكَفَنِ
فإنَّما الغُبنُ في يومِ النُّشُورِ إذا
تغابنَ النَّاسُ فيه أيَّما غُبنٍ

فصل

من المنقول في تأليفنا «تذكرة من اتقى»: حدث سويد ابن حارث الحارثي قال: دخلنا على رسول الله ﷺ، وأنا سابع سبعة من قومي، فقال: ما أنتم؟ قلنا: مؤمنون يا رسول الله. قال: ما حقيقة إيمانكم؟ قلنا: خمس عشرة خصلة يا رسول الله؛ خمسة أمرتنا رُسُلكَ أن نعمل بها، وخمسة أمرتنا رُسُلكَ أن نؤمن بها، وخمسة كُنَّا عليها في الجاهلية إلا أن تكون تكره منها شيئاً يا رسول الله، قال: ما الخمسة التي أمرتكم رُسُلي أن تعملوا بها؟ قلنا: شهادة أن لا إله إلا الله، وأَنَّكَ محمدٌ رسول الله، ونقيم الصلاة، ونؤتي الزكاة، ونصوم رمضان، ونحجُّ البيت مع الاستطاعة. قال: فما الخمسة التي أمرتكم رُسُلي أن تؤمنوا بها؟ قلنا: نؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورُسُله، والبعث بعد الموت. قال: فما الخمسة التي كنتم عليها في الجاهلية؟ قلنا: الرضا بالقضاء والقدر، والشكر عند الرِّخاء، والصبر عند نزول البلاء،

والثَّبات عند اللَّقاء، وترك الشَّماتة إذا نزلت المصائب
بالأعداء. فقال رسول الله ﷺ: يا لها من خمسة ما أجَلَّها،
وما أجمَلَّها، وما أحفلَّها! احفظوا عني تكمل لكم عشرون
خصلة: لا تأملون ما لا تدركون، ولا تبنون ما لا تعمرون،
ولا تجمعون ما لا تأكلون، ولا تشتغلون بما أنتم عنه راحلون،
واتقوا الله الذي أنتم فيه مؤمنون. فحفظنا ما قال رسول
الله ﷺ. فلما انصرفنا قال لأصحابه: ترونهم؟ قالوا: بلى
يا رسول الله، قال: حكماء، علماء، وفُهماء، كادوا من
فِقْهِهم أن يكونوا أنبياء.

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: حدثني
رسول الله ﷺ عن ربه - عز وجل - أنه قال: ما من قوم
يكونون في حيرة إلا استتبعها عبرة، وكلُّ نعيم زائل إلا نعيم
أهل الجنة، وكم هم منقطع إلا هم أهل النار، فإذا عملت سيئة
فأتبعها حسنة تمنحها مجزاً سريعاً، وأكثر صنائع المعروف،
فإن صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وما من عمل بعد
أداء الفرائض أحبُّ إلى الله - عز وجل - من إدخال السرور
على المؤمن.

وعن محمد بن علي بن الحسن رضي الله عنه قال :
ما اغرورقت عينٌ بمائها إلا حرم الله وجه صاحبها على النار ،
فإن سألت على الخدين لم يرهق وجهه قطر ولا ذلة ، وما من
شيء إلا له جزاء إلا الدمعة فإن الله يكفر بها بحور
الخطايا ، ولو أن باكيًا بكى في أمةٍ لحرم الله تلك الأمة على
النار .

قال علي رضي الله عنه : خذوا عني هؤلاء الكلمات ،
فلو رحلتم فيهن المطي حتى تنضوه ثم تبلغوه : لا يرجو العبدُ
إلا ربه ، ولا يخشى إلا ذنبه ، ولا يستحي إذا كان لا يعلم أن
يتعلم ، ولا يستحي إذا سُئل عما لا يعلم أن يقول : لا أعلم .
واعلموا أن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، ولا خير
لجسدٍ لا رأس له .

قال بعض الحكماء : مسكين ابن آدم ، لو خاف من النار
كما يخاف من الفقر لنجا منها جميعاً ، ولو رغب في الجنة
كما يرغب في الغنى لفاز بهما جميعاً . ولو خاف الله في
الباطن كما يخاف خلقه في الظاهر لسعد في الدارين جميعاً .

قيل للشافعي رضي الله عنه : كيف أصبحت؟ قال :
أصبحتُ تطلبني ثمانية : الله تعالى بالفرض ، ورسوله ﷺ
بالسنة ، والدَّهر بصروفه ، والعيال بقوتهم ، والحفظة بما ينطق
لساني ، والشيطان بالمعاصي ، والنفس بالشهوات ، وملك
الموت بقبض روعي .

ومن رقائق أبي عبد الله المغربي : تطهر من أدناس
هواك ، وتزين بلباس تقواك ، وقم بمسجد انقطاعك على قدم
شكواك ، وأحرم بتوجيه قلبك إلى قبلة نجواك تجد الحق
عندك ، وليس بسواك .

قال الربيع بن خثيم : أقلوا الكلام إلا بتسع : تكبير ،
وتهليل ، وتحميد ، وسؤالك الخير ، وتعوذك من الشر ، وأمرك
بالمعروف ، ونهيك عن المنكر ، وقراءة القرآن ، والأي يراك الله
حيث نهاك ، ولا يفقدك من حيث أمرك .

أراد قومٌ سفرًا ، فحادوا عن الطريق ، وانتهوا إلى راهبٍ
في صومعة ، فنادوه ، فأشرف عليهم ، فسألوه عن الطريق
فقال : ها هنا ، وأشار إلى السماء ، فعلموا الذي أراد . فقالوا :
إننا سائلوك . فقال : سلوا ولا تكثروا ، فإنَّ النهار لا يرجع ،
والعمر لا يعود ، والطالب حثيث في طلبه ، قالوا : علام

النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: عَلَى نِيَّاتِهِمْ، قَالُوا: فَلَا مِثْلَ الْمَوْتِ؟
قَالَ: إِلَى مَا قَدَرْتُمْ. قَالُوا: أَوْصِنَا قَالَ: تَزَوَّدُوا عَلَى قَدَرِ
سَفَرِكُمْ، فَخَيْرُ الزَّادِ مَا بَلَغَ الْمَحَلَّ، ثُمَّ أَرْشَدَهُمْ إِلَى الْحِجَّةِ
وَانْقَمَعَ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَتَيْتُ الشَّامَ فَمَرَرْتُ بِدِيرِ
حَرَمَلَةَ، فَإِذَا فِيهِ رَاهِبٌ كَانَ عَيْنِيهِ مَزَادَتَانِ، فَقُلْتُ لَهُ:
مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: يَا مُسْلِمَ، أَبْكِي عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِيهِ مِنْ
عَمْرِي، وَعَلَى يَوْمٍ مَضَى مِنْ أَجَلِي لَمْ يَحْسُنْ فِيهِ عَمَلِي، قَالَ:
ثُمَّ مَرَرْتُ بَعْدَ ذَلِكَ، فَسَأَلْتُ عَنْهُ، فَقِيلَ لِي: أَسْلَمَ وَغَزَا مَعَ
الْمُسْلِمِينَ، فَقُتِلَ فِي بِلَادِ الرُّومِ.

وَرُوي أَنَّ رَجُلًا أَتَى إِبْرَاهِيمَ بْنَ أَدَهَمَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -
فَقَالَ: يَا أَبَا إِسْحَاقَ: إِنِّي مُسْرِفٌ عَلَى نَفْسِي، فَأَعْرِضْ عَلَيَّ
مَا يَكُونُ لَهَا زَاجِرًا وَمُسْتَنْفَذًا. قَالَ: إِنْ قَبِلْتَ خَمْسَ خَصَالٍ،
وَقَدَرْتَ عَلَيْهَا لَمْ تَضُرَّكَ الْمَعْصِيَةُ، وَلَمْ تَوْبُقْكَ لَذَّةٌ، قَالَ: هَاتِ
يَا أَبَا إِسْحَاقَ. قَالَ: أَمَّا الْأُولَى، فَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْصِيَ اللَّهَ عَزَّ
وَجَلَّ - فَلَا تَأْكُلْ رِزْقَهُ. قَالَ: فَمِنْ أَيْنَ أَكُلُ، وَكُلُّ مَا فِي
الْأَرْضِ رِزْقُهُ؟ قَالَ: يَا هَذَا، أَفَيَحْسُنُ بِكَ أَنْ تَأْكُلَ رِزْقَهُ
وَتَعْصِيَهُ؟ قَالَ: لَا، هَاتِ الثَّانِيَةَ. قَالَ: وَإِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَعْصِيَهُ

فلا تَسْكُنْ شيئاً من بلاده . قال الرَّجُلُ : هذه أعظم من الأولى ،
يا هذا ، إذا كان المشرق والمغرب وما بينهما له ، فأين أَسْكُنْ ؟
قال : يا هذا أفيحسن بك أن تأكل رزقه ، وتسكن بلاده ،
وتعصيه ؟ قال : لا هاتِ الثالثة . قال : وإذا أردت أن تعصيه
وأنت تحت رزقه ، وفي بلاده ، فانظر موضعاً لا يراك فيه ،
فاعصه فيه ، قال : يا إبراهيم ، ما هذا وهو يطلع على ما في
السرائر ؟ قال : يا هذا أفيحسنُ بك أن تأكلَ رزقه ، وتسكن
بلاده ، وتعصيه وهو يراك ويعلم ما تُجاهره به ؟ قال : لا ، هاتِ
الرابعة . قال : إذا جاءك ملك الموت ليقبض روحك ، فقل له :
أخبرني حتى أتوب توبة نصوحاً ، وأعمل لله صالحاً . قال :
لا يقبل مني . قال : يا هذا ، فأنت إذا لم تقدر أن تدفع عنك
الموت لتتوب ، وتعلم أنه إذا جاءك لم يكن له تأخير ، فكيف
ترجو وجه الخلاص ؟ قال : هاتِ الخامسة . قال : إذا جاءك
الزبانية يوم القيامة ليأخذوك إلى النار ، فلا تذهب معهم .
قال : إذن لا يدعوني ، ولا يقبلون مني . قال له إبراهيم :
فكيف ترجو النجاة إذن ؟ قال : حسبي ، حسبي ، أنا أستغفر
الله وأتوب إليه ، ولزم العبادة حتى فارق الدنيا ، رحمة
الله عليه .

دخل شبيب بن شبة على المهدي، فقال: يا أمير المؤمنين، إنَّ لله - عزَّ وجلَّ - إذا قسم منازل الدُّنيا لك أسناها وأعلاها، فلا ترضَ لِنَفْسِكَ من الآخرة إلا بمثل ما رضي لك به من الدُّنيا. فعليك بتقوى الله - عزَّ وجلَّ - فعليكم نزلت، ومنكم أخذت، وإليكم تُردَّ.

قال بعض العلماء: اعلم أنَّ ما على الإنسان شيء أثقل، ولا أصعب من معالجة أطراح حُبِّ الدُّنيا عن قلبه، وأنِّي له بذلك، ونحن قد خلقنا من تُربها، وجبلنا على حبِّها، ودواعي حُبِّ الدُّنيا أكثر من أن تُحصى وتُحصر، وأسبابُ الميل إليها، والحرص عليها أظهر من أن تُستر، وإنَّما تميَّزت عند ذوي الألباب، وتبيَّنت لأهل النَّظر، فعاملوها بالرِّفْض لها، والاستجناب لما تأملوها، فوجدوها لا توفي العاقل حقَّه، ولا تبخس الجاهل حظَّه، فنعيمها غير مُقيم، وبؤسها لا يدوم.

قال أبو العتاهية:

هي الدَّارُ دارُ الأذى والقذى

ودارُ الفناءِ ودارُ الغيرِ

فلو نلتها بحذافيرها
لمت ولم تقض منها الوطر
أيسا من يؤمل طول الخلود
وطول الخلود عليه ضرر
إذا ما كبرت وبان الشباب

فلا خير في العيش بعد الكبر^(١)
لما بلغ مداره من الدنيا أفضل ما سمت إليه نفسه نبذها
وقال: هذا سرورٌ لولا أنه غرور، وملكٌ لولا أنه هلك،
ومحمودٌ لولا أنه مفقود، وغنيٌ لولا أنه مني، وارتفاعٌ لولا أنه
اتضاع. قال الشاعر:

ألا إن الرُّكُـونَ إلى غُرُورٍ
إلى دار الفناء من الشقاءِ
ودُنْيانا وإن ملنا إليها
فَطالَ بها الثَّـواءُ إلى انقضاءِ

(١) بان الشباب: بعد، ورحل.

وروي عن عيسى عليه السلام أنه مُثِّلَ له الدُّنيا في صورة عَجُوزٍ هَتْمَاءٍ^(١). عليها من كلِّ زينة، فقال لها: كم تزوّجت من الخلق؟ قالت: لا أحصيهم عدداً، قال: أفكلُّهم ماتَ عنكَ؟ أم كلُّهم طَلَّقَكَ؟ قالت: بل كلُّهم قتلَ. قال عيسى عليه السلام: بؤساً لأزواجِكَ الباقيين كيف لا يعتبرون بالماضين، تُهلكينهم واحداً بعد واحد، ولا يكونون منك على حذر.

قال المأمون: لو سُئِلَتِ الدُّنيا عن نفسها ما أحسنت أن تصفَ نفسها صفةً أبي نواس في هذا البيت:

إذا امتحنَ الدُّنيا لَبِيبٌ تُكشِفَتُ

لَهُ عَن عَدُوِّ فِي ثِيَابِ صَدِيقٍ

وفي كتاب الهند: مثَّلَ الدُّنيا، وآفاتُها، ومخاوفُها، للموت والمعاد الذي إليه مصير الإنسان، ما قال الحكيم. قال:

وَجَدْتُ مُثَّلَ الْإِنْسَانِ الْمَغْرُورِ بِالدُّنْيَا الْمَمْلُوءَةِ آفَاتٍ، مِثْلَ رَجُلٍ أُلْجِأَهُ خَوْفٌ إِلَى بَثْرٍ، فَتَدَلَّى فِيهَا، وَتَعَلَّقَ بِغُصْنَيْنِ نَابِتَيْنِ عَلَى شَفِيرِ الْبَثْرِ، وَوَقَعَتْ رِجْلَاهُ عَلَى شَيْءٍ عَمْدَهُمَا عَلَيْهِ، فَنَظَرَ

(١) الأهم: المكسور الأسنان.

فإذا بِحَيَّاتٍ أربَعٍ قد أَطْلَعْنَ رُؤُوسَهُنَّ مِنْ جُحُورِهِنَّ ، وقد
نزلت رجلاه عليهنَّ ، ونظر أسفل البئر ، فإذا بثعبان فاغرٍ فاه
نحوه ، فرفع بصره إلى الغُصْنَيْنِ اللَّذَيْنِ تعلَّقَ بهما ، فإذا في
أصلهما بِجرُذَيْنِ : أبيض وأسود يقرضان الغُصْنَيْنِ دائبين
لا يفترقان ، فبينما هو كذلك مُغْتَمًا بنفسه ، وابتغى الحيلة في
نجاته ، إذ نظر ، فإذا بجانب منه جُحرٌ نحْلٌ قد وضعن فيه شيئًا
من العسل ، فتطاعم منه ، فوجد حلاوته ، فشغله عن الفكر في
أمره والتماس النِّجاة لنفسه ، ولم يذكر أنَّ رجله فوق أربع
حيَّاتٍ لا يدري متى تُساوره إحداهُنَّ ، وأنَّ الجرُذَيْنِ دائبان في
قرض الغُصْنَيْنِ اللَّذَيْنِ تعلَّقَ بهما ، وأنَّهما إذا قطعا هما وقع في
لهواتِ الثُّعبان ، فلم يزل لاهيًا غافلًا حتَّى هلك .

قال الحكيم : فَشَبَّهَتِ الدُّنْيَا المملوءة آفاتٍ ومخاوفٍ
بالبئر ، وشَبَّهَتِ الحَيَّاتِ الأربَعِ بالأخلاط الأربَعِ الَّتِي بُنِيَ جَسَدُ
الإنسان عليها من المرتين ، والبلغم والدَّم ، وشَبَّهَتِ الغُصْنَيْنِ
اللَّذَيْنِ تعلَّقَ بهما الحياة ، وشَبَّهَتِ الجرُذَيْنِ اللَّذَيْنِ يقرضان
الغُصْنَيْنِ دائبين بالليل والنَّهار ، ودورانهما في إفناء الأنام
والآجال ، وشَبَّهَتِ الثُّعبانِ الفاغر فاهُ بالموت الَّذِي لا بُدَّ منه ،
وشَبَّهَتِ العُسَيْلَةَ الَّتِي تطاعمها وشغلت قلبه بهذه الحلاوة

القليلة في الدنيا التي يرى الإنسان ويسمع ، ويطعم ، ويلبس ،
فيلهيهِ ذلك عن عاقبة الإنسان ، ويسمع ويطعم ويلبس فيلهيهِ
ذلك عن عاقبة أمره ، وما إليه مصيره .

قال بعض الزُّهَّاد : يا بن آدم مالك لا تزهدُ في الدنيا ،
وقد علمتَ يقيناً أنها فانية؟ ومالك تصحب الأيام بأمالك ،
وهي بك إلى أجلك ساعية؟ تقطع بك المسافات وأنت
لا تشعر ، وتوردك المهالك وأنت لا تنظر ، حتى تبلغك وقتاً
تدوم فيه استدراك أمرك فلا تقدر .

قال الشَّاعر :

تروح لنا الدنيا بغير الذي غَدَتْ
وتحدثُ من بعدِ الأمورِ أمورُ
وتجزى الليالي باجتماعٍ وفرقةٍ
وتطلعُ فيها أنجمٌ وتغورُ
فَمَنْ ظَنَّ أَنَّ الدَّهْرَ باقٍ سرورهُ
فذاك مُحالٌ ، لا يدوم سرورُ

قال بعض الحكماء : ممَّا تطيب به النَّفسُ ، ويرُفع به

الحزن، أن يعرف الرجل قدر الدنيا منه، وقدره منها، فقد قيل : إنَّ مَنْ أَهَانَهَا أَكْرَمَتْهُ، وَمَنْ أَكْرَمَهَا أَهَانَتْهُ، وَإِنْ غَنَاها فَقْرٌ، وَعِزَّها ذُلٌّ، وَصَحَّتْها سَقَمٌ، وَإِنَّ الْإِنْسَانَ فِيها بِمَنْزِلَةِ الثَّمَرَةِ، وَإِنْ لَمْ يَفْسِدْ بَعْضُها بِبَعْضِ الْآفَاتِ، فَإِنَّها تَسْقُطُ إِذَا أُدْرِكَتْ، أَوْ بِمَنْزِلَةِ مَنْ احْتَاطَتْ بِهِ السَّبَّاعُ، وَسُدَّتْ عَلَيْهِ كُلُّ مَجَازٍ، فَلَمَّا نَجَا مِنْ بَعْضِها اعْتَرَضَهُ بَعْضُها حَتَّى تَفْتَرِسَهُ، كَمَا قِيلَ :

أَصْبَحْتُ فِي دَارِ الْبَلِيَّاتِ

أُدْفِعُ آفَاتِ بِآفَاتِ

قال بعض الحكماء : طالبُ الدنيا لا نهايةَ له، ولا يبلغ منها إلى غايةٍ إلا طَلَبَ ما وراءَها . أخذ هذا المعنى بعضهم فقال :

إِذَا مَا كُنْتُ قَدْ أُوتِيتَ حَالاً

مِنَ الدُّنْيَا سَعَيْتَ بَنِيْلٍ حَالِ

فَأَنْتَ بِطَوْلِ دَهْرِكَ فِي عَنَاءٍ

كَثِيرِ السَّيْرِ فِي طَلَبِ الْمُحَالِ

وجد في بعض الكتب المنزلة : يا بن آدم لو كانت الدنيا
كلُّها لك ، لم يكن لك منها إلا القُوتُ ، فإذا أنا أعطيتك منها
القوتَ ، وجعلت حسابها على غيرك ، فأنا لك مُحسن .

قال الشاعر :

النَّفْسُ تُكَلِّفُ بالدُّنْيَا وقد عَلِمَتْ

أنَّ السَّلامَةَ منها تركُ ما فيها

واللَّهِ لو قَنِعَتْ نَفْسٌ بما رَزَقَتْ

مِنَ المَعِيشَةِ إِلَّا سَوْفَ تَأْتِيهَا

أَمْوَالنا لذوي الميراثِ نَجْمَعُهَا

ودُورنا لخرابِ الدَّهْرِ نَبْنِيهَا

قال رجل من بني شيبان : نزلتُ على راهب فجادلتهُ ،

ثمَّ قُلْتُ له : يا راهب عِظْني . فقال : أَعْظُكُمْ وفيكم القرآن ؟

ونبيُّكم محمدٌ عليه السَّلام ؟ قال : قُلْتُ : نعم . قال : فاتَّعِظْ

ببيت شاعر منكم يكنى أبا العتاهية :

تَجَرَّدَ من الدُّنْيَا فإنَّكَ إنَّما

خَرَجْتَ إلى الدُّنْيَا وأنتَ مُجَرَّدٌ

وفي صحف موسى عليه السلام : مَنْ أصبحَ حزينًا على
الدُّنيا فكأنَّما أصبحَ ساخطًا على الله ، وَمَنْ كانت الدُّنيا أكبرَ
هَمِّه نَزَعَ خَوْفُ الآخرة من قلبه ، وَمَنْ شكَا مصيبة نزلت به
فكأنَّما شكَا رَبَّهُ ، وَمَنْ لم يُبالِ من أين دخل عليه رزقه لم يُبالِ
اللهُ من أي بابٍ أدخله النَّارَ ، وَمَنْ أتى خطيئة وهو يضحك ،
أدخله النَّار وهو يبكي ، وَمَنْ جعل حاجته إلى آدميٍّ ، جعل
الله حاجته إليه ، فإن شاء قضاها ، وإن شاء لم يقضها .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كانت صحفُ
موسى كلها عبرًا : عَجِبْتُ لِمَنْ أيقن بالنَّار ثم هو
يضحك ، وعَجِبْتُ لِمَنْ أيقن بالموت ثم هو يفرح ، وعَجِبْتُ لِمَنْ
أيقن بالقدر ثم هو ينصبُّ ، وعَجِبْتُ لِمَنْ أيقن بالحساب غداً ثم
لا يعمل ، وعَجِبْتُ لِمَنْ رأى الدُّنيا ، وتقلَّبها بأهلها ثم يطمئنُّ
إليها .

قال الشاعر :

وقد بدا لي فيما قد هدَّيتُ له
أنَّ الحَيَاةَ إلى دارِ البلى سفرٌ
كيف البقاءُ وبابُ الموتِ مُنفتحٌ
وليس يُغلقُ حَتَّى ينفذَ البشرُ

فصل

قال بعض العلماء : ركب الله تعالى الملائكة من عقل بلا شهوة ، وركب البهائم من شهوة بلا عقل ، وركب آدميين من كليهما . فمن غلب عقله شهوته تشبه بالملائكة ، ومن غلبت شهوته عقله تشبه بالبهائم ، فالعاقل كل العاقل من ميز نفسه ، وعرف قدره ، ونظر بعين الحقيقة ، وأمعن الفكرة الصالحة ، وعلم أن جوارحه قد رُكبت فيها جميع الشهوات ، وأن طباعه قد حُببت إليها صنوف اللذات ، فلا يقدر على قسرها ، ولا يتمكن من صرفها وقهرها إلا بالمجاهدة ، وملك الشهوة بخطط التقوى ، وما أشد ، وما أصعب ألا ترى إلى قول النبي صلى الله عليه وسلم : « حُفَّت الجنة بالمكاره ، وحُفَّت النار بالشهوات » .

قال الشاعر :

صَبَرْتُ عَلَى الْأَيَّامِ حَتَّى تَوَلَّيْتُ

وَأَلْزَمْتُ نَفْسِي صَبْرَهَا فَاسْتَمَرَّتْ

وما النَّفْسُ إِلَّا حَيْثُ يُجْعَلُهَا الْفَتَى

فَإِنْ أُطْعِمَتْ تَأَقَّتْ وَإِلَّا تَسَلَّتْ

قال لقمان لابنه : يا بُنَيَّ ! أَوَّلُ مَا أَحْذَرُكَ مِنْ نَفْسِكَ ،
فَإِنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ هَوًى وَشَهْوَةً ، فَإِنْ أُعْطِيَتْهَا شَهْوَتُهَا تَمَادَتْ
وطلبت سواها ، فَإِنَّ الشَّهْوَةَ كَامِنَةٌ فِي الْقَلْبِ كَكُمُونِ النَّارِ فِي
الْحَجَرِ ، إِنْ قُدِحَ أَوْرَى ، وَإِنْ تَرُكْتَ تَوَارَى .

قال أفلاطون : فِي الْإِنْسَانِ أَرْبَعُ طِبَائِعَ : الْعَقْلُ ،
وَالْهَوَى ، وَالشَّهْوَةُ ، وَالْعِفَّةُ . فَالْعَقْلُ يُعَاتِبُ الْهَوَى ، وَالْهَوَى
يُقَاتِلُ الْعَقْلَ ، وَالْعِفَّةُ تُعَاتِبُ الشَّهْوَةَ ، وَالشَّهْوَةُ تُقَاتِلُ الْعِفَّةَ ،
وَالْإِنْسَانُ مُسَلِّطٌ عَلَى مَشِيئَتِهِ ، فَمَنْ عَمِلَ خَيْرًا جُوزِيَ بِهِ ، وَمَنْ
عَمِلَ شَرًّا كُوفِيَ عَلَيْهِ .

وللهُ درُّ القائل :

إِذَا كُنْتَ فِي نِعْمَةٍ فَارْعَهَا

فَإِنَّ الْمَعَاصِيَ تَزِيلُ النِّعَمَ

وَكَمْ قَسْدٍ تَرَدَدْتُ فِي مُهْلَةٍ

وَلَمْ تَرُقْبِ الْمَوْتَ حَسْبَتِي هَجَمَ

قال بعض العلماء : جميع حالات الإنسان راجعة إلى ثلاث منازل : عليا ، ووسطى ، وسفلى ، ذكرها الله عز وجل في كتابه ، وجعلها مراتب لعباده ، فقال عز من قائل : ﴿وكنتم أزواجا ثلاثة ، فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة ، والسابقون السابقون ، أولئك المقربون في جنات نعيم﴾ (الواقعة : ٩-١٠) ثم قص الله تعالى أحوالهم ، وقص مآلهم ، فقال سبحانه : ﴿فأما إن كان من المقربين . فروح وريحان وجنة نعيم ، وأما إن كان من أصحاب اليمين ، فسلام لك من أصحاب اليمين . وأما إن كان من المكذبين الضالين . فنزل من حميم . وتصلية جحيم﴾ (الواقعة : ٨٨-٩٤) وقال تعالى : ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ، ذلك هو الفضل الكبير﴾ (فاطر : ٣٢) .

قال بزرجمهر : اجتهدوا في الخير ، واقتصدوا في المعيشة ، وارضوا من المطعم والملبس بأدناهما ، فإن أشد الناس اجتهدا في الخير ، وأحسنهم اقتصادا في المعيشة سيتمنى أنه كان زاد في العمل ، ونقص في المعيشة . ولا يثبت دين الرجل

على حالٍ واحدة، إمّا في زيادة أو في نقصان . فإن كان غالباً
للشَّيْطان كان زائداً . وإن كان الشَّيْطان غالباً عليه في الشَّهوات
كان ناقصاً .

وقال الأسود بن يزيد : واللّه لأجتهدنَّ في العبادة ، فإن
يكن الأمر عسيراً كما أخاف في الآخرة ، كنت قد اجتهدت
وأخذتُ بالحزم ، وإن يكن يسيراً كما أرجو ، كان عملي
درجات .

فصل

قال بعض العلماء : النَّاسُ فِي الْأَمْرِ وَالنَّوَاهِي أَرْبَعَةٌ
أَصْنَافٌ : صِنْفٌ اسْتَجَابُوا لِلطَّاعَاتِ وَكَفُّوا عَنِ الْمَعَاصِي ، وَهُمْ
أَكْمَلُ النَّاسِ . وَصِنْفٌ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِلطَّاعَاتِ وَلَا كَفُّوا عَنِ
الْمَعَاصِي ، وَهُمْ شَرُّ النَّاسِ . وَصِنْفٌ اسْتَجَابُوا لِلطَّاعَاتِ
وَأَقَامُوا عَلَى الْمَعَاصِي ، فَهُمْ يَسْتَحِقُّونَ عِقَابَ الْمُجْتَرِّئِينَ عَلَى
الْمَعَاصِي . وَصِنْفٌ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لِلطَّاعَاتِ وَكَفُّوا عَنِ الْمَعَاصِي ،
فَهُمْ يَسْتَحِقُّونَ عِقَابَ اللَّاهِي عَنْ دِينِهِ .

وَلِلْإِنْسَانِ فِيمَا كَلَفَ بِهِ مِنَ الْأَعْمَالِ ثَلَاثَةُ أَحْوَالٍ : أَنْ
يَسْتَوْفِيهِ ، وَأَنْ يَزِيدَ فِيهِ ، وَأَنْ يُقْصَرَ فِيهِ .

أَمَّا اسْتِيفَاءُ الْعَمَلِ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا تَقْصِيرٍ فَحَالُ
الْإِعْتِدَالِ ، وَخَيْرُ الْأُمُورِ أَوْسَطُهَا . وَأَمَّا التَّقْصِيرُ فِي الْعَمَلِ
فَعَلَى أَرْبَعَةِ أَحْوَالٍ :

إِحْدَاها : الْعَذْرُ مِنْ مَرِيضٍ وَغَيْرِهِ ، فَيُلْحَقُ صَاحِبُهُ
بِالْعَامِلِينَ لِسُقُوطِ الْمُواخِذَةِ بِمَا دَخَلَ تَحْتَ الْعِجْزِ .

الثانية : الاغترار ورجاء العفو ، والرجاء شاغل عن خوف الله .

الثالثة : أما الاستيفاء فيما يستقبل ، وذلك لا ينتهي إلى غاية . وما أطال عبداً الأمل إلا أساء العمل .

الرابعة : استثقال الاستيفاء كمن يفعل الواجب ، ويُخلُّ بالمسنونات ، فهو مسيء إساءة لا يستوجب بها عقاباً ، لأنَّ أداء الواجب يسقط الواجب للعقاب . والإخلال بالمسنون يمنع من كمال الثواب ، ومن تهاون بالدين هان .

وأما الزيادة في العمل فعلى ثلاثة أقسام :

أحدها : أن تكون الزيادة رياءً . وأفضل الزهد إخفاء الزهد .

الثاني : أن تكون الزيادة اقتداءً بأحد الأمثال ، ولولا اقتداء الناس بالناس في الخير لهلكوا .

الثالث : أن تكون الزيادة ابتداءً يلتمس بها الثواب ، وذلك من أعلى رتب العابدين .

والاقتصاد في الزيادة مع المداومة أحمد من الاستكثار دونه مداومة ، لقوله ﷺ فيما روت عائشة رضي الله عنها :

«أَيُّهَا النَّاسُ اكْلَفُوا مِنَ الْعَمَلِ مَا تَطِيقُونَ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَمِلُ مِنَ الثَّوَابِ حَتَّى تَمَلُّوا مِنَ الْعَمَلِ، وَخَيْرُ الْأَعْمَالِ مَا دِيمَ عَلَيْهِ».

وللأعمال كلها آفتان.

إحداها: الزُّهْدُ، لقوله عليه السَّلام: مَنْ أَشْرَبَ قَلْبَهُ حُبَّ الدُّنْيَا، وَرَكَنَ إِلَيْهَا، التَّاطَ مِنْهَا بِشْغَلٍ لَا يَبْلُغُ عَنْهُ، وَبِأَمَلٍ لَا يَبْلُغُ مُنْتَهَاهُ:

الثَّانِيَّةُ: تَوْطِينُ النَّفْسِ عَلَى ذَهَابِ مَا فِي الْيَدِ، وَبَقَاءِ حِسَابِهِ. قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَا تَزُولُ قَدَمَا ابْنِ آدَمَ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ ثَلَاثٍ: شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ، وَعَمْرُهُ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَمَالُهُ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ، وَفِيمَا أَنْفَقَهُ».

الثَّالِثَةُ: قَصْرُ الْأَمَلِ، سَأَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْ أَكْبَسُ النَّاسُ؟ قَالَ: «أَكْثَرُهُمْ ذِكْرًا لِلْمَوْتِ، وَأَشَدَّهُمْ اسْتِعْدَادًا لَهُ. أَوْلَئِكَ الْأَكْيَاسُ ذَهَبُوا بِشَرَفِ الدُّنْيَا، وَكَرَامَةِ الْآخِرَةِ».

النَّاسُ فِي الْخَيْرِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَنْحَاءٍ: مِنْهُمْ مَنْ يَفْعَلُهُ ابْتِدَاءً، وَهُوَ الْكَرِيمُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَفْعَلُهُ اقْتِدَاءً، وَهُوَ الْحَكِيمُ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَتْرَكُهُ اسْتِجْمَامًا، وَهُوَ الرَّدِيُّ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَتْرَكُهُ حَرْمَانًا، وَهُوَ الشَّقِيُّ.

وليس الزُّهْدُ في الدُّنْيَا بإهمال النَّفْسِ ، وإضعاف
الجسم ، وإدخال الضرر بتقتير العيش ، والتَّعَرُّضُ للمعاطب ،
والتَّصَدِّي إلى المهالك . فإنَّ استعمال ما تصحُّ به القوى ،
ويعين على الطَّاعة ، والتَّصرف في جميع أعمال البرِّ صلاحٌ
بينٌ وواجبٌ مُتَعَيَّنٌ ، كما أنَّ الزِّيَادَةَ على قدر الحاجة ممنوعة في
الشَّرْعِ ، والعقل يمنع منهما جميعاً .

فصل

كان عبد الله بن المبارك يقول : الرَّجَاءُ يُورِثُ الشُّوقَ ،
وَالشُّوقُ يُورِثُ الْجَهْدَ ، وَالْجَهْدُ يُورِثُ الْفِكْرَ فِي النِّعَمِ ،
وَالْفِكْرُ فِي النِّعَمِ يُورِثُ الشُّكْرَ ، وَالشُّكْرُ يُوجِبُ مَعْرِفَةَ الْمُنَّةِ ،
وَمَعْرِفَةُ الْمُنَّةِ تُورِثُ مَحَبَّةَ اللَّهِ ، وَمَحَبَّةُ اللَّهِ تُورِثُ الزُّهْدَ فِي
الدُّنْيَا ، وَالزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا يُورِثُ الرَّغْبَةَ فِي الْآخِرَةِ ، وَالرَّغْبَةُ فِي
الْآخِرَةِ تُورِثُ الْإِشْتَغَالَ بِالطَّاعَةِ ، وَالْإِشْتَغَالَ بِالطَّاعَةِ يُورِثُ
النَّعِيمَ الدَّائِمَ .

قيل : إِنَّ سَبَبَ تَوْبَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُبَارَكِ وَزُهْدَهُ ، أَنَّهُ كَانَ
مِنْ أَصْنَعِ النَّاسِ فِي الْأَلْحَانِ ، وَضَرَبَ الْعُودَ ، فَبَيْنَمَا هُوَ يَغْنِي
ذَاتَ يَوْمٍ :

أَلَمْ يَأْنِ لِي مِنْكَ أَنْ تَرْحُمَا

وَتَعْصِي الْعَوَازِلَ وَاللُّؤْمَا

وترثي لصبِّ بكم مُغـرم

أقام لهـجرانكم مآتما

إذ سمع من جوف العود هاتفاً يقول : ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ
آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾ (الحديد : ١٦) ، فكسر
العود ، وساح في البرية .

وقيل لبعض العلماء : ما علامة الإيمان؟ قال : حُسن
الخلائق ، واتباع الحقائق ، وبذل المرافق ، وحفظ العهود
والمواثيق ، والتَّسليم للقدر السَّابق . قيل : فما علامة النُّفاق؟
قال : نقضُ العهد ، وخُلْفُ الوعد ، ومنع الرُّفد ، والكذب في
الهزل والجدِّ . قيل : ففيم النِّجاة؟ قال : عمل مبرور ، وقلب
صبور ، ولسان شكور ، وإدخال سرور ، والرضا بالمقدور .
قيل : ففيم الهلكة؟ قال : كثرة الفجور ، واقتحام الشرور ،
ومطاوعة الغرور ، وعصيان الغفور .

وقيل لبقرات : ما أقرب الأشياء؟ قال : الأجل . قيل :
فما أبعدها؟ قال : الأمل . قيل : فما أنفَسُها؟ قال : الصَّاحِبُ
المُواتي ، قال : فما أَوْحَشُها؟ قال : الموت . قيل : فما أحمَدُها
عاقبة؟ قال : الصَّبْر . قيل : فما أذمُّها عاقبة؟ قال : المعاصي .

قالت هند : الطّاعة مقرونة بالمحبّة ، فالمطيع محبوب وإن
نأت داره وقلّت آثاره ، والمعصية مقرونة بالبغضة ، فالعاصي
مبغوض وإن مسّك رحمه ، ونالك معزوفه .

قال الشّاعر :

أراك أمراً ترجو من الله عفوهُ
وأنتَ على ما لا يُحبُّ مُقيمُ
فحتّى متى تعصي وتهفو إلى متى

تبارك ربّي إنّهُ لرحيمُ

قال بعض الحكماء : التّسويّف لمن يعلم أنّ المنيّة تأتيه
بغتة غرور ، وتركُ مجالسة الحكماء حُقم ، وطلب الحاجة من
غير الله ذلّ ، وقلةُ معرفة الإنسان بعيوب نفسه أكبر ذنوبه .

روي أنّ ناساً مدحوا أبا بكر الصّدّيق - رضي الله عنه -
فقال : الله أعلم بي من نفسي ، وأنا أعلم بنفسي منكم ،
فأستغفر الله ممّا لا تعلمون ، وأسأله ألا يؤاخذني بما تقولون .

قالت عائشة رضي الله عنها : يا رسولَ الله ، متى يعرف
الإنسان ربّه ؟ قال : « إذا عرف نفسه » .

أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام : عظ نفسك ،
فإن اتعظتَ فعظِ النَّاسَ ، وإلا فاستحي مني .
قال الشاعر :

ابدأ بنفسك وانهاها عن غيرها
فإذا انتهت عنه فأنت حكيمٌ
فهناك تُعذرُ إن وعظتَ ويُقتدى
بالقول منك وينفع التعليمُ
لا تنه عن خلقٍ ، وتأتي مثلهُ
عارٌ عليك إذا فعلت عظيمُ
قال بعضهم : السنون مراحل ، والأنفاسُ خطوات ،
والطاعات رؤوس الأموال ، والمعاصي قُطَاعُ الطَّرِيقِ ، والربحُ
الجنةُ ، والخسرانُ النارُ .

حكى عن بعض الأسيّاخ أنّه رأى الله تعالى في النّوم ،
فقال له : يا عبدي بِمَ جئتني ؟ فقال : يا ربّ جئتك بما ليس في
خزائنك ، فقال : ما هو ؟ قال : الذُّلُّ والانكسار . فقيل له :
نعم الزَّادُ زادك ، فقد رحمتك .

فصل

عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحبَّ أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله، ومن أحبَّ أن يكون أكرم الناس فليتق الله، ومن أحبَّ أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق منه بما في يديه، ألا أنبئكم بشراركم؟ قالوا: نعم يا رسول الله، قال من نزل وحده ومنع رفقاه، وجلد عبده، أفأنبئكم بشر من هذا؟ قالوا: نعم. قال: من لا يقبل عشرة، ولا يقبل معذرة، ولا يغفر ذنباً. أفأنبئكم بشر من هذا؟ قالوا: نعم. قال: من لا يرجي خيره، ولا يؤمن شره».

قال عبد الله بن مسعود: إنَّ أصدق الحديث كتاب الله، وأوثق العرى كلمة التقوى، وخير المثل ملّة إبراهيم، وأحسن السنن سنة المصطفى ﷺ، وخير الهدى هدى الأنبياء، وأصدق الحديث ذكر الله، وخير القصص القرآن، وخير الأمور

عواقبها، وشرّ الأمور مُحدثاتها، وشرُّ المعذرة حين يحضر الموت، وشرُّ الندامة ندامة القيامة، وشرُّ الضلالة بعد الهدى، وخير الغنى غنى النفس، وخير الزَّاد التقوى، وخير ما ألقى في القلب اليقين، وشرُّ العمى عمى القلب، والريب من الفكر، والخمر جماع الإثم، والنساء حباله الشيطان، والشباب شعبة من الجنون، والنَّوح من عمل الجاهلية، وأعظم الخطايا الكذب، وسُبَاب المؤمن فسوق، وقتاله كفر، وحرمة ماله كحرمة دمه، ومن يَعْفُ يُعْفُ اللَّهُ عنه، ومن يكظم الغيظ يَأْجِرْهُ اللَّهُ، ومن يغفر يغفر الله له، ومن يصبر على الرِّزْيَةِ يعقبه الله خيراً، وشرُّ المكاسب كسب الرِّبَا، وشرُّ المآكل مال اليتيم، والسَّعِيد من وُعِظَ بغيره، والشَّقِيُّ من شقي في بطن أمه، وإنَّما يكفي أحدكم ما يقيم به نفسه، وإنَّما يصير إلى أربعة أذرع، والأمر إلى آخره، وملاك العمل خواتيمه، وأشرف الموت قتل الشهداء، ومن يستكبر يضعه الله، ومن يُطْعِ الشَّيْطَانَ يَعْصِ اللَّهَ، ومن يَعْصِ اللَّهَ يُعَذِّبُهُ، ومن عَرَفَ الدُّنْيَا يَفْرُغْ عَنْهَا، وما قلَّ وكفى خير مما كثر وألهى.

قال عبد الواحد بن زيد : جالسوا أهل العلم والدين ،
فإن لم تقدروا عليهم فجالسوا أهل المروءات من أهل الدنيا ،

فإنهم لا يرفثون في مجالسهم ، فمجالسة أهل العلم تنتج ذكاء
القلوب ، ومجالسة أهل الدين تجلو عن القلوب صدأ الذنوب ،
ومجالسة ذوي المروءة تدلُّ على مكارم الأخلاق .

أتى رجل إلى ربيعة الرأي ، فشكا إليه صعوبة دهره
وتصرفه ، فقال ربيعة : اكتب :

أليس الزَّمانُ كما قد علمتُ

فمالك تحزنُ من صرْفِه

وعندك عِلْمٌ به ثاقبٌ

وعينٌ تدلُّ على وُصْفِه

وأَيَّامُه دولٌ والنُّفوسُ

رهونُ الحسَواتِ من حَشْفِه

فأينَ المُعافَى من النَّائباتِ

ومنَ صَحْبِ الدَّهرِ لم يعفِه

ومنَ صَحْبِ الدَّهرِ لا قىَ الَّذي

ينالُ على الرِّغمِ من أنْفِسِه

فَكُنْ حَازِمَ الرَّأْيِ وَاصْبِرْ لَهُ
فَلِلْحُرِّ صَبْرٌ عَلَى صَرْفِهِ
وَلَا تَخْضَعَنَّ إِلَى سَاقِطٍ
وَلَوْ كَانَتْ الْأَرْضُ فِي كَفِّهِ
وَصُنْ حُرًّا وَجْهَكَ عَنْ بَذْلِهِ
بِتَلْمِيسِكَ الثُّرْبِ أَوْ سَفِّهِ
فَإِنَّ اللَّئِيمَ إِنْ خِلْتَهُ
كَرِيمًا يَذُودُكَ عَنْ عُسْرِهِ
وَيَرْجِعُ مَحْصُولَ أَخْلَاقِهِ
إِلَى أَصْلِهِ وَإِلَى صَنْفِيهِ
فَلَا تَسْأَلِ النَّاسَ مَا يَمْلِكُونَ
وَلَكِنْ سَلِ اللَّهَ وَاسْتَكَفِهِ
فَكُلُّ مُسْئِلٍ وَذِي ثَرْوَةٍ
فَإِنَّ الْمَنِيَّةَ مِنْ خَلْفِهِ
وَمَنْ يُقْضَ رِزْقُ لَهُ يُبَاتِهِ
بِكُلِّ مَكَانٍ وَيَسْتَوْفِيهِ

ولو جهد الناس لم يقدرُوا

على دفع ذاك ولا صرفه

قال سفيان الثوري: دخلتُ على جعفر الصادق، رضي الله عنه، فقلت له: يا بن رسول الله، مالي أراك سكنت دارك، ولا تخالط الناس؟ فقال: نعم يا بن سعيد، إن في العزلة دعة، وفي الدعة القناعة، وما قُدِّرَ لك يأتيك، يا سفيان فسد الزمان، وتغير الإخوان، فرأيت الانفراد أسكن للفؤاد.

قال بعضهم: ولفساد الزمان، وقلة من يسكن إلى مودته، ويؤمن من خلته، أثر أهل الفضل مجالسة الكتب، وجعلوها عوضاً مما فاتهم من مجالسة الأصحاب، ووصفوها، ووصفوا نفوسهم بالإقبال عليها. ومن ذلك قول الشاعر:

لم يبقَ شيءٌ من الدُّنيا تُسرُّ به

إلا الدَّفَائرُ فيها الشُّعْرُ والسَّمرُ

مات الذين لهم فضلٌ ومكرمةٌ

وفي الدَّفَائرِ من إحسانهم أثرُ

قال بعض الحكماء : العُزلة عن النَّاسِ تَصُونُ العَرِضَ ،
وتستر الفاقة ^(١) ، وتبعث على السَّلامة ، وترفع مؤونة المكافأة
في الحقوق اللازمة ، وتورث الرَّاحة ، وتُبقي حُسْنَ الذِّكْرِ ،
وتقصر الأمل ، وتؤمن من الملل ، وتولد الفكرة في الآخرة .

قال الشَّاعر :

الحمد لله لا شريك له
في صُبْحِهِ دائماً وفي غَلَسِهِ ^(٢)
لم يبق لي مؤنسٌ فيؤنسني
إلا أنيسٌ أخاف من أنسه
فاعتزل النَّاسَ ما استطعت ولا
تركن إلى مَنْ يخاف من دنسه
والمرءُ يرجو ما ليس يدركه
والموتُ أدنى إليه من نفسه

(١) الفاقة : الفقر والحاجة .

(٢) الغَلَسُ : ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصُّباح .

فصل

عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له :
«يا غلام، ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن؟ احفظ الله
يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرّف إلى الله في الرّخاء
يعرفك في الشدّة. إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت
فاستعن بالله، جفّ القلم بما هو كائن، فلو اجتمع على أن
يُعطوك شيئاً لم يكتبه الله لك، لم يقدروا عليه، أو على أن
يمنعوك شيئاً كتبه الله لك، لم يقدروا عليه، فاعمل لله بالرضا
في اليقين. واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً، وأنّ
النّصر مع الصّبر، وأنّ الفرج مع الكرب، وأنّ مع العسر
يسراً».

وروي عن أبي الدرداء أنّه قال لرسول الله ﷺ :
أوصني. قال له : «اكتسب طيباً، واعمل صالحاً، وسلّ الله
رزق يوم فيوم، واعدد نفسك من الموتى».

وقال رجل لرسول الله ﷺ : أوصني . قال له : « اتَّقِ اللَّهَ حيث كنت » . قال : زدني . قال : « أتبع السيئة الحسنة » . قال : زدني . قال : « خالط الناس بخلق حسن » .

ودخل رجل على عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، فقال له : أوصني . قال له : أوصيك بثلاث : أن تحفظ آلاء^(١) الله عليك في كلِّ حالة كنت ، وأن تذكر اطلاع الله عليك في كلِّ حالة كنت ، وأن تذكر الموت ودخول القبر على أي حالة كنت .

ودخل أبو جعفر محمد بن الحسين بن علي ، رضي الله عنهم ، على عمر بن عبد العزيز ، رضي الله عنه ، وقد ولّاه ، فقال له أبو جعفر : أوصني ، فقال له : أوصيك بثلاث : أن تتخذ صغير المسلمين ولداً ، وأوسطهم أخاً ، وأكبرهم أباً ، فأرحم ولدك ، وصل أخاك ، وپر والدك ، وإذا صنعت معروفاً فربّه .

وقال أبو جعفر المذكور : أدبني أبي بثلاث خصال ، ونهاني عن ثلاث ، قيل له : وما هن يا بن رسول الله ؟ فقال :

(١) آلاء الله : نعمه .

من يصحب صاحب السوء لا يسلم، ومن يدخل مداخل
السوء يتهم، ومن لا يملك لسانه يندم، ثم أنشد:
عَوْدُ لِسَانِكَ قَوْلُ الْخَيْرِ تَحْفَظُ بِهِ
إِنَّ اللِّسَانَ لَمَّا عَوَّدْتَ مُعْتَادُ
مُوكَّلٌ بِتَقَاضِي مَا سَنَنْتَ لَهُ
فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فَاَنْظُرْ كَيْفَ تَرْتَادُ
قِيلَ لَهُ: صدق، رضي الله عنه، فما الذي نهاك عنهن؟
فَقَالَ: لَا تُعَاشِرْ حَاسِدَ نِعْمَةٍ، أَوْ شَامِتًا بِمَصِيبَةٍ، أَوْ حَامِلًا
لِنَمِيمَةٍ. وَأَنْشَدَنِي فِي ذَلِكَ:
يَمُوتُ الْفَتَى مِنْ عَشْرَةِ بِلْسَانِهِ
وَلَيْسَ يَمُوتُ مِنْ عَشْرَةِ الرَّجُلِ
فَعَشْرَتُهُ مِنْ فِيهِ تَرْمِي بِرَأْسِهِ
وَعَشْرَتُهُ بِالرَّجْلِ تَبْرَأُ عَلَى مَهْلٍ
وَعَنْ عَمْرِ بْنِ عَتَبَةَ قَالَ: قَالَ لَنَا أَبُو نَاعْتَبَةَ: يَا بَنِيَّ، إِنَّكُمْ
صَغَارَ قَوْمٍ لَا يُحْتَاجُ إِلَيْكُمْ، وَيُوشِكُ أَنْ تَكُونُوا كِبَارَ قَوْمٍ
آخَرِينَ لَا يُسْتَغْنَى عَنْكُمْ، فَعَلَيْكُمْ بِالْعِلْمِ وَالدِّينِ تَنْتَظِمَ لَكُمْ

الدُّنْيَا، واجعلوا أموالكم واقيةً لأديانكم يكن الله جارا لكم،
فإنَّ الموت في طاعة الله حياة، والفقر في رضوانه غنى،
واذكروا ما خلقتكم له، وخلق لكم، فإنه لا ينساكم من وكل
بكم، وإياكم والعقوق فإنه يثمر العقوبة.

وأوصى بعض الحكماء ابنه فقال: يا بُنيَّ، إنَّك لن تنال
ما تُحبُّ حتَّى تصبر على كثير ممَّا تكره، ولن تنجو ممَّا تكره
حتَّى تصبر على كثير ممَّا تحبُّ. وقليل من الذُّلِّ يدفع كثيرا من
الهوان.

وأوصى آخر ابنه فقال: يا بُنيَّ، نزّه نفسك وسمّعتك عن
استماع الخنا كما تُنزّه لسانك عن القول بالخنا، فإنَّ السَّميع
شريك القائل، وإنَّما نظر إلى شرِّ ما في وعائه، فأفرغه في
وعائك، ولو ردَّت كلمة حاسد، وناطق بالأذى في فيه لَسعدَ
رادُّها كما شقي قائلها.

وأوصى آخر ابنه، فقال: يا بُنيَّ إذا كنت في نادي قوم
فحدِّث القوم ما حاذوك بأذانهم، ولحظوك بأبصارهم، فإذا
وجدت فترةً منهم فأمسك، وكفَّ عن الشَّتْم فإنه أسلمٌ
للأعراض، ومن سبَّ سبًّا. وأحسن جوارك يحسن ثناؤك،

وامنع ضيم الغريب من القريب، وإذا حدثت فَع، وإذا حدثت فأوجز، فإنَّ مع الإكثار يكون الإهذار^(١)، ولا خير فيمن لا روية له مع الغضب، ولا فيمن إذا عوتب لم يعتب.

وقال أبان بن ثعلب شهدت أعرابية وهي توصي ابنها، وقد أراد سفرًا، وهي تقول له: يا بُنيّ، اجلس حتى أوصيك، وبالله توفيقك، إنَّ الوصية أجدى عليك من كثير عقلك. قال أبان: فوقفت أسمع كلامها، فإذا هي تقول يا بُنيّ، إياك والنميمة فإنَّها تزرع الضغينة، وتُفَرِّق بين المحبين، وإياك والتعرُّض للعيوب فتتخذ غرضًا^(٢)، وخليق ألا يثبت الغرض على كثرة السُّهام من النَّاس، وقلما اعتورت السُّهام غرضًا إلا كَلَمْتَهُ حتى يَهِنَ ما اشتدَّ من قُوَّتِهِ، وإياك والجود بدينك، والبُخل بمالك، وإذا هزرتَ فاهزُرْ كَرِيمًا يَلَنُ لهزَّتَكَ، ولا تهزُرْ لثيماً فإنَّه صخرة لا ينفجر ماؤها، ومثل لنفسك مثال ما استحسنتَ من غيرك فاعمل به، وما استقبحتَ من غيرك فاجتنبه، فإنَّ المرء لا يدري عيب نفسه، ومن كانت مودته

(١) الإهذار: الإكثار من الهذيان.

(٢) الغرض: الهدف الذي ينصب فيرمي إليه.

لا يصدقها فعله^١ كان صديقه منه على مثل الرّيح في تصرفها .
واعلم يا بُنيَّ أَنَّ الغدر أقبحُ ما تعامل به النَّاس بينهم . ومن
جمع العلم والسَّخاء فقد أجاد الحلة ريطتها وسربالها^(١) .

وأوصى رجل صديقاً له ، فقال : أثر بعملك معادك ،
ولا تدع لشهوتك رشادك ، وليكن عقلك وزيرك الَّذي يدعوك
إلى الهدى ، ويعصمك من الرّدى ، أجم هواك عن الفواحش ،
وأطلقه في المكارم ، فإنَّكم تبرّ بذلك سلفك ، وتشيد به
شرفك .

وقال بعض العلماء وصية : لا يحملنَّك ما ترى من إقبال
النُّعمة على الجاهل على الرُّهبة في الجهل ، ولا إدبارها عن
العالم رغبة عن العلم ، فإنَّ إقبالها على الجاهل اتِّفاق ، وإقبالها
على العالم استحقاق ، وليس مستحقُّ النُّعمة ومستوجبها
كحاملها بغير استحقاق .

وقال بعض الصّالحين لابنه : يا بُنيَّ ، نفسك مسترھنة
بأعمالك ، والأيام مُقرّبة لآجالك ، فاشتر نفسك ما دامت

(١) الرّبطة : الملاءة كلها نسج واحد وقطعة واحدة ، والسُّربال : ما يلبس من
قميص .

السُّوقَ قَائِمَةً، وَالثَّمَنَ مَوْجُودًا، وَالرَّبْحَ مَضْمُونًا، وَلَا تُسَوِّفُهَا
لَوْ قَتَ تَكُونُ السُّوقَ فِيهِ كَاسِدَةً، وَالْأَمَالَ مَنَقُطَعَةً مَتَبَاعِدَةً،
وَلَا سَبِيلَ إِلَى اسْتِدْرَاكِهَا، وَقَدْ حِيلَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الثَّمَنِ، وَهُوَ
الْعَمَلُ، وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ الْقَائِلِ :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَزْرَعْ وَأَبْصُرْتَ حَاصِدًا

نَدِمْتَ عَلَى التَّفْرِيطِ فِي زَمَنِ الْبَذْرِ

فَالنَّجَاةَ النَّجَاةَ قَبْلَ حُلُولِ الْوَفَاةِ، وَالْعَجَلَ الْعَجَلَ قَبْلَ
هَجُومِ الْأَجْلِ، فَالْوَيْلَ كُلَّ الْوَيْلِ لِمَنْ فَرَّطَ حَتَّى تَوَرَّطَ، وَأَثَرَ
الْإِهْمَالِ حَتَّى صَارَ فِي حَيْزِ الْإِهْمَالِ، ثُمَّ هَجَمَ عَلَيْهِ مَفْرَقُ
الْأَحْبَابِ، فَحَيْثُ تَنْقَطِعُ بِهِ الْأَسْبَابُ، وَيُسَدُّ دُونَهُ طَرِيقُ
الْإِيَابِ، وَيَنْدَمُ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ النَّدَمُ، حِينَ تَأْخُرُ وَلَمْ يَتَقَدَّمْ،
وَانْظُرْ إِلَى قَوْلِ بَعْضِ الشُّعْرَاءِ :

قُلْتُ لِلنَّفْسِ إِنْ أَرَدْتَ رُجُوعًا

فَارْجِعِي قَبْلَ أَنْ يُسَدَّ الطَّرِيقُ

قَالَ لَقِمَانُ لَابْنَهُ : يَا بُنَيَّ جَالِسْ قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ
بَطَاعَتَهُ، فَإِنْ كُنْتَ عَالِمًا نَفَعَكَ عِلْمُكَ، وَإِنْ كُنْتَ جَاهِلًا
عَلَّمَوكَ، وَإِنْ نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ رَحْمَةٌ أَوْ رَزَقَ كَانَ لَكَ فِيهِ مَعَهُمُ

حَظٌّ . وَلَا تَجَالِسُ قَوْمًا لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ ، فَإِنْ كُنْتَ عَالِمًا نَفْعَكَ
عِلْمُكَ . ، وَإِنْ كُنْتَ جَاهِلًا زَادَكَ جَهْلًا ، وَإِنْ نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ
أَوْ سَخَطُ شَارِكْتِهِمْ فِيهِ .

وقال بعض الحكماء لصاحب له : ارض بالقضاء ،
واصحب الدنيا على علاقتها ، فإنك لا ترى إلا أحد رجلين :
متقدمًا آخره حظه ، أو متأخرًا قدمه حظه ، فإن لم ترض بالحال
التي أنت فيها وإن كانت دون أملاك واستحقاقك اختيارًا ، وإلا
رضيت بها اضطرارًا . قال الشاعر :

اصبر على القدر المحتوم وارض به

وإن أتاك بما لا تشتهي القدر

وقال آخر لصاحب له : إياك أن تدنس عرضك
بالمعاصي ، فإن الماء لا يغسله ، ولا تستغفر لذنبك إلا ربك ،
فإن سواه لا يغفره ، وأخلص لله عمالك لعله سيقبله . وفي
مثل هذا يقول الشاعر :

الماء يغسل ما بالجسم من دنس

وليس يغسل قلب المذنب الماء

قال بعض العلماء : إذا ابتليت فثِق بالله ولا تجزع ، وإذا عوفيت فاشكر الله ولا تقطع . وإذا وقف بك أمر فلا تيأس ولا تطمع ، وفوض أمرك إلى الله فنعم الملجأ ونعم المرجع ، فإذا فعلت فقد فزت بخير الدارين أجمع .

قال الشاعر :

إذا ابتليت فثِق بالله وارض به
إنَّ الذي يكشفُ البلوى هو الله
إذا قضى الله فاستسلم لقدرته
ما لا مرىء حيلة فيما مضى الله
اليأس يُقطع أحياناً بصاحبه
لا تيأسنَّ فنعم القادرُ الله

وقال بعض العلماء لابنه : يا بُنَيَّ ، إِيَّاكَ والجزع على ما فات ، والطَّمع فيما لا يُرجى ، وما اشتدَّ خطبُ إلا وأعقبه فرَج ، ولا انسُدَّ بابٌ إلا سوف ينفرج ، فإنَّ الله - عزَّ وجلَّ - قد جعل مع العسر يسرين ، وجعل في الصبر خير الدارين ، وما زال مع الصبر الظفر والأُنس . ومع الجزع الكدرُ واليأس ،

فاختر لنفسك ما يُدْنِيكَ إِلَى اللَّهِ وَيُقَرِّبُكَ، واطرح عنها
ما يحزنك ويُكَرِّبُكَ . قال الشاعر :

لا تَجْزَعَنَّ إِنْ مَضَتْ لِلخَطْبِ أَيَّامٌ

فَرَبَّمَا سَاعَدْتَ لِلسَّعْدِ أَعْوَامٌ

وإن تعرضَ عُسْرٌ فانتظرَ فرجاً

صرف الليالي كذا بؤس وإنعامٌ

وقالت أعرابية لابنها : يا بُنَيَّ ، عليك بحسن الخلق ،

وجميل العشرة ، ولطف الموافقة ، ولين الجانب ، والاحتمال

للصاحب ، وكف الأذى ، والمقاسمة في العزاء ، فإنك تستميل

القلوب ، وتنال كلَّ مرغوب ، ويحفظك علام الغيوب .

وأوصى طاوس رجلاً فقال له : إنني أجمع لك العلم كله

في ثلاث كلمات : خف الله حتى لا يكون أحد أخوف لك

منه ، وارج الله حتى لا يكون أحد أرجى عندك منه ، وأحب

الله حتى لا يكون أحد أحب إليك منه ، فإذا فعلت ذلك فقد

علمت علم الأولين والآخرين .

وقال بعضهم : أكثر من مخالطة أهل الأدب ، فإنَّ

صلاح الأخلاق وفسادها كثيراً ما يكون ذلك على قدر أخلاق

الَّذِينَ تَطِيلُ صَحْبَتُهُمْ، وَتَوَاطِبُ عَلَى مَعَاشَرَتِهِمْ، وَكَثِيرًا
مَا يُفْسِدُ الطَّبَعَ الْحَسَنَ مَعَاشِرَةَ أَهْلِ الْجَهْلِ وَالرَّيْبِ، فَاَنْظُرْ مِنْ
تَصْحَبِهِ، فَإِنَّكَ مُوسِمٌ بِسَيِّئًا مَنْ صَحِبْتَ، فَتَحْفَظُ مِنْ دُخْلَاءِ
السُّوءِ، وَأَظْهَرُ مَجَانِبَةِ أَهْلِ الرَّيْبِ، وَإِذَا نَظَرْتَ فَيَمْنَنَ تَرْتَادُ
لِإِخَائِكَ، فَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الدِّينِ فَلْيَكُنْ فَقِيهًا غَيْرَ مُرَاءٍ
وَلَا حَرِيصٍ، وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِ الدُّنْيَا، فَلْيَكُنْ حَيًّا غَيْرَ
جَاهِلٍ، وَلَا كَذَّابٍ، وَلَا شَرِيرٍ، فَإِنَّ الْجَاهِلَ أَهْلٌ أَنْ يَفْرَّ عَنْهُ
أَبْوَاهُ، وَإِنَّ الْكَذَّابَ لَا يَصْدُقُ فِي مَسْودَّتِهِ، وَإِنَّ الشَّرِيرَ إِنْ
سَلِمْتَ مِنْ شَرِّهِ أَكْسَبَكَ شَرًّا غَيْرَهُ.

فصل

من المنقول من تأليفنا «تذكرة من اتقى»

قال لقمان الحكيم لابنه : يا بُنيَّ، لا تركزن إلى الدُّنيا،
ولا تشغل قلبك بِحُبِّها، فإنَّك لم تُخلق لها . وما خلق الله
خلقاً أهونَ عليه منها، لأنَّه لم يجعل نعيمها ثواباً للمطيعين،
ولا عقوبة للعاصين، يا بُنيَّ، إنَّ الدُّنيا بحرٌ عريض قد هلك فيه
بشر كثير، فإن استطعت أن تجعل سفيتك الإيمان بالله،
وعدَّتكَ التَّوَكُّلُ على الله، وزادك التَّقوى، فإن نجوتَ فبرحمة
الله، وإن هلكت فبذنوبك . يا بُنيَّ، لا تضحك من غير
عجب، ولا تمش في غير أرب، ولا تسأل عما لا يعينك،
يا بُنيَّ، لا تضيع مالك، ولا تُصلح مال غيرك، فإنَّ مالكَ
ما قدِّمت، ومال غيرك ما تركت . يا بُنيَّ، إنَّ من يرحم يرحم،
ومن يصمت يسلم، ومن يقل الخير يغنم، ومن لا يملك
لسانه يندم .

وأوصى رجل من الحكماء بنيه، فقال: يا بني، إياكم والجزع عند المصائب، فإنه مجلبة للهم، وسوء ظنُّ بالرَّبِّ، وشماتة للعدوِّ، وإياكم أن تكونوا بالأحداث مُغترِّين، ولها آمين، فإنِّي واللَّه ما سخرت من شيءٍ إلا أنزل بي مثله، فاحذروها وتوقعوها، فإنَّما الإنسان في الدُّنيا غرضٌ تتعاوره السُّهُم، فمُجاوز له، ومُقصر عنه، وموقع عن يمينه وشماله حتَّى يصيبه بعضها واعلموا أنَّ لكلِّ شيءٍ جزاءً، ولكلِّ عملٍ ثواباً. وقد قالوا: كما تدين تُدان، ومن يربِّ يوماً برَّ به.

وأوصى عمر بن الخطَّاب - رضي الله عنه - ابنه عبد الله، فقال: يا بُنَيَّ اتَّقِ اللَّهَ فَإِنَّ مَنْ اتَّقَى اللَّهَ وَقَاهُ، وَمَنْ اتَّكَلَ عَلَيْهِ كَفَاهُ، وَمَنْ شَكَرَ اللَّهَ زَادَهُ، وَمَنْ أَقْرَضَهُ جَزَاهُ، فَاجْعَلِ التَّقْوَى عِمَادَ قَلْبِكَ، وَجَلَاءَ بَصْرِكَ، فَإِنَّهُ لَا عَمَلَ لِمَنْ لَا نِيَّةَ لَهُ، وَلَا خَيْرَ لِمَنْ لَا خَشْيَةَ لَهُ.

وأوصى عبد الملك بن مروان بنيه، فقال: يا بني كُفُّوا أذاكم، وابذلوا معروفيكم، واعفوا إذا قدرتم، ولا تبخلوا إذا سُئِلْتُمْ، ولا تُلَحِّفُوا إذا سألتم، فإنه من ضَيَّقَ ضَيِّقَ عَلَيْهِ، ومن أعطى أخلف الله له.

وأوصى عليُّ بن أبي طالب للحسن والحسين - رضي الله عنهم - فقال : تنافسوا في المعالي ، وسارعوا إلى المكارم ، واكتسبوا الحمد بالجود ، ولا تكتسبوا بالبخل ذمًّا ، ولا تعدوا معروفًا لم تعجلوه ، ومهما تكن لأحدكم عند أحد نعمة لم يبلغ شكرها ، فالله أحسن لردّها أجرًا ، وأجزل عليها حظًّا ، واعلموا أن أفضل المال ما أكسبَ حمدًا وأعقب أجرًا ، وقد سمعت رسول الله ، ﷺ ، يقول : « ما عظمت نعمة الله تعالى عند أحد إلا كثرت حوائج الناس إليه ، فمن ملّ تلك الحوائج ، فقد عرض تلك النعمة إلى الزوال .

قال ابن العربي : قلت لبعض أشياخي : أوصني ، فقال : اقطع علائق الدنيا عنك إلا ما لا غنى لك عنه ، وتأهب لأمرٍ لا بدّ لك من المصير إليه ، واعرف الحقّ لغيرك يعرفه لك ، ولا يقف بك التّحير عن أمرين إلا أخذت أقربهما إلى التّقوى .

فصل

من المنقول من تأليفنا «مقالات الأدباء»

قال بزرجمهر لابنه : يا بُنيَّ، كن من الكريم على حذر
إن أهنته، ومن اللئيم إن أكرمته، ومن الفاجر إن عاشرته،
ومن الأحقق إن مازحته، ومن العاقل إن أخرجته، وكن حذراً
كأنك غرٌّ، وكن فطناً كأنك غافل، وكن ذاكراً كأنك ناسٍ.

قال بعض الحكماء في وصية : لا تطلب من صاحبك
خلقاً واحداً وهو ذو طبائع أربع، فإن في تكليف هذا خروجا
من العدل، ألا ترى أن الله سبحانه شوق الجنة إلى خلقه
بضروب متفاوتة، وأشياء متباينة، فقال عز وجل : ﴿فِيهَا
أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ، وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ،
وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ، وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾
(محمد: ١٥). وقال : ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَانٌ﴾

(الرحمن : ٦٨). وقال : ﴿وَحُورٌ عَيْنٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾
(الواقعة : ٢٢-٢٣). فوصف جل ثناؤه ضروباً مختلفة مما فيها
ليميل كل فريق لما اشتهى منها .

وقال بعض الحكماء في وصية : إذا أعجبك ما تواصفه
الناس من محاسنك ، فانظر فيما بطن من مساويك ، ولتكن
معرفتكَ بنفسِكَ أوثقَ عندكَ من مدح الناسِ لك .

وأوصى أزدشير لابنه فقال : يا بُنَيَّ إِنَّ الْمُلْكَ وَالْعَدْلَ
أَخَوَانٌ ، لَا عَيْنِي لأحدهما عن صاحبه ، فالْمُلْكُ أُسٌّ وَالْعَدْلُ
حَارِسٌ ، فما لم يكن له أُسٌّ فمهدومٌ ، وما لم يكن له حَارِسٌ
فَضَائِعٌ ، يا بُنَيَّ اجْعَلْ حَدِيثَكَ مع أهل المراتب ، وعطيتكَ
لأهل الجهاد ، وبشركَ لأهل الدين ، وبركَ لمن عناه ما عناك من
ذوي العقول .

وقال المنصور لولده : يا بُنَيَّ لَا تُبْرِمَ أَمْرًا حَتَّى تُفَكِّرَ فِيهِ ،
فإنَّ فِكْرَ الْعَاقِلِ مِرَاتَهُ ، تُرِيهِ حَسَنَاتِهِ وَسَيِّئَاتِهِ ، وَاَعْلَمُ أَنَّ
الْخُلَيْفَةَ لَا يُصْلِحُهُ إِلَّا التَّقْوَى ، وَالسُّلْطَانَ لَا يُصْلِحُهُ إِلَّا
الطَّاعَةُ ، وَالرَّعِيَّةَ لَا يُصْلِحُهَا إِلَّا الْعَدْلُ ، وَأَوْلَى النَّاسِ بِالْعَفْوِ
أَقْدَرُهُمْ عَلَى الْعُقُوبَةِ ، وَأَنْقَضُ النَّاسِ عَقْلًا مَنْ ظَلَمَ مَنْ دُونَهُ .

وقال ابن عباس رضي الله عنه : لا يُزهدنَّكَ في المعروف
كفر من كفره ، فإنه يشكرك عليه من لم تصطنعه إليه ، وإنِّي
والله ما رأيتُ أحداً أسعفتهُ في حاجة إلا أضاء ما بيني وبينه ،
ولا رأيتُ أحداً رددتهُ عن حاجة إلا أظلم ما بيني وبينه .

وقال الأصمعيّ : قال لي الرّشيد أوّل يوم عزم فيه على
تأنيسي : يا عبد الملك ، أنتَ أحفظ منّا ، ونحن أعقلُ منك ،
لا تُعلّمنا في ملاء ، ولا تُسرّع إلى تذكيرنا في خلاء ، واطرّكنا
حتّى نبتدئك بالسؤال ، فإذا بلغت من الجواب قدر استحقاقه
فلا تزد ، وإياك والبدار إلى تصديقنا ، وشدة العجب بما يكون
منّا ، وعلمنا من العلم ما نحتاج إليه على عيبات المنابر ، وفي
فواصل المخاطبات ، ودعنا من رواية حوشي الكلام ، وغرائب
الأشعار ، وإياك وإطالة الحديث إلا أن نستدعي ذلك منك ،
ومتى رأيتنا صادقين عن الحقّ ، فأرجعنا إليه من غير تقرير
بالخطأ ، ولا إضجار بطول الترداد . قال الأصمعيّ : فقلتُ له :
يا أمير المؤمنين ، أنا إلى حفظ هذا الكلام أحوج مني إلى كثير
من البر .

قال عمر بن الخطّاب - رضي الله عنه في وصيّة :
لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول : اللهم ارزقني ، وقد

علم أن السَّماء لا تُمطرُ له فِضةٌ ولا ذهبًا ، وليعلم أن الله عزَّ وجلَّ يرزقُ العبادَ بعضهم من بعض .

قال محمد بن حازم الباهلي لابنه : يا بُنيَّ ، إذا سألتَ الحوائج فتأمل بها الصُّباحَ الوجوه من ذوي العناصر السَّنيَّة ، والشَّيِّمَ المرضيَّة ، واحذر ذوي الوجوه العابسة ، والأكفَّ اليابسة ، أصحاب القراريط^(١) ، وكسبة الدَّوانيق^(٢) ، المعروفين بالضيق ، المنسوين إلى التَّدقيق ، الذين إن سُئلوا ضنُّوا ، وإن أعطوا منُّوا ، فلا تخلقنَّ بالطلب إليهم وجهك ، ولا تُدنس بالسَّعي إليهم عرضك . وعليك بمن أنعم الله على وجهه بالصُّباحة ، وعلى كفه بالسَّماحة ، فأولئك هم المعروفون بالصبر على ما ينوبهم من ملَمَّات الرُّجال .

وقال الشَّعبيُّ في وصيَّة : عليك بالصدِّق حين تظنُّ أنَّه يضرُّك فإنَّه ينفعك ، وإياك والكذب حيث ترى أنَّه ينفعك فإنَّه يضرُّك ، واعلم أنَّه لا جنةَ^(٣) أوقى من الصدِّق ، ولا شيءَ

(١) القراريط ، جمع قيراط : معيار في الوزن ، وفي القياس . فهو في الوزن أربع قممحات ، وفي القياس جزء من أربعة وعشرين جزءاً من الفدان .

(٢) الدوانيق : جمع دائق : وهو سدس الدرهم .

(٣) الجنة : الوقاية .

أقوى من الحق، ولا سبيل أخوف من الكذب، ولا حادث أقبح من الزور، وقد ينتج الله للصَّادق النِّجاة العظيمة، وإن لم ينوِّها، والخلاص من النَّازلة وإن لم يتوهمها.

وأوصى رجل ابنه، فقال له: يا بُنيَّ إذا كنتَ في قومٍ فدبِّر بينهم تدبيراً، فلا تُعجِّل بالجواب قبل أن تعرف ما عندهم، ولا تتكبر عن مُتابعتهم إذا ظهر لك الحق، فإنَّ المُتابعة على الصَّواب أحسن من الابتداء بالخطأ. واعلم يا بُنيَّ أنَّ إصابتك الرَّأي بعد خطأ القوم أحمدُ لك من إصابتك قبل كلامهم. فإنَّه لا يُعرفُ فضلُ رأيك على غيره إلا بعد المعرفة بما عندهم، فعند ذلك يستبينُ القول السَّديد من السَّفيه، والرَّأي الرَّشيد من الكريه، ومن استقبل وجوه الآراء علم مواضع الخطأ.

فصل

لما حضرت يونان الوفاة أوصى ابنه فقال له : يا بُنيَّ إني قد وافيت الأجل ، وقربتُ من الحَتم ، وإني راحل عنك ومُفارقك ، ومُفارق أهل بيتك وإخوتك ، وقد كانت أحوالكم حَسَنَةَ النُّظام ، وكنتُ لُكم كَهْفًا في الشَّدائد ، وَعَوْنًا على المحن ، ومُجَنًّا^(١) في الرِّزايا ، فعليك بالجلود ، فإنه قُطب الملك ، ومفتاح السِّياسة ، وباب الرُّئاسة ، ودرج السِّيادة ، وكم حريصاً على اقتناء الرُّجال بالإنعام عليهم تكن سيِّداً رشيداً ، وإيّاك والحيدة عن الطَّريقة المثلى التي عليها مَبْنى العقل ، فإنَّ من ترك رأي اللب ، وثمره العقل ، تورَّط في المهالك ، ووقع في مغائص التعب .

وأوصى لقمان ابنه ، وقد أراد سفراً ، فقال : يا بُنيَّ إذا سافرت فلا تنم على دابَّتِكَ ، فإنَّ كثرة النُّوم عليها يسرع في

(١) المِجَنُّ: الثُّرس .

دبرها، وإذا نزلت بأرض مَكْلَتَةٍ^(١) فأعطها حظَّها من الكَلأ،
وابدأ بعلفها وسقيها قبل نفسك، فإذا بعدت عليك المنازل
فعليك بالدَّجَجِ^(٢)، فإنَّ الأرض تُطوى بالليل، وإذا أردت
النزول فلا تنزل على قارعة الطريق فإنَّها مأوى الحيات
والسباع، وعليك من بقاع الأرض بأحسنها لونا وألينها تربة،
وأكثرها كلاً فانزل بها، وإذا نزلت فَصَلْ رُكْعَتَيْنِ قبل أن
تجلس، وقُلْ: ﴿رَبِّ أَنْزِلْنِي مَنْزَلاً مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾
(المؤمنون: ٢٩) وإذا أردت قضاء حاجة فأبعد المذهب،
وعليك بالسترة، وإذا ارتحلت من منزل فَصَلْ رُكْعَتَيْنِ، وودِّع
الأرض الَّتِي ارْتَحَلْتَ عَنْهَا، وَسَلِّمْ عَلَيْهَا، وعلى أهلها،
فإنَّ لكل بقعة أهلاً من الملائكة، وإذا مررت ببقعة أو وادٍ،
أو جبل، فأكثر من ذكر الله، فإنَّ البقاع والجبال تنادي بعضها
بعضاً: هل مرَّ بكم اليوم ذاكر لله؟. وإن استطعت ألاَّ تطعم
طعاماً حتَّى تتصدق منه فافعل، وعليك بذكر الله ما دمت
راكباً، وبالتَّسْبِيح ما دُمت صائماً، وبالدُّعاء ما دُمت خالياً،
وإيَّاكَ والسَّيْرَ في أوَّلِ اللَّيْلِ، وعليك بالتَّغْلِيص والدُّجَّة من
وسط اللَّيْلِ إلى آخره، وإيَّاكَ ورفع الصَّوْت في سيرك إلاَّ بذكر

(١) أرض مَكْلَتَة : معشبة .

(٢) الدَّجَج : السير بالليل

اللّه ، وسافر بسيفك وقوسك ، وتزوّد معك الأدوية تنتفع بها
ومن معك من أصحابك المرضى والزّمنى^(١) ، وكُن لأصحابك
موافقاً في كل حال ، فإذا استغاثوك فأغثهم ، وإذا استشهدوا
بك على الحقّ فاشهد لهم ، واجهد رأيك ، فإذا رأيتهم يمشون
فامش معهم ، أو يعملون فاعمل معهم ، وإن تصدّقوا بصدقة ،
أو أعطوا شيئاً ، فأعط معهم ، واسمع ممن هو أكبر منك ، وإن
تحيّرتم في طريق فانزلوا ، فإن شككتهم في القصد فتثبتوا
وتأمّروا ، فإن رأيتهم خيلاً واحداً فلا تسألوه عن طريقكم ، فإنّ
الشّخص الواحد في الفلاة هو الذي يحيّركم ، والحاضر
يرى ما لا يرى الغائب ، فإنّ العاقل إذا أبصر الشّيء عرف
الحقّ بقلبه .

وأوصى بعض العلماء ابنه ، فقال له : اعلم يا بنيّ أنّ
الأدب أفضل الأثاث ، وأنّ المروءة أفضل الميراث ، والأدب
زينة الحسب ، وصلة في المجالس ، وأنس في الوحدة ، وعون
في المروءة ، وإنّما المرء بمروءته ، وأصل المروءة اجتناب المرء
ما يشينه ، واختياره ما يزيّنه ، ولا مروءة لمن لا أدب له ،
ولا أدب لمن لا عقل له ، قال الشّاعر :

(١) الزّمن : الذي مرض زمناً طويلاً ، وضعف بكبر سن أو مطاولة علّة .

وما أدب الإنسان شيءٌ كعقله

وما عقله إلا بحسن التأدب

فواظب يا بُنيَّ على طلب الأدب جهداً، واشغل به عقلك، وتدبر منه في الملاء ما يزينك في الملاء، قال الشاعر:

تَعْلَمُ فَلَيْسَ الْمَرْءُ يُولَدُ عَسَالاً

وليس أخو علمٍ كمن هو جاهلٌ

وإنَّ كَبِيرَ الْقَوْمِ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ

صَغِيرٌ إِذَا التَفَّتْ عَلَيْهِ الْمُحَافِلُ

وقد رسمتُ لك يا بُنيَّ رسماً إن لزمته أجلك الملوك،
وانقاد لك السوق والصُّعاليك، يا بُنيَّ، أوَّل ما أوصيك به
تقوى الله تعالى، والشُّكر له في السُّرِّ والعَلَانِيَةِ، وامثل قول
الشاعر:

لَيْسَ الظَّرِيفُ بِكَامِلٍ فِي ظَرْفِهِ

حَتَّى يَكُونَ عَنِ الْحَرَامِ عَفِيفاً

فَإِذَا تَوَرَّعَ عَنِ مَحَارِمِ رَبِّهِ

فَهُنَاكَ يُدْعَى فِي الْأَنَامِ ظَرِيفاً

واعلم يا بُنَيَّ أَنَّ الشُّكْرَ مَزَادٌ، وَالتَّقْوَى خَيْرُ زَادٍ، قَالَ
الشَّاعِرُ:

ولست أرى السَّعَادَةَ جَمَعَ مَالٍ
ولكنَّ التَّقِيَّ هو السَّعِيدُ
فَتَقَوَى اللَّهَ خَيْرُ الزَّادِ ذُخْرًا
وعند الله لا تُقَى مَزِيدُ
ومــــا لا بُدَّ أن يأتي قَرِيبُ

ولكنَّ الَّذِي يَمُضِي بَعِيدُ
يا بُنَيَّ، إذا اجتمعت عليك أَشْغَالُ جَمَّةٍ، فابدأ بِأَحِبِّهَا
إلى الله عَزَّ وَجَلَّ وأَحْمَدُهَا عَاقِبَةً، ففي ذلك قول الشَّاعِرِ:
اعْمَلِ وَأَنْتَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى حَذَرٍ

واعلم بأنَّكَ بَعْدَ الْمَوْتِ مَبْنَعُوثُ
واعلم بأنَّكَ مَسَا قَدَّمْتَ مِنْ عَمَلٍ
مُحْصَى عَلَيْكَ وَمَا خَلَقْتَ مَوْرُوثُ
واعلم يا بُنَيَّ أَنَّ الصَّبْرَ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ وَأَحْصَنُ الْمَعَاقِلِ،

فعلبك بالصبر على طاعة الله عز وجل على ما أحب الناس أو
كرهوا، فقد قال الشاعر:

صبرتُ ومن يصبر يجد غباً صبره

الذَّ وأحلى من جنى النحل في الفم

يا بُني استغن عن الناس جهدك يحتاج الناس إليك،
واعلم أن أغنى الناس عن الناس من أفرد الله بحاجته،
وما استغنى أحد بالله إلا افتقر الناس إليه، قال الشاعر:

اضرع إلى الله لا تضرع إلى الناس

واقنع بياس فإن العز في الياس

واستغن عن كل ذي قُربى وذي رحِم

إن الغني من استغنى عن الناس

يا بُني، لا تزهدن في معروف، فإن الدهر ذو صُروف،
فكن من طالب كان مطلوباً إليه، وراغب صار مرغوباً ما لديه،
واعلم أن الزمان ذو ألوان، ومن يصحب الزمان يرى الهوان،
وكن كما قال الشاعر:

وَعَدُّ مَنْ الرَّحْمَنُ فَضْلاً وَمَنَّةً

عليك إذا ما جاءَ للعرُفِ طَالِبٌ

ولا تَمْنَعَنَّ ذَا حَاجَةٍ جَاءَ رَاغِبًا

فإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَتَى أَنْتَ رَاغِبٌ

رَأَيْتُ التَّوَاهِدَ هَذَا الزَّمَانِ بِأَهْلِهِ

وَبَيْنَهُمْ فِيهِ تَكُونُ الْعَجَائِبُ

يَا بُنَيَّ، إِذَا فَعَلْتَ مَعْرُوفًا فَلَا تَمْنَنَّ بِهِ، فَإِنَّ الْمَنَّةَ تَهْدِمُ

الصَّنِيعَةَ، وَتُحْبِطُ الْأَجْرَ وَتُسْقِطُ الشُّكْرَ، وَلِذَلِكَ قَالَ الشَّاعِرُ:

فَلَا تَكُ مَنَّانًا بِخَيْرٍ فَعَلْتَهُ

فَقَدْ يُفْسِدُ الْمَعْرُوفَ بِالْمَنِّ صَاحِبُهُ

وَكُنْ يَا بُنَيَّ أَحْسَنَ مَا تَكُونُ فِي الظَّاهِرِ حَالًا، أَقْلَّ

مَا تَكُونُ فِي الْبَاطِنِ مَالًا. وَاعْلَمْ أَنَّ الْكَرِيمَ قَدْ كَرُمْتَ عِنْدَ

الْحَاجَةِ طَبِيعَتِهِ، وَظَهَرْتَ عِنْدَ الْاِفْتِقَارِ نِعْمَتِهِ، قَالَ الشَّاعِرُ:

وَلَا عَارَ إِنْ زَالَتْ عَنِ الْمَرْءِ نِعْمَةٌ

وَلَكِنْ عَارًا أَنْ يَزُولَ التَّجَمُّلُ

يا بُنَيَّ، عليك بالوفاء، فإنه يدعو إلى التقى، واعلم أنه
لا يتم كرمُ المرء إلا بحُسنِ وفائه، ولذلك قال الشاعر:
إن الوفاء بعهد الله عادتنا

ولا يفي بعهد الله كذابٌ
يا بُنَيَّ، إذا وعدت أحداً عدةً فتسمها وعجل بها، وإياك
أن تقول: لا، فيما قلت فيه: نعم: وامثل قول علي بن أبي
طالب رضي الله عنه:

ولا أقول: نعم يوماً وأتبعها

بلا ولو ذهبتُ بالمال والوكد
يا بُنَيَّ، خذ في أمورك بالأناة وحسن التثبت تسلم من
عتاب الإخوان عند عواقبها، كما قال الشاعر:

قد يدرك المتأني بعض حاجته

وقد يكون مع المستعجل الزللُ
يا بُنَيَّ، إذا ائتمنتك أحد على أمانة فآله عن ذكرها حتى
تسلمها مصونةً إلى أهلها، ففي ذلك قال الشاعر:

وإذا ائتمنتَ على الأمانةِ فارعها

إنَّ الكريمَ إلى الأمانةِ راعي

يا بُنَيَّ، القَ صديقَكَ وعدوكَ بوجه الرضى، وكُفَّ
الأذى من غير ذلَّةٍ لهم، ولا رهبةٍ منهم، وكن في الأمور
مُتوسِّطًا، فإنَّ خيرَ الأمور أوساطُها، وكن للإخوان في
الحضر، وللرفقاء في السَّفر. قال الشَّاعر:

وكنْتُ إذا صَحِبْتُ رَجُلًا قَومُ

صَحِبَتْهُمْ وَشِيمَتِي الْوَفَاءُ

فأَحْسَنُ حِينَ يُحْسَنُ مُحْسِنُوهُمْ

وَأَجَسْتَنِبُ الْإِسَاءَةَ إِنْ أَسَاءُوا

أَشَاءُ سِوَى مَشِيئَتِهِمْ فَآتِي

مَشِيئَتَهُمْ وَأَتْرِكُ مَا أَشَاءُ

يا بُنَيَّ، أَكْرَمُ عَرَضِكَ، صُنَّةُ جَهْدِكَ، اجْعَلْ مَالِكَ وَقَايَةَ
لِعَرَضِكَ، اجْعَلْ عَرَضَكَ وَقَايَةَ لِدِينِكَ. كُنْ كَمَا قَالَ الشَّاعر:

أَقِي بِمَالِي عَرِضِي وَلَا أَدْنِسُهُ

لَا بَارَكَ اللَّهُ بَعْدَ الْعَرِضِ فِي الْمَالِ

أحتالُ في المالِ إن أودى فأكسبه

ولستُ للعرضِ إن أودى بِمُحتالٍ

يا بُنيَّ، كن حذراً كأنَّكَ غُرٌّ، وكن ذاكراً كأنَّكَ سَاهٍ،
وكن فطناً كأنَّكَ غَافِلٌ، فإنَّ اللَّيْبَ للعاقل هو الفطنُ المتغافلُ،
وإذا اعتذر إليك أحدٌ من قولٍ بلغَّتهُ عنه، أو سمعته منه، فاقبل
معذرتَه، ولا تدع صلته، فتكون قد جعلت صديقاً عدواً، .
وفي ذلك يقول الشاعر:

وَمَنْ لَا يُغْمِضُ عَيْنَهُ عَنْ صَدِيقِهِ

وَعَنْ بَعْضِ مَا فِيهِ يَمُتُ وَهُوَ عَاتِبٌ

يا بُنيَّ، كُنْ جواداً بالمال في موضع الحقِّ، بخيلاً بالسِّرِّ
على جميع الخلق، فإنَّ من تمام كرم الحرِّ القيام بالبرِّ، والبخلُ
بمكتوم السِّرِّ، كما قال الشاعر:

أَجُودُ بِمَنْعِ الْبِلَادِ وَإِنِّي

كَتُومٌ لِأَسْرَارِ الْعَشِيرِ أَمِينٌ

وعندي له يوماً إذا ما أوْتَمَنَتْهُ

مَكَانُ بَسُودَاءِ الْفُؤَادِ كَنِينٌ

يا بُنَيَّ، فإن التبسَ عليك أمرٌ، فشاورَ لبيباً، وإذا
أرسلتَ رسولاً، فليكنَ حليماً، فإن لم يكن حليماً، فكن
رسولَ نفسك، فإنَّ مشاورةَ اللبيبِ قوَّةٌ لرأيك، وحلمَ رسولِكَ
جزمٌ في أمورِكَ، وفي ذلك قال الشاعر:

إذا كنت في حاجةٍ مُرسلاً

فأرسل حكيماً ولا تُوصِه
وإنْ بابُ أمرٍ عليك التوى

فشاورَ لبيباً ولا تعصِه
يا بُنَيَّ، إذا استشاركَ عدوٌّ أو صديقٌ، فامنحه النصيحة،
فإن فعلتَ قلتَ بالحكمة، وبرئتَ من التُّهمة، وفي ذلك قال
الشاعر:

أشِرَ اليَومَ علينا بالهدى

فمَتى يُستأشِرَ الحرُّ يُشِرْ

ولا تدعِ يا بُنَيَّ مواصلةَ الكريمِ، وفرَّ الفِرارَ كُلَّهُ من
اللَّئيمِ، فإنه لا يستقيم لك ودُّهُ إلا من حاجتهِ إليك، أو فرق
منك، فإن استغنى عنكَ كان عليك، وإذا احتجتَ إليه هنتَ
عنده. قال الشاعر:

إِنَّ مَنْ أَحْسَوْجَكَ الدَّهْرُ إِلَيْهِ
وَتَعَلَّقَتْ بِهِ هُنْتَ عَلَيْهِ
لَيْسَ يَصْفُو وَدُّ مَنْ وَاحِيتَهُ

إِنْ تَعَسَّرَ ضُتْ لَشْيٍ فِي يَدَيْهِ
يَا بُنَيَّ، عَلَيْكَ بِالصَّدْقِ، فَإِنَّهُ زَيْنٌ فِي الدُّنْيَا، وَنَجَاةٌ فِي
الْآخِرَةِ، وَصَدَقَ يَعْطِبُ صَاحِبُهُ خَيْرٌ مِنْ كَذِبٍ يَنْجُو بِهِ كَاذِبُهُ،
وَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ:

إِنَّ خَيْرَ الْمَقَالِ مَا وَافَقَ الْحَقُّ
وَإِنْ قُطَّ فَيَسِيهِ حَبْلُ الْوَرِيدِ
وَلَقَطُ الْوَرِيدِ فِي الْحَقِّ خَيْرٌ

مِنْ دِرَاكِ الْمُنَى عَلَى التَّفْنِيدِ
وَجَانِبُ الْكَذِبِ فَإِنَّهُ شَيْنٌ فِي الدُّنْيَا، وَوَبَالٌ فِي الْآخِرَةِ،
وَالْكَذُوبُ يُرَدُّ صَدَقُهُ، كَمَا يُرَدُّ كَذِبُهُ، وَعَلَيْكَ بِالسَّخَاءِ،
وَإِكْتِسَابِ الْحَمْدِ، وَالْمُدَارَاةِ عَنِ الْعَرِضِ، وَخُذْ بِقَوْلِ زَهِيرٍ:

وَمَنْ يَجْعَلِ الْمَعْرُوفَ مِنْ دُونِ عَرِضِهِ
يَفْرَهُ وَمَنْ لَا يَتَّقِ الشَّتْمَ يُشْتَمُ

واعلم يا بُنَيَّ إِنَّ بِرَّ الْوَالِدَيْنِ حَيِّينَ الطَّاعَةُ لُهُمَا ، وَبِرَّهُمَا
مَيِّتَيْنِ التَّرَحُّمُ عَلَيْهِمَا ، وَالْكَفَّ عَنْ أَعْرَاضِ النَّاسِ صِيَانَةٌ
لأَعْرَاضِهِمَا . قال الشاعر :

وَمَا عَقَّ مَوْلُودٌ مِنَ النَّاسِ وَالِدًا

عُقُوقَ الَّذِي يَجْنِي لَوَالِدِهِ شَتْمًا

يا بُنَيَّ ، لَا تَسْتَخَفَّ بِحَقُوقِ الرِّجَالِ ، فَيَسْتَخَفُّوا بِحَقِّكَ ،
وَاقْبَلْ مِنْهُمْ الْجَمِيلَ وَكَافِيَءَ عَلَيْهِ ، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ دَامَ لَكَ
حَمْدُهُمْ ، وَصَفَا لَكَ وَدُّهُمْ ، وَخَذَ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ :

خَذِ الْعَفْوَ وَاصْفَحْ عَنْ أُمُورٍ كَثِيرَةٍ

وَدَعْ كَذَرَ الْأَخْلَاقِ وَاعْمَدْ لِمَا صَفَا

يَا بُنَيَّ ، إِذَا أَحْبَبْتَ فَلَا تُفْرِطْ ، وَإِذَا أَبْغَضْتَ فَلَا تَشْطُطْ ،
وَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ :

وَأَحِبِّ إِذَا أَحْبَبْتَ حُبًّا مُقَارِبًا

فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَتَى أَنْتَ قَاطِعٌ

وَأَبْغِضْ إِذَا أَبْغَضْتَ بَغْضًا مُقَارِبًا

فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَتَى أَنْتَ رَاجِعٌ

يا بُنَيَّ، وإن سمعت كلمة حاسد، فكن كأنك غير
شاهد، قال الشاعر:

أعرض عن العوراء إن أسمعتهَا
واقعد كأنك غافل لا تسمعُ
ودع السؤال عن الأمور وبخثها

فلرب حافر حفرة هو يصرعُ
يا بُنَيَّ، إذا نازعتك نفسك إلى أمر هو لك شائق،
فخوفها المقت^(١)، وعاتبها على ما به طالبتك، فإن لم ينفعها
كتابك، فكيف ينفعها كتاب غيرك؟ وفي ذلك قيل:
وليس عتاب الناس للمرء نافعاً

إذا لم يكن للمرء لبُّ يعاتبه
يا بُنَيَّ، إياك والبخل فإنه لؤم، وصاحبه مذموم، وإياك
والمطل فإنه أجلب للذم من البخل. قال الشاعر:
إذا اجتمع الآفات فالبخل شرُّها

وشرُّ من البخل المواعيد والمطل

(١) المقت: أشدُّ البغش.

فلا خيرَ في وعدٍ إذا كانَ كاذباً

ولا خيرَ في قولٍ إذا لم يكنْ فِعْلٌ

يا بُنَيَّ ، لا تنقلْ غِيمَةً ، فتكسبَ بها شتِيمَةً ، مع أنْ من
عُرِفَ بها تحفُّظٌ عن مجالسته ، وازهد في مواصلته ، قال
الشَّاعرُ :

إنَّ الكريمَ الَّذي تبقى مَسودَّتُهُ

ويحفظُ السِّرَّ إنْ صافى وإنْ صرَّما

ليسَ الكريمُ الَّذي إنْ زلَّ صاحِبُهُ

بثَّ الَّذي كانَ من أسرارِهِ علِماً

يا بُنَيَّ ، لا تُعِبْ أحداً بما يبدو لكَ من عيوبِهِ ، فإذا
هممتَ بذلكَ فاذكرْ عُيوبَ نفسِكَ ، فإنَّكَ ترى ما يشغلكَ عن
عيوبِ النَّاسِ ، فإنْ عبتَ أحداً بما فيه ، كانَ ذلكَ قبيحاً ، وأقبحُ
منه أنْ تعيبه بما فيكَ ، وفي ذلكَ قال الشَّاعرُ :

إذا ما ذكرتَ النَّاسَ فاتركْ عُيوبَهُم

فلا عيبَ إلاَّ دونَ ما منك يُذكرُ

فإن عبتَ قومًا بالذي هو فيهمُ

فذلكَ عندَ اللهِ والنَّاسِ مُنْكَرٌ

وإنْ عِبتَ قومًا بالذي فيكَ مثلهُ

فكيفَ يعيبُ العورَ من هو أعورُ

يا بُنَيَّ، إِيَّاكَ وَقَرِينَ السُّوءِ، فَإِنَّمَا صَلَاحُ أَخْلَاقِ الْمَرْءِ

بِمُقَارَنَةِ الْكِرَامِ، وَفَسَادُهَا بِمِحَادَثَةِ اللَّثَامِ، وَإِنَّمَا يُعْرِفُ الْمَرْءُ
بِقَرِينِهِ وَخَدِينِهِ، قَالَ الشَّاعِرُ:

عَنِ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ

فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارَنِ مُقْتَدِرٌ

يا بُنَيَّ، إِيَّاكَ وَكَثْرَةَ الْكَلَامِ، وَالْمَزَاحَ، وَالضَّحْكَ، فَإِنَّ

مَعَ كَثْرَةِ الْكَلَامِ الزَّكْلُ، وَالْمَزَاحُ يورِثُ الْبَغْضَاءَ، وَكَثْرَةُ
الضَّحْكِ يذهبُ الْبَهَاءُ، فَأَقْلِلْ مِنَ الْكَلَامِ، وَأَفْشِ السَّلَامَ،
وَلِيَكُنْ ضَحْكَكَ تَبَسُّمًا، وَلَا تُمَازِحْ شَرِيفًا فَيُحْقِدَ عَلَيْكَ،
وَلَا وَضِيعًا فَيَجْتَرِيَّ عَلَيْكَ، قَالَ الشَّاعِرُ:

وَإِيَّاكَ إِيَّاكَ الْمُزَاحَ فَ— إِنَّهُ

يُجْرِي عَلَيْكَ الطَّقْلَ وَالرَّجُلَ النَّذْلَ

ويذهب ماء الوجه بعد بهائه .

ويورث بعد العز صاحباً ذليلاً

والزم الصمت، وليكن كلامك بتقدير، وصمتك في
تفكير، وحصل القول، وترسل فيه، ومن أكثر أهجر^(١)، قال
الشاعر:

وأقل إذا ما قلت قولاً فإنه

إذا قل قول المرء قل خطأؤه

يا بُني، لا تمازح حليماً ولا سفيهاً، فإن الحليم
يقلبك^(٢)، والسفيه يؤذيك. واعلم أن المرء يمرض قلبك،
ويضعف رأيك. ويزري بمروءتك عند جلسائك، ويفسد
الصداقة القديمة، وفي ذلك يقول الشاعر:

فإياك إياك المرء فإنه

إلى الشر دعاء وللشر جالب

واعلم يا بُني أن من الكلام ما هو أحر من الجمر، وأمر
من الصبر، وقد قال الشاعر:

(١) أهجر: أتى بالقبيح من الكلام.

(٢) يقلبك: يبغضك.

النَّارُ أبلغُ أوجاعٍ سمعتُ بها

والقولُ أبلغُ من كيِّ المسامير

يا بُنيَّ، إنَّ لكلِّ مقامٍ مقالاً، ولكلِّ كلامٍ جواباً، وكلُّ
كلامٍ منكرٍ إلَّا وجوابُهُ أنكرٌ، وقد قال الشاعر:

ما أحرَّ الكلامَ يرحمك الله

— ولكن أحرُّ منه الجوابُ —

يا بُنيَّ: لا تغترَّ بالمال، فإنَّه كالسافرٍ يحلُّ ويرحل.
واعلم أنَّ العقلَ مقيمٌ لا يبرح، ومثلٌ من له مالٌ ولا عقلٌ له،
كرجلٍ له نعلٌ ولا رجلٌ له، ومثلٌ من له عقلٌ ولا مالٌ له
كرجلٍ له رجلٌ ولا نعلٌ له، فإنَّ أتاها الله بالنعلِ فالرجلُ مُهيَّاةٌ
له، وإنَّ أتى بنعلٍ من لا رجلَ له فإنَّما هي أعجوبةٌ في النَّاسِ.
قال الشاعر:

إذا كنتَ ذا عقلٍ ولم تكُ ذا غنى

فأنتَ كذبي رجلٍ وليس له نعلٌ

وإن كنتَ ذا مالٍ ولم تكُ عاقلاً

فأنتَ كذبي نعلٍ وليس به رجلٌ

يا بُنَيَّ، إذا أتيتَ بلدًا أهلها على غير ما تعرف، فاترك
كثيراً مما كنتَ تعرف، وخُذْ بما يعرفون، فإنَّ ذلكَ من حُسْنِ
المداراة، وكثيرٌ من داري فلم يَسلم، فكيف بِمَن لم يدارِ؟ قال
الشَّاعر:

يا ذا الَّذي ليسَ له والدٌ

يمشي على الأرضِ ولا والدَه
قد ماتَ من قبلهما آدمٌ

فبأي نفسٍ بَعْدَه خالِدَه
إن جئتَ أرضاً أهلُها كُلُّهم

عورٌ فغمُضْ عينك الواحدة

يا بُنَيَّ كن من الحلِيم على حذرٍ إن أخرجتَه، ومن اللَّئِيم
إن أكرمتَه، ومن الأحمق إن مازحتَه، ومن الفاجر إن عاشرتَه.

واعلم أنَّ من النَّاس مَنْ يقول ويفعل، ومنهم من يقول
ولا يفعل، ومنهم من لا يفعل ولا يقول، وهو خيرُ منهم،
وشرُّهم الَّذي يقول ولا يفعل.

يَابُنَيَّ، غُضُّ عَنْ الْفَكَاهَاتِ مِنَ الْمُضَاحِكِ وَالْحِكَايَاتِ،
وَلَا تُحَدِّثْ أَحَدًا إِعْجَابَكَ بِوَلَدِكَ وَزَوْجَتِكَ، وَلَا إِعْجَابَكَ
بَسَيْفِكَ وَلَا فَرَسِكَ، وَإِيَّاكَ وَأَحَادِيثَ الرُّوْيَا فَإِنَّهَا تَطْمَعُ فِيكَ
السُّفَهَاءُ، فَيُؤَلِّدُوا لَكَ الْأَحْلَامَ، وَيُفْسِدُوا فِي عَقْلِكَ،
وَلَا تَلْبَسْ مِنَ الثِّيَابِ مَشْهُورًا، وَلَا تَتَّخِذْ مِنَ الدَّوَابِّ
مَبْطُورًا، وَلَا تَتَصَنَّعْ تَصْنُوعَ الْمَرْأَةِ، وَلَا تَتَبَذَّلَ تَبَذُّلَ الْعَبْدِ،
وَتَتَوَقَّ الكُحْلَ، وَالْإِسْرَافَ فِي الدَّهْنِ، وَلَا تُلَحَّ فِي الْحَاجَاتِ،
وَلَا تَخْضَعُ فِي الطَّلِبَاتِ، وَإِيَّاكَ أَنْ تُعْلِمَ أَهْلَكَ وَوَلَدَكَ كَثْرَةَ
مَالِكَ أَوْ قَلَّتَهُ، فَإِنَّهُمْ إِنْ عَلِمُوا قَلَّتَهُ هَنَّتَ عَلَيْهِمْ، وَإِنْ عَلِمُوا
كَثْرَتَهُ لَمْ تَبْلُغْ بِهِ رِضَاهُمْ.

يَا بُنَيَّ: أَخْفِ أَهْلَكَ وَوَلَدَكَ فِي غَيْرِ عَنَفٍ، وَارْفُق بِهِمْ
فِي غَيْرِ ضَعْفٍ وَلَا تُرْزِجْ زَوْجَتَكَ حُبَّ الْإِفْرَاطِ فَتَتَجَبَّرَ عَلَيْكَ،
وَلَا تُرْهِأْ بِغَضَا فتنفر منك، وَأَحْبِبْ وَلَدَكَ وَأَحْسِنْ أَدَبَهُ،
وَلَا تُهَازِلْ أَمَتَكَ وَلَا عَبْدَكَ.

يَا بُنَيَّ، إِذَا خَاصَمْتَ فَدَعْ الْحِدَّةَ، وَفَكِّرْ فِي الْحِجَّةِ،
وَاصْبِرْ لِمَنْ خَصَمَكَ، وَلَا تَغْضِبْ فَتَذْهَلْ عَنْ حِجَّتِكَ، وَأَرِ
الْحَاكِمَ بَيْنَكُمَا حِلْمَكَ، وَلَا تَكْثُرِ الْإِشَارَةَ بِيَدِكَ. وَإِنْ قَرَّبَكَ

السُّلْطَانُ فَكُنْ مِنْهُ عَلَى حَدِّ السُّنَانِ ، وَإِنْ أَمِنَ إِلَيْكَ فَلَا تَأْمِنْ
انْقِلَابَهُ عَلَيْكَ ، وَارْفُقْ بِهِ رَفْقَكَ بِالصَّبِيِّ ، وَكَلِّمْهُ بِمَا يَشْتَهِي .
وَإِيَّاكَ أَنْ تَدْخُلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحَدٍ مِنْ وَلَدِهِ وَحَشَمِهِ وَغُلَمَانِهِ . وَإِنْ
كَانَ لِقَوْلِكَ فِيهِمْ مَطِيعًا فَإِنَّ أَهْلَ الْمُلُوكِ أَصْحَابَ خُلُوتِهِمْ ،
وَبَطَانَتِهِمْ يَحْضُرُونَ لَكَ فِي مَوْضِعٍ يَشْرَبُونَهُ الْوَقِيعَةَ فِيكَ ،
وَيُولَدُونَ فِي صَدْرِهِ مَا يَغَيِّرُهُ عَلَيْكَ ، وَإِنَّ الدُّخُولَ بَيْنَ السُّلْطَانِ
وَأَهْلِهِ زَكَاةٌ لَا تُقَالُ .

يَا بَنِيَّ ، إِذَا رَكَبْتَ فَلَا تُكْثِرْ مِنْ ضَرْبِ دَابَّتِكَ ، وَلَا تَخْفُقْ
بِقَدَمَيْكَ فِي رِكَابِكَ ، وَإِذَا سَايَرْتَ مَوْكِبًا فَكُنْ فِي وَسْطِهِ ،
وَلَا تَكُنْ أَمَامَ الْقَوْمِ فَتَثِيرَ الْغُبَارَ عَلَيْهِمْ ، وَلَا خَلْفَهُمْ فَيَثِيرُوا
الْغُبَارَ عَلَيْكَ .

يَا بَنِيَّ ، لَا تَفْرِشْ عَرَضَكَ لِمَنْ هُوَ دُونَكَ ، وَلَا تَنْفُضْ
عَهْدًا فَتَحْمِلَ بِذَلِكَ حَقْدًا ، وَأَقْلِلِ الْكَلَامَ عَلَى الطَّعَامِ
إِلَّا بِالْحَمْدِ لِلَّهِ ، وَكَذَلِكَ عِنْدَ الْخَلَاءِ .

يَا بَنِيَّ ، اتَّقِ اللَّهَ يَكْفِكَ مَا تَخَافُهُ وَتَتَّقِيهِ ، وَاحْذَرِ أَنْ
تَعْصِيَهُ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكَ مِنْ وَرَائِهِ وَزَرٌ^(١) ، وَلَا مِنْ دُونِهِ مَعْتَصِمٌ ،

(١) الْوَزَرُ: الْمَلْجَأُ .

وإيّاك والفجور بحرّم النَّاسِ ، فإنّه ما انتهك امرؤ حُرمةَ
إلاّ ابتلي في حُرْمِهِ بِمِثْلِهِ . وإيّاك والخمر فإنّها مُتْلَفَةٌ ، طَلَابَةٌ لما
لا ينال ، وفيها مفسدة للعقل ، وسقوط الهيبة والبهاء ، وإيّاك
والاختلاف ، فإنّه ليس معه ائتلاف ، ولا يكن لك جار السوء
جاراً ، ولا خدين السوء زوراً .

فصل

كتب ملك الروم إلى سابور بن أزدشير : أما بعد ، فقد بلغني من سياستك لجندك ، وضبطك ما تحت يدك ، وسلامة أهل مملكته بتدبيرك ما أحبيت أن أسلك فيه طريقته ، وأركب منهجك .

فكتب إليه سابور : نلت ذلك بثمان خصال : لم أهزل في أمر ولا نهى قط ، ولم أخلف وعداً ولا وعيداً ، وجازيت للغنى لا للهوى ، واجتلبت قلوب الناس مقة^(١) بلا مقة ، وخوفاً بلا جرأة ، وعاقبت للذنب لا للغضب ، وعممت بالقلوب ، وحسمت الفضول .

وكتب هرمز بن سابور إلى بعض عماله : إنّه لا يصلح لسد الثغور ، وقود الجيش ، وإبرام الأمور ، وتدبير الأقاليم إلا رجل تكاملت فيه خمس خصال : فهم يتيقن به عند موارد

(١) المقة : المحبة . والمقة : البغض الشديد .

الأمر . حقائق مصادرها ، وعلمٌ يحجبه عن التهور في المشكلات إلا عند تجلّي فرصها ، وشجاعةٌ لا تنقضها الملمات بتواتر حوائجها ، وصدقُ الوعد والوعيد ليوثق بوفائه بهما ، وجودٌ يهون عليه تبذير الأموال في حقّها .

كتب حكيمٌ إلى حكيم : أما بعد : فإنّي سائلك عن ثلاثة ، إن أجبتَ عنها تلمذتُ لك ، فكتب إليه : سل وبالله التوفيق ، فكتب إليه : أيّ النَّاسِ أولى بالرحمة ؟ ومتى تضيع أمور النَّاسِ ؟ وبِمِ تَتَلَقَّى النِّعْمَةَ من الله عزَّ وجلَّ ؟

فأجابه : أولى النَّاسِ بالرحمة الرجلُ البرُّ يكون في بلد الأمير الجائر ، فهو خائفٌ حزين لما يرى ويسمع ، والعاقل في تدبير الجاهل ، فهو الدهرُ مُتَعَبٌ مَغْمُومٌ ، والكريم يحتاج إلى اللّثيم فهو الدهرُ خاضعٌ ذليلٌ ، وتضيع أمور النَّاسِ إذا كان الرَّأيُ عند من لا يُقبل منه ، والسَّلاحُ عند من لا يستعمله ، والمالُ عند من لا ينفقه .

وتتلقي النِّعْمَةَ من الله تعالى بكثرة شكره ، ولزوم طاعته ، واجتناب معصيته ، فأقبلَ عليه ذلك الحكيم فتلمذ له حتّى مات .

وكتب أيضاً حكيم إلى حكيم يشكو إليه دهره ، فأجابه :
أما بعد ، فإنه ليس من أحد أنصفه زمانه ، فتصرفت به
الحال حسب استحقاقه ، وإنك لن ترى من الناس إلا أحد
رجلين : إما متقدّم آخره حظّه ، أو متأخّر قدّمه حظّه ، فارض
بالحال التي أنت عليها . وإن كانت دون أمّلك ، فإن رضيت
بحالك اختياراً ، وإلا رضيت بها اضطراراً . وفي مثل ذلك قال
الشاعر :

لقد غرّت الدنيا رجالاً فأصبحوا
بمنزلة ما بعدها متحوّل
فساخط عيش لا يبدل غيره
وراض بعيش غيره سيبدل
وبالغ أمر كان يأمل دونه
ومختلج من دون ما كان يأمل

وكتب ملك هجر إلى بعض الحكماء ، أن اكتب لي
بأشياء أنتفع بها ، وأوجز . فكتب إليه : أوفق الأمور ترك
الفضول ، والتحفظ من السقوط ، ولزوم الصواب . وأصل

المعيشة إصلاح المال بالتقدير ، فإنَّ التَّبذِير مفتاح الفقر ، ومن العجز والتَّواني تنبعث الهلكة ، وأحوج النَّاس إلى الغنى مَنْ لم يصلحه إلاَّ الغنى . وفي المشورة والعدل صلاح الرَّعيَّة ، ورضى النَّاس غايةً لا تُدرَك ، والبرُّ أجمعه في حُسن الخلق ، والنُّجح مع الصَّبْر ، والنَّجاة مع الإيمان ، والعفو يوجب المحبَّة ، والحلم قائد القلوب ، والرفق بالرَّعيَّة يوجب الطَّاعة ، والفتنة تُنشئها الضَّغائن ، والنَّعمة تُستدام بلزوم الشُّكر مع اطِّراح الهوى والمعاصي .

وقيل : إنَّ زبيدة زوجة هارون الرَّشيد كتبت إلى منصور ابن عمار : أما بعد ، فكيف يقف ذو اللَّبِّ على ما ينفعه ؟ وكيف يجتنب ما يضره ؟ فكتب إليها :

أما بعد : فمن أبصر عيب نفسه شُغل عن عيب غيره ، ومن تعرَّى عن لباس التَّقوى لم يستتر من اللباس ، ومن رضي برزق الله تعالى لم يحزن على ما في يدي غيره ، ومن سلَّ سيف البغي قُتل به ، ومن احتفر بئراً لأخيه وقع فيه ، ومن هتك حجاب غيره انكشفت عورات بيته ، ومن نسي زلَّته استعظم زلَّة غيره ، ومن كابد الأمور عطب ، ومن اقتحم اللجج غرق ، ومن أعجب برأيه ضلَّ ، ومن استغنى بعقله زلَّ ، ومن تكبر

على النَّاسِ ذُلٌّ، ومن فَجَرَ عليهم قُصَمٌ، ومن سَفِهَ عليهم
شُتْمٌ، ومن خَالَطَ الأرذالَ حَقَرٌ، ومن خَالَطَ العلماءَ وَقَرٌ، ومن
دَخَلَ مَدَاخِلَ السُّوءِ اتُّهِمَ، وَمَنْ تَهَاوَنَ بِالْذِّينِ ارْتَظَمَ، ومن
اِغْتَنَمَ أَمْوَالَ النَّاسِ افْتَقَرَ، ومن اِنْتَظَرَ الْعَاقِبَةَ اصْطَبَرَ، ومن
خَشِيَ اللَّهَ فَازَ، ومن لَمْ يُجَرِّبِ الْأُمُورَ قُتِلَ، ومن صَارَعَ دَهْرَ
الْحَقِّ صُرِعَ، ومن اِحْتَمَلَ مَا لَا يَطِيقُ عَجَزَ، ومن كَثَرَ لَغَطُهُ كَثَرَ
سَقَطُهُ ^(١)، ومن عَرَفَ أَجْلَهُ قَصَرَ أَمَلُهُ، ومن اسْتَفَادَ الْجَهْلَ فَقَدَ
تَرْكَ طَرِيقَ الْعَدْلِ.

فَكُتِبَتْ إِلَيْهِ : أَمَّا بَعْدُ : فَإِنَّا قَدْ وَقَفْنَا عَلَى عِيُوبِ النَّفْسِ ،
فَكَيْفَ لَا نَقِفُ عَلَى عِيُوبِ الدُّنْيَا ؟

فَكُتِبَ إِلَيْهَا : أَمَّا بَعْدُ : فَإِنَّ الدُّنْيَا مَنْ طَلَبَهَا طَلَبَتْهُ ، وَمَنْ
دَاهَنَهَا كَلَمَتْهُ ، وَمَنْ صَادَقَهَا قَتَلَتْهُ ، وَمَنْ اِطْمَأَنَّ إِلَيْهَا خَذَلَتْهُ ،
وَمَنْ رَفَضَهَا رَفَضَتْهُ ، وَمَنْ تَرَكَهَا وَلَمْ يَخْدَمْهَا خَدَمَتْهُ ،
اسْتَحْسَنَهَا مَنْ جَهَّلَهَا ، وَاسْتَنْكَرَهَا مَنْ عَرَفَهَا . نَجَا النَّاجُونَ عِنْدَ
إِدْبَارِهَا ، وَهَلَكَ الْهَالِكُونَ عِنْدَ إِقْبَالِهَا ، فَالْعَاقِلُ يَجْعَلُ الزُّهْدَ
حِسَامَهُ ، وَالْحَقَّ سِهَامَهُ ، وَالْوَرَعَ قَوْسَهُ ، وَالنَّصِيحَةَ دَرْعَهُ ،

(١) السَّقَطُ : الْغَلَطُ فِي الْكَلَامِ .

والقُنُوعَ رُمُوحَهُ، وكتابَ اللَّهِ - عزَّ وجلَّ - حمَاهُ، والرفقَ
مركبَهُ، والعملَ عُدَّتَهُ، والآمالَ بأسَهُ، والنيةَ جَنَّتَهُ،
والصِّمْتَ تَرُسَهُ، والتَّقْوَى طليعته، وخشية الله تعالى
حصنه، والسلام.

وكتب سلمان الفارسي إلى أبي الدرداء: أمّا بعد: فإنّك
لن تنال ما تريد إلّا بتركك ما تشتهي، ولن تدرك ما تأملُ
إلّا الصبر على ما تكره، فليكن كلامك ذكراً، وصمتك فكراً،
ونظرك عبرة، فإنّ الدنيا تنقلبُ، وبهجتها تتغيرُ، فلا تغترَّ
بها، وليكن بيتك المسجد الحرام، والسلام.

فأجابه أبو الدرداء: أمّا بعد: فإنّي أوصيك بتقوى الله،
وأن تأخذ من صحتك لسقمك، ومن شبابك لهرمك، ومن
فراغك لشغلك، ومن حياتك لموتك، واذكر حياة لا موت فيها
في إحدى المنزلتين، إمّا في الجنة وإمّا في النار، فإنّك لا تدري
إلى أيّهما تصير، والسلام.

وكتب بعض الزهاد إلى أحمد بن حنبل:

أمّا بعد: فمن أصلح سريرته أصلح الله تعالى علانيته،
ومن أصلح دنياه، أصلح الله آخرته، ومن أصلح ما بينه وبين

اللّٰهَ ، أَصْلَحَ اللّٰهَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ ، وَمَنْ تَزَيَّاءَ لِلنَّاسِ بِمَا لَيْسَ فِي نَفْسِهِ أَسَاءَ اللّٰهَ بِهِمْ ظَنَّهُمْ ، وَمَنْ أَخَافَ اللّٰهَ ، خَافَهُ كُلُّ شَيْءٍ ، وَمَنْ خَافَ غَيْرَ اللّٰهَ ، وَكَلَّهَ اللّٰهَ إِلَى نَفْسِهِ وَإِلَيْهِمْ ، وَلَنْ يَغْنُوا عَنْهُ مِنَ اللّٰهَ شَيْئًا ، فَالْهَرَبُ الْهَرَبُ ، وَالنَّجَاءُ النَّجَاءُ ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَقْنَعَ بِمَا نَوَّهَ بِاسْمِكَ فِي الْخَلْقِ ، فَإِنَّكَ لَنْ تَنْجُو مِنَ اللّٰهَ إِلَّا بِأَدَاءِ فَرَائِضِهِ ، وَلَا تَقْرُبُ وَلَا تَحْبُبُ إِلَيْهِ بِمِثْلِ النُّصْحِ ، فَعَلَيْكَ بِالنُّصْحِ لَهُ ، وَقُلِ الْحَقَّ ، فَإِنَّ الْحَقَّ قَدِيمٌ ، وَلَا تَدَّعِ أَنْ تَصِلَنِي مِنْكَ مَوْعِظَةٌ يُجَلِّيْ بِهَا قَلْبِي ، وَيَقْشَعِرُ مِنْهَا جُلْدِي ، وَتَذْرِفُ بِهَا عَيْنَايَ ، فَلَسْتُ بِمُسْتَغْنٍ عَنْ عِلْمِكَ وَرَأْيِكَ ، فَخْتَمِ اللّٰهَ لَنَا وَلَكَ بِخَيْرٍ وَمَا تَرَكَ عَبْدٌ شَيْئًا مِنْ مَخَافَةِ اللّٰهَ إِلَّا عَوَاضَهُ اللّٰهَ خَيْرًا مِنْهُ ، وَفِي اللّٰهَ خَلْفٌ مِنْ كُلِّ هَالِكٍ ، وَعَوِضٌ مِنْ كُلِّ فَائِتٍ ، وَأَنْسٌ مِنْ كُلِّ وَحْشَةٍ ، وَغْنَىٌ مِنْ كُلِّ عَدَمٍ ، وَعِزَاءٌ مِنْ كُلِّ مَصِيبَةٍ ، فَبِاللّٰهَ نَتَوَكَّلُ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللّٰهَ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ .

فصل

كتب عليُّ بن أبي طالب - رضي الله عنه - إلى ولده الحسين : من عبد الله عليّ، أمير المؤمنين، الوالد الفاني، المقرّ للزمان، المستسلم للحدثان، المدبر العمر، الذّام للدُّنيا، الساكن مساكن الموتى، إلى الولد المؤمل ما لا يدرك، السّالك سبيل مَنْ قد هلك، عُرْضة الأسقام، ورهينة الأيام، وعبد الدُّنيا، وتاجر الغرور، وأسير المنايا، وقرين الرّزايا، وصرّيع الشّهوات، ونصيب الافات، وخليفة الأموات.

أما بعد : يا بُنَيَّ، فإنّ فيما تفكرتُ فيه من إدبار الدُّنيا عني، وإقبال الآخرة إليّ، وصنوّ الدّهر على ما يزعجني عن ذكر مَنْ سواي، والاهتمام بما ورائي، غير أنّه حيثُ تفرد بي همُّ نفسي دون همِّ النَّاسِ، وصدقني هواي، صرّح بي محض رأيي، فأمضى بي إلى جدّ لا يُزري به لعب، وصدق لا يشوبه كذب، وجدتك يا بُنَيَّ من بعضي، بل وجدتك من كلّي،

حتى كأن شيئاً لو أصابك أصابني ، وحتى كأن الموت لو أتاكَ
أتاني ، عناك من أمرك ما يعنيني من أمر نفسي ، كتبت إليك
كتابي هذا .

يا بُنَيَّ ، إن بقيتُ أو فُتيتُ ، فإني أوصيك بتقوى الله
- عزَّ وجلَّ - وعمارة قلبك بذكره ، والاعتصام بحبله ، فإنَّ الله
يقول : ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ، وَاذْكُرُوا
نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ، إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ
بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ (آل عمران : ١٠٣) ، وأي سبب يا بُنَيَّ أوثق
من سبب بينك وبين الله عزَّ وجلَّ - أخي قلبك بالموعظة ،
ونوره بالحكمة ، وقوه بالزهد ، وذلكه بالموت ، وقرره بالفناء ،
وحذره صولة الدهر ، وتقلب الليالي واعرض عليه أخبار
الماضين ، وسر في ديارهم ، وآثارهم ، فانظر ما فعلوا ، وأين
حلُّوا ؟ فإنَّك تجدهم قد انتقلوا من دار الغرور ، ونزلوا دار
الغربة ، وكأنَّك عن قليل يا بُنَيَّ قد صرت كأحدهم ، فبِع دُنْيَاكَ
بآخرتك ، ولا تبِع آخرتك بدُنْيَاكَ ، ودع القول فيما لا تعرف ،
والأمر فيما لا تكلف ، ومُر بالمعروف بيدك ولسانك ، وكُن من
أهله ، وأنكر المنكر بيدك ولسانك ، وباين من فعله ، وخُصِر

الغمراتِ إلى الحقِّ، ولا تأخذك في الله لومة لائم، واحفظ
 وصيَّتي، ولا تذهب عنك صفحاً، فلا خير في علم لا ينفع .
 واعلم أنَّه لا غنىَّ بك عن حُسنِ الارتِياد، مع بلاغك الزَّاد،
 فإن أصبتَ من أهلِ الفاقة من يحتمل عنك زادك، فيوافيك به
 في معادك، فاغتنمه، فإنَّ أمامك عقبةٌ كؤوداً، لا يجاوزها
 إلَّا أخفُّ النَّاسِ حملاً. وأجمل في الطَّلَب، وأحسن في
 المكتسب، فَرُبَّ طلب قد جرَّ إلى حرب، وإنَّما المحروب^(١) من
 حُرِّب دينه، والمسلوب من سلب يقينه. واعلم أنَّه لا غنىَّ
 يعدل الجنة، ولا فقر يعدل النار، والسَّلام عليك ورحمة الله .

وقال رضي الله عنه :

صُنِ النَّفْسَ واحملها على ما يزينها
 تَعِشْ سَالماً والقولُ فيك جَمِيلُ
 ولا تُرِينَ النَّاسَ إلَّا تَجَمُّلاً
 نَبَا بِكَ دَهْرٌ أو جَفَاكَ خَلِيلُ
 فإن ضاقَ رزقُ اليومِ فاصبرِ إلى غدٍ
 لَعَلَّ صُرُوفَ الدَّهْرِ عَنْكَ تَزُولُ

ولا خيرَ في ودٍّ أمريءٍ مُتَلَوِّنِ
إذا الرِّيحُ مالتُ مالَ حيثُ تَمِيلُ
جوادٌ إذا استَغْنيتَ عنه بِماله
وعندَ احتِمَالِ النَّائِبَاتِ بِخيلُ
فَمَا أَكْثَرَ الإِخْوَانَ حِينَ تَعْدُهُم
ولكنَّهُمُ في النَّائِبَاتِ قَلِيلُ
قال كُمَيْلُ بنُ زيادٍ: أَخَذَ عَلِيٌّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بِيَدِي ،
فأَخْرَجَنِي إِلَى نَاحِيَةِ الْجَبَّانَةِ ، فَلَمَّا أَصْحَرَتِ نَفْسُ الصُّعْدَاءِ ، ثُمَّ
قال : يَا كُمَيْلُ ، إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ أَوْعِيَةٌ ، فَخَيْرُهَا أَوْعَاهَا ،
يَا كُمَيْلُ ، احْفَظْ عَنِّي مَا أَقُولُ : النَّاسُ ثَلَاثَةٌ : عَالِمٌ رَبَّانِيٌّ ،
وَمُسْتَعْلَمٌ عَلَى سَبِيلِ نَجَاةٍ ، وَهَمَجٌ رِعَاعٌ ، لِكُلِّ نَاعِقٍ أَتْبَاعٌ ،
يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ ، لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ ، وَلَنْ يَلْجِئُوا إِلَى
كُلِّ وَثِيقٍ ، يَا كُمَيْلُ : الْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَالِ ، الْعِلْمُ يَحْرُسُكَ ،
وَأَنْتَ تَحْرُسُ الْمَالَ ، وَالْمَالُ تُنْقِصُهُ النِّفَقَةُ ، وَالْعِلْمُ يَزْكُو عَلَى
الْإِنْفَاقِ ، يَا كُمَيْلُ ، مُحَبَّةُ الْعِلْمِ دِينٌ يُدَانُ بِهِ ، يَكْسِبُهُ الْعِلْمُ
الطَّاعَةَ فِي حَيَاتِهِ ، وَجَمِيلَ الْأَحْدُوثَةِ بَعْدَ وَفَاتِهِ ، وَمَنْفَعَةَ الْمَالِ

تزول بزواله . والعلمُ حاكم ، والمالُ محكومٌ عليه ، يا كُمَيْلُ ،
مات خُزَّانُ المالِ ، والعلماءُ باقون ما بقي الدهرُ ، أعيانهم
مفقودة ، وأمثالهم في القلوب موجودة ، ثم قال : ها إنَّ هاهنا
علماً ، وأشار إلى صدره ، لو أصبتُ له حملةً ، بلى أصيبه لفتى
غير مأمون يستعمل آية الدين في طلب الدنيا ، ويستظهر
بحُجج الله على أوليائه ، وبنِعَم الله على معاصيه ، أو مُنقاداً
لحملة العلم لا بصيرة له في أنحائه ، يقدح الشكُّ في قلبه بأوَّل
ناعقٍ من شُبُهَةٍ ، ألا لا ذا ولا ذاك ، أفمن هو منهومٌ باللذاتِ ،
سَلِسُ القيادِ إلى الشهواتِ ، ومُغْرَمٌ بالجمع والادِّخارِ ، وليس
من دُعاةِ الدين أقربَ شُبُهًا به الأنعامُ ، كذلك يموت العلمُ بموت
حامله ، ثم قال : اللَّهُمَّ بلى لا تخلو الأرض من قائمٍ بحجةٍ ،
إما ظاهراً منشوراً ، وإما خافياً مغموراً ، لئلا تبطل حجج الله
وميثاقه ، وكم وأين أولئك الأقلُّون عدداً ، والأعظمون قدراً ،
بهم يحفظ الله حُججه حتى يودعها في قلوب أشباههم ، هجم
بهم العلم على حقائق الأمور ، فباشروا روح اليقين ،
واستلأنوا ما استوعر المترفون ، وأنسوا بما استوحش منه
الجاهلون ، صحبوا الدنيا بأبدانٍ أرواحها معلقة بالمحلِّ

الأعلى . يا كُمَيْل ، أولئك خلفاء الله في أرضه ، والدُّعاة إلى دينه ، هاه هاه ، شوقاً إليهم ، وإلى رؤيتهم ، وأستغفر الله لنا ولهم . انصرف إذا شئت .

وإذ قد تضمّنت هذه الوصية ذكر العلم ، وتعليمه ، وحملته ، فلنذكر العلوم الضرورية على الإنسان ، وما يلزم تبيدته وتقديمه منها في تعلّمه لها ، وأجعل ذلك خاتمة كتابي هذا تيمناً وتبرُّكاً بذكرها ، وتحريضاً على تعلّمها ونشرها لتعظم بها الفائدة ، وتكمل فيها العائدة .

فصل

قال الإمام أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن إسحاق الحافظ، رحمة الله عليه: اعلم أن أحق ما يلزم المرء تبديته وتقديمه تعلّم القرآن، فإن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ . . الآية (الإسراء: ٩)، وقال: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت: ٤٢) وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل: ٨٩) في كثير من الآيات يكثر تعدادها، ففيه، والحمد لله، الهدى الساطع، والنور اللامع، وشفاء الصدور، ومراهم القلوب، سراج لا يخبو ضياؤه، وشهاب لا يخمد نوره، وبحر لا يدرك غوره، المانع من الهلكة والبوار، والدال على سبيل الجنة والنار. من رزق علمه استغنى به عن كل علم، ومن علمه وتعلمه تعلم خير العلوم وأفضلها، وهو أقرب ما يتقرب به العباد إلى ربهم عز وجل.

عن الحارث الأعور، عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال : قيل لرسول الله - ﷺ - : إِنَّ أُمَّتَكَ سَتُفْتَنُ مِنْ بَعْدِكَ ، فسأل رسول الله ، أو سُئِلَ مَا الْمَخْرَجُ مِنْهَا؟ قال : «كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . مَنْ ابْتَغَى الْعِلْمَ فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ ، وَمَنْ وَلِيَ هَذَا الْأَمْرَ مِنْ جِبَّارٍ فَحَكَمَ بِغَيْرِهِ قَصَمَهُ اللَّهُ ، هُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ ، وَالنُّورُ الْمُبِينُ ، وَالصُّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ ، فِيهِ خَبَرُ مَا قَبْلَكُمْ ، وَنَبَأُ مَا بَعْدَكُمْ ، وَحَكَمُ مَا بَيْنَكُمْ ، هُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ ، وَهُوَ الَّذِي سَمِعْتَهُ الْجَنُّ فَلَمْ تَتَنَاهَ أَنْ قَالُوا : ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ (الجن : ١) ، لَا يَخْلُقُ عَلَى طَوْلِ الرَّدِّ ، وَلَا تَنْقُضِي عِبْرَهُ ، وَلَا تَفْنِي عَجَائِبَهُ .

ثم قال للحارث : خذها يا أعور ، فمن تعلّمه فليصبرْ على ما يعرض له دون تعلّمه ، ولا يكن همّه في تعلّمه إقامة حروفه ، دون القيام عند حدوده ، وليحذر من أن يتكبر فيه أو يأكل به ، ولا يترك قراءته ودرسه ليبقى له حفظه ، ولا يغفل عن القيام به في الليالي ، ويستعين على تحفظ

القرآن بقراءته دوراً مع الأصحاب والرُفقاء، ثمَّ لِيبحث عن علومه ومعانيه، وليحذر الكلام فيه بغير علم، وليحذر أن يتوانى فيه وينساه.

عن سعد بن عبادة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ: «ما من رجل يتعلم القرآن ثمَّ ينساه إلا لقي الله يوم القيامة أجذم».

ثمَّ الَّذي يتلو القرآن من العلوم سنن الرسول - ﷺ - فإنَّها الحكمة. قال تعالى: ﴿وما ينطق عن الهوى﴾ (النجم: ٣) وقال: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ (الحشر: ٧)، فمن أراد حفظ الأحاديث التي في الأصول الصُّحاح فليكن في طلبه للحديث محتسباً، صادق النِّيَّة، فإنَّ أهل الحديث خلفاء رسول الله - ﷺ - في أمته بعده.

عن ابن عباس - رضي الله عنه - قال: سمعت عليّ ابن أبي طالب رضي الله عنه يقول: خرج علينا رسول الله - ﷺ - فقال: «اللهم أرحم خلفائي» قلنا: يا رسول الله، ومن خلفاؤك؟ قال: «الذين يأتون من بعدي يروون أحاديثي، ويعلمونها للناس».

فإذا أحرز صدرًا من علم سنن الرسول - ﷺ - فليأخذ
في علم الفرائض ، فإنه ثالث علوم الدين ، وعليه المعول في
قسمه المواريث بين المسلمين ، والمختار من علم الفرائض
مذهب زيد بن ثابت الأنصاري .

عن عبد الله بن عمر ، قال : قال رسول الله - ﷺ - :
« العلم ثلاثة ، فما سوى ذلك فضل ، آية محكمة ، وسنة
قائمة ، وفريضة عادلة » .

فإذا أحكم علم الفرائض ، فليأخذ في الفقه ، فإنه علم
الحلال والحرام ، وهو عصمة في الدين ، وزينة في الدنيا ،
وبحسب الفقيه من المدحة قوله تعالى : ﴿ فلولاً نفر من
كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ﴾ (التوبة : ٩)
والذي يستحب للمتعلم من مذاهب الفقهاء مذاهب أهل
المدينة والحجاز .

عن معاوية بن أبي سفيان ، عن رسول الله - ﷺ - أنه
قال : « الخير عادة ، والشرُّ لجاجة ، ومن يُرد الله به خيراً
يفقهه في الدين »

ثم يتلو الفقه من العلوم، علم العربية والنحو، لأنه آله
لجميع العلوم، لا يجد أحدٌ منه بُدُّ ليقيم به تلاوة كتاب الله،
ورواية كلام رسول الله - ﷺ - لكيلا يخرج به جهل الإعراب
إلى إسقاط المعاني.

عن عمر - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله
- ﷺ - يقول: «رحم الله امرأً أصلح من لسانه».

ولياخذ بحظ من علم الغريب، ومعرفة اختلاف
اللغات، ففيه إذرَاب^(١) اللسان، وفصاحة المنطق، ومعرفة
المشكل، وبيان الغامض.

ثم ليعرف طرفاً من الشعر، فإنه ديوان العرب،
وموروث في الأعقاب والأخلاف، باقٍ مدحه وذمُّه،
لازمٌ خيره وشره، وفيه الشاهد الحاضر، والمثل
السائر، والذم والامتداح، والشرح والإفصاح، وبيان
غريب القرآن، ومعاني سنن الرسول عليه الصلاة
والسلام.

(١) إذرَاب اللسان: إفصاحه.

عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : قال رسول الله ﷺ : «إِنَّ مِنَ الشَّعْرِ لِحِكْمَةٍ» .

ثم ليتعلم طرفاً من الأنساب ، لما في علمه من اتصال الإنسان ، ومعرفة الأسلاف ، وفضائل الأشراف ، وبه تواصل الأرحام ، ويتوارث بنو الأعمام .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ، ﷺ : «تعلّموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم ، فإنَّ صلة الرَّحِمِ محبَّةٌ في الأهل ، مثرة في المال ، منسأةٌ في الأثر» .

ثم يتلو ما ذكرنا من معرفة علم الأنساب علم الطبِّ ، فإنَّه علم الأبدان ، وجوامع الطبِّ حفظ الصِّحَّة ، وتدبير الأمراض ، وشفاء الأسقام ، قد نطق به القرآن ، ودلَّت عليه السُّنَّة ، وافتقر إلى أهله جميع الأمة .

عن أبي سعيد الخدري ، عن النَّبيِّ - ﷺ - قال : «ما أنزل الله من داء ، إلَّا وأنزل معه دواء ، عِلْمُهُ من عِلْمِهِ ، وجهْلُهُ من جهْلِهِ» .

ثمَّ يتلو الطُّبَّ، الخطُّ والكتابةُ، فإنَّه سفير العقل،
وبه كمالُ الفضل، ورباط علوم الدِّين والدُّنيا، وبه تُحفظُ
الأثار، وتنفسحُ الأبصار.

عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «قَيِّدُوا العلم
بالكتابة».

ثمَّ ليتعلَّمُ عبارة الرؤيا، فإنَّه علم نبويّ، وبُشرى
علويّ.

عن عبادة بن الصَّامت، عن النَّبيِّ - ﷺ - قال: «رؤيا
المسلم جزءٌ من ستَّةٍ وأربعين من النُّبوءة».

ثمَّ ليتعلَّم الحساب، فإنَّه علمٌ لا غنى عنه، فيه خير الدُّنيا
والدِّين، ثابتُ الدَّلَّائل، واضح البراهين، به تُحفظُ الأموال،
وتُقسم الموارِث.

عن العرياض بن سارية قال: سمعت رسول
الله - ﷺ - يقول لمعاوية: «اللَّهُمَّ عَلِّمَهُ الْكِتَابَ
وَالْحِسَابَ، وَقِهِ الْعَذَابَ».

ثمّ الذي يتلو الحساب الذرعُ والمساحةُ، وهما من نتائج الحساب.

عن أبي سعيد الخدريّ أنّ قتيلًا أو ميتًا وجد بين قريتين، فقال رسول الله ﷺ: «قيسوا، فانظروا إلى أيّها أقرب»، فكاننيّ أنظر إلى شبر رسول الله - ﷺ - فألقاه إلى أقربهما.

فإذا تعلم ما ذكرنا من العلوم، فلا بأس أن يتعلم من جليل علوم النجوم، ومعرفة أعيان الكواكب ما به يعلم عدد السنين والشهور، وأوقات الصلاة، ومجاري الأهلّة، وساعات الليل والنهار، والبراري والبحار، قال تعالى: ﴿... وعلاماتٍ وبالنّجوم هم يهتدون﴾ (النحل: ١٦). وقال سبحانه وتعالى: ﴿الشّمس والقمر بحسبان﴾ (الرحمن: ٥). وقال: ﴿والقمر قدرناه منازلٍ حتّى عاد كالعرجون القديم﴾ (ياسين: ٣٩) وقال: ﴿كلٌّ في فلكٍ يسبحون﴾ (الأنبياء: ٣٣). وقال: ﴿والسّماء ذات البُروج﴾ (البروج: ١) وقال: ﴿وهو الذي جعل الشّمس ضياءً،

وَالْقَمَرَ نَوْرًا، وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لَتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِّينَ
وَالْحِسَابَ ﴿يُونُسُ: ٥﴾.

قال الحكماء: العلم كثير، والعمر قصير، فاطلب منه
دُعَاكَ إِلَى خَيْرٍ، وَحَمَلْكَ عَلَى بَرٍّ.

وقالوا: اقصد من أصناف العلم ما هو أشهى إلى
نفسك، وأخفُ على قلبك فإن نفاذك فيه على حسب
شهوتك له، وسهولته عليك.

فصل

وما ذكرنا قبلُ فهي من أصناف العلوم التي هي من حيز الدين ، ونتائج العقول . وأما العلوم المكتسبة التي هي من محاسن الأفعال ، وتلبس أصحابها ثوب الجمال ، وهي أيضاً مُستحسنة في الدنيا والدين ، فكالرّمي ، والسباحة ، والفروسية ، والثّقافة ، والعلم في المحاربة .

فأما الرّمي فالتّشاغل به من التّجارات المربحة النّجحة . ومن المنقول في تأليفنا «تحفة الأنفس» : اعلم أنّ التّرغيب في الرّماية روي عن عقبة بن عامر ، قال : سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول : «وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة، ألا إنّ القوّة الرّمي» . وكان عليه الصّلاة والسّلام يعجبه أن يكون الرّجل رامياً ، فارساً ، سباحاً .

وقال عليه الصلاة والسلام «علّموا أبناءكم الرمي ، فإنه نكاية للعدو» .

وقال - عليه الصلاة والسلام - لقوم من الأنصار رأهم يرمون : «ارموا يا بني إسماعيل ، فقد كان أبوكم رامياً» .

وقال - عليه الصلاة والسلام - : «مَنْ رمى بسهم في سبيل الله مُخطئاً أو مصيباً ، كان له الأجر كرقبةٍ أعتقها من ولد إسماعيل» .

وعن عليّ بن أبي طالب - رضي الله عنه - أنه قال : ما سمعت رسول الله - ﷺ - فدى أحداً غير سعد بن أبي وقاص ، فإنه قال له يوم أحد : «ارم فِداك أبي وأمي» . وفي ذلك اليوم قال رسول الله - ﷺ - لسعد ، ولأبي طلحة ، وقتادة ، وغيرهم من الرُّمّة : « أثبتوا فلن يزال النصر معنا ما ثبتُّم » . وكان عدد الرُّمّة في ذلك اليوم خمسة عشر رامياً .

وقد فضّل الله تعالى القوسَ على كُلِّ الأسلحة .

عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : ما مدَّ النَّاسُ أيديهم إلى شيءٍ من السِّلَاحِ ، إلَّا وللقوس عليه فضيلة»

وقال - عليه الصَّلَاة والسَّلَام - : «مُتَّهَى الْمُؤْمِنُ الْقَوْسُ وَالنَّبَلُ» .

والقِسيُّ جنسان : قوسُ اليد ، وهي العربيَّة ، وتنقسم على أنواع . وقوس الرُّجل ، وهي الإفرنجيَّة . وتنقسم كذلك على أربعة أنواع .

فالقوس العربيَّة أنسب للفارس لأنَّها أسرعُ ، وأقلُّ مؤونةً ، والقوس الإفرنجيَّة أنسب للرُّجال لأنَّها أبلغ وأكثر معونةً ، ولا سيما في الحصار ، والمراكب البحريَّة ، وشبه ذلك . وهي خاصَّة بأهل الأندلس ، بها يصيدون ، وعنها يرمون ، وفيها يتنافسون ، وعليها يعتمدون فرساناً ورجالاً .

وأما السِّباحة فهي من الخصال المحمودة . نقل الإمام أبو نُعَيْم بسنده إلى أبي رافع ، قال : رسول الله - ﷺ - : « حَقُّ الْوَلَدِ عَلَى الْوَالِدِ أَنْ يُعَلِّمَهُ كِتَابَ اللَّهِ وَالسِّبَاحَةَ وَالرَّمْيَ » .

وقال رسول الله - ﷺ - : «نِعْمَ لَهُوَ الْمُؤْمِنُ الرَّمِيُّ،
وَالْعِيَامَةُ وَمَنْ تَرَكَهَا كَانَتْ نِعْمَةً جَحْدَهَا» .

وقال رسول الله - ﷺ - : «كُلُّ شَيْءٍ مِنْ لَهُوَ الدُّنْيَا
بَاطِلٌ ، إِلَّا مَلَاعِبَةُ الرَّجُلِ أَهْلَهُ ، وَتَأْدِيبُهُ فَرَسَهُ ، وَرَمِيهِ عَنْ
قَوْسِهِ ، وَتَعَلُّمُهُ السَّبَّاحَةَ» .

قال بعض الحكماء : «مِنْ تَمَامِ مَا يَجِبُ لِلْأَبْنَاءِ عَلَى
الْآبَاءِ تَعْلِيمُهُمْ : الْكِتَابَةَ وَالْحِسَابَ وَالسَّبَّاحَةَ» .

وقال الحجاج بن يوسف لمعلم ولده : «عَلِّمْ وَلَدِي
السَّبَّاحَةَ قَبْلَ تَعْلِيمِ الْكِتَابَةِ ، فَإِنَّهُمْ يَجِدُونَ مَنْ يَكْتُبُ عَنْهُمْ ،
وَلَا يَجِدُونَ مَنْ يَسْبِحُ عَنْهُمْ» .

وأما الفروسية ، فهي أفضل الأعمال وأشرفها .

ومن المنقول في تأليفنا «تحفة الأنفس» : قال
رسول الله - ﷺ - : «مَنْ خَيْرَ مَعَاشِ النَّاسِ لَهُمْ رَجُلٌ
يُمْسِكُ عِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً ،
أَوْ فَرْعَةً ، طَارَ عَلَى مَتْنِهِ يَبْتَغِي الْمَوْتَ مِظَانَهُ» .

قال ﷺ: «طوبى لعبد أخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة، كان في الحراسة، وإن كان في الساقة، كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يُشفع».

وقال - ﷺ - : «ارموا واركبوا».

وعرضت عليه - ﷺ - الخيل، وعنده عيينة بن حصن الفزاري، فقال - عليه الصلاة والسلام - لعيينة: «أنا أفرس بالخيل منك».

وكتب عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - إلى أهل حمص: علموا أولادكم السباحة، والرماية، والفروسية، واخشو سنوا، وانزوا على الخيل نزواً.

وقال أسلم - مولاة - : رأيتُ عمر - رضي الله عنه - يمسك بأذن نفسه، ثم يمسك بأذن فرسه، فينزو عليه.

وكان يُقال قديماً: العز في صدور الصُّوف.

وقال بعض السلف: غزا المسلمون أرض الروم، فمرّ فارس منهم إلى جانب صومعة راهب، فقال الراهب:

يا صاحب الفرس ، أَمِنَ المتطوِّعة أنت أم من أهل الديوان؟
فقال : بل من المتطوِّعة ، قال له : ومالك والديوان؟ فإنَّا
نجدهم في بعض كتبنا أنَّهم عدَّة الله في الأرض .

وقال مكحول : روعاتُ البعوث تقي روعات يوم
القيامة .

وقال أبو ذرَّ الحُثَني :

بَقَاءُ الدِّينِ والدُّنْيَا جَمِيعًا

بِكُلِّ مُسْقَاتِلٍ ثَبَتِ الْجَنَانِ

إِذَا شَهِدُوا الحُرُوبَ رَأَيْتَ أَسَدًا

تَهْشُ كِرَامَةً نَحْوَ الطَّعَانِ

هَمْ بِبَيْضٍ وَفِي الْإِيمَانِ بَيْضٌ

فَمَا تَدْرِي مَنِ السَّيْفِ الْيَمَانِي

وَأَمَّا الثَّقَافَةُ والعِلْمُ فِي المَحَارِبَةِ ، فَمِنْ الوَاجِبِ المُؤَكَّدُ

تَعَلُّمُهَا .

من المنقول في تأليفنا «تحفة الأنفس» :

اعلم أنَّ الحربَ معالمُها الصَّبرُ، وقُطبُها المكرُ،
ومدارُها الاجتهادُ، وثقافتُها الأناةُ، وزمامُها الحذرُ، ولكلِّ
شيءٍ من هذه ثمرةٌ، فثمرَةُ الصَّبرِ التَّأييدُ، وثمرَةُ المكرِ
الظَّفَرُ، وثمرَةُ الاجتهادِ التَّوفيقُ، وثمرَةُ الأناةِ اليُمنُ، وثمرَةُ
الحذرِ السَّلامةُ.

وقالوا: جسمُ الحربِ الشَّجاعةُ، وقلبُها التَّدبيرُ،
وعينُها الحذرُ، وجناحُها الطَّاعةُ، ولَبانُها المكيَّةُ، وقائدها
الرِّفقُ، وسائقُها النُّصرُ، فإذا قاتلتَ فلا تبذلَ مُهْجَتَكَ
وقوَّتَكَ من أوَّلِ وهلةٍ، لئلا يأتِيَ معظَمُها فتعجزَ وتكلَّ،
ولا تنشبَ في حربٍ، وإن وثقتَ بِشِدَّتِكَ حتَّى تعرفَ وجهَ
التَّخَلُّصِ منها، فمن استضعفَ عَدُوَّهُ فقد اغترَّ، ومن اغترَّ
بقوَّتِهِ فقد وهنَ، والحازمُ يحذرُ عَدُوَّهُ على كلِّ حالٍ: الموائبةُ
إن قَرُبَ، والغارةُ إن بَعُدَ، والكمينُ إن انكشَفَ،
والاستطرادُ إن ولى.

وقد قالوا: لتكن أشدَّ ما تكونُ من عَدُوِّكَ حذرًا ما كنتَ
عندَ نفسِكَ أكثرَ قُوَّةً وعدداً، فليس من القُوَّةِ التَّورُّطُ في
الهوَّةِ.

قال هُذبة العُدريّ:

ولا أتمنّى الشرَّ والشرُّ تاركِي

ولكن متى أحملُ على الشرِّ أركبِ

ولستُ بمفراحٍ إذا الدهرُ سرَّني

ولا جازعٍ من صَرفه المتقلبِ

وقد جمع الله سبحانه تدابير الحرب كلها في آيتين
من كتابه العزيز فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً
فَانْتَبِهُوا، وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. وَأَطِيعُوا
اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ
رِيحُكُمْ، وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾
(الأنفال: ٤٥-٤٦).

وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ
قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦]. فقولُه - عزَّ وجلَّ - : ﴿مَا
اسْتَطَعْتُمْ﴾ مشتملٌ على ما في مقدور البشر من
العدة، والآلة، والحيلة. وفسَّر النبي ﷺ القُوَّةَ
بالرَّمي، وقد تقدَّم ذلك.

عن أسامة بن زيد الليثي، قال : كان النبي ﷺ -
إذا غزا أخذ طريقاً، وهو يريد أخرى ، ويقول : «الحربُ
خَدْعَةٌ» .

وكان المهلب يقول لبنيه : عليكم في الحرب بالمكنة،
فإنها أبلغ من النجدة، وفسر بعضهم النجدة فقال : النجدة هي
الجرأة على الإقدام عند ازورار الأقدام .

قال عتبة بن عتبة السلمي : أعطاني رسول الله - ﷺ -
سيفاً قصيراً، فقال : إن لم تستطع أن تضرب به ضرباً، فاطعن
به طعناً

قال بعضهم : ومن شرط السيف ألا يسئل إلا عند
الضرب به، وإن سل قبل ذلك أورث الجبن، وليس في
السلاح ما يجب أن يحذر عند العمل به كالسيف، فقد
وُجد كثير ممن عمل به بغير حذر، ولا دُرْبة، أصاب أذن
فرسه أو عضده، وربما أصاب أذن نفسه، أو رجليه فقطعها،
أو أثّر فيها، فينبغي للفارس أن يتمرن في الضرب به حتى
يخف عليه العمل به .

وأما الرُّمَح فينبغي للفارس أن يخففه ما قدر، فإنه على الخفيف أقوى، وله أضبط، وبه أحكم، وليكن بين الدقيق والغليظ قدر ما لا يعجز عنه الكفُّ، ولا تلتقي عليه الأنامل، فالتوسط هو المحمود بحسب قدر اليد، والتمكّن من ذلك.

قلت: وأحكام العمل بالسلاح لا يتساوى الناس فيه، فالتفاوت بينهم في ذلك شديد، والتباين فيه بعيد، فيجب على العاقل أن يشاهد من أهلها الأعمال، ويحاضر بها الرجال، يأخذ بحظ من الثمر في مع من يراه أهلاً لذلك ممن يصطفيه، حتى يعرف كيفية الطعن والضرب والثقافة في السلاح بالحرب، ووجوه العمل في الكرّ، والفرّ، والامتناع، والدخول على المبارزين، والخروج عنهم في المطاعنة، والمصارع، وملاحظة مواقع السهام، وأوقات الإقدام والإحجام، واستراق الأرض في المبارزة، واستدبار الشمس عند اللقاء والمناجزة، والمراوغة والعطف في القتال، ودقائق ذلك ولواحقه عند النزال،

وترصد غرة العدو في حال الحركة، والهدوء، أو خلع
عذار الفرس، أو قطع عنانه، لينشغل الفارس بأمر فرسه
وشأنه، فيتمكن منه في الحين، وتظهر الفرصة فيه
وتستبين، ومن لم يتمرن في ذلك فلا تغره نفسه بأن
تسلك به هذه المسالك، ففي معرفة ذلك كله، وإمعان
النظر فيه يتفاضل الفرسان، مع الاستثبات وجرأة
الجنان، وشدة الحذر عند منازعة الأقران، ومنازلة
الميدان، والله - جلّ وعلا - في كلّ حال هو المستعان.
قال أبو الطيّب

إنّ السّلاح جميع النّاس يحمله

وليس كلّ ذوات المخلب السبع

فهذا ما كتبه قلم الاستعجال على ضيق المجال،
إذ الخاطر منقسم بين مراوضة طبع، ومحافظة على أصل
وفرع، ونظر في أمر دين، ومسألة قرين، ومداواة
حاسد، ومدافعة معاند، وتأديب ولد، وملاحظة عادة
بلد، وسياسة أهل في استصحاب العلم، وعدل وتدبير
معاش، وإعداد رياس، وإصلاح حال، وفكرة في مآل،

ومعاناة دهر في صروف عام وشهر ، وفي هذا كله عذر إن
وقع تقصير ، ولا ينفرد بالكمال إلاّ العليم الخبير ،
سبحانه وتعالى ، لا ربّ سواه ، ولا معبود إلاّ إيّاه ،
والحمد لله ربّ العالمين .

فهرس الكتاب

الصفحة

المقدمة أ - ب - ج	٣
خطبة المؤلف ١	٩
القسم الأول : في نبذ من الأحاديث والحكم والأمثال التي يقوى الشاهد بها ويعظم الاستدلال	١٥
فصل إن	١٧
فصل إنما	٢٢
فصل إن	٢٤
فصل ما	٢٦
فصل لا	٢٩
فصل إياك	٣٥
فصل إذا	٣٨

الصفحة

٤٥	فصل مَن
٥٠	فصل ليس
٥٣	فصل رُبَّ
	فصل الأعداد المذكورة قبل في الأحاديث والحكم والشعر
٥٥	فصل واحد
٥٧	فصل اثنين
٦٠	فصل ثلاثة
٦٦	فصل أربعة
٧٢	فصل خمسة
٧٥	فصل ستة
٧٧	فصل سبعة
٧٩	فصل ثمانية

٨١	فصل تسعة
٨٣	فصل عشرة
	القسم الثاني : في السؤدد والمروءة ومكارم الأخلاق ومداراة الناس والتأدب معهم في حالي الغنى والإملاق
٨٥	
٩٤	الفصل الأول : في الأدب
١٠٤	الفصل الثاني : في المروءة
١١٢	الفصل الثالث : في المال
١٢٢	الفصل الرابع : في التحجب إلى الناس ومداراتهم ..
	القسم الثالث : في طرف من الحكايات والآداب الصادرة عن أولي الألباب والأحساب
١٢٩	
	الفصل الأول : في الأخبار التي تتعلق بذوي الأمانة والسياسة
١٣١	

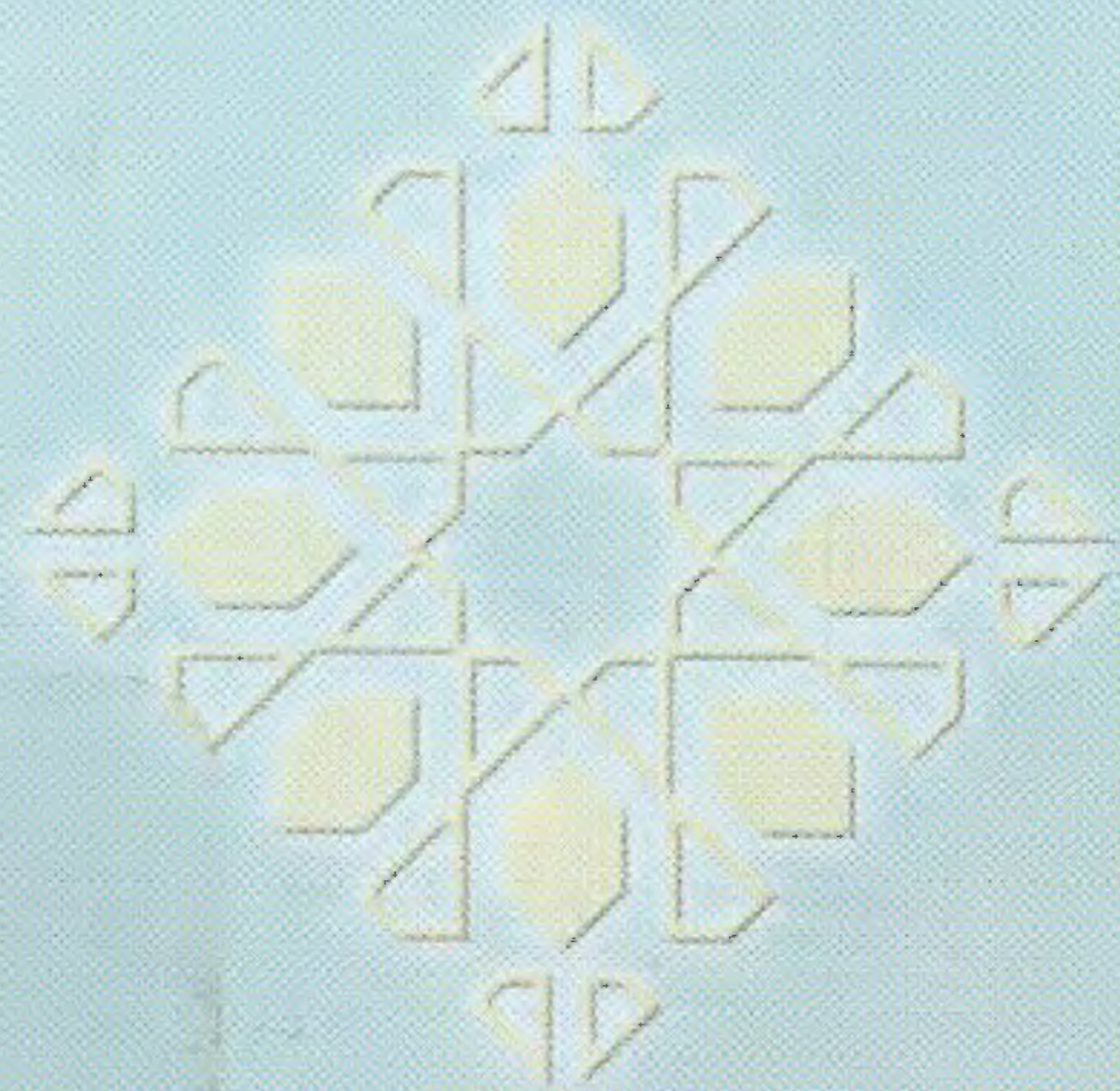
الفصل الثاني : في الأخبار التي تتعلق بذوي الهمم	
والرياسة	١٤٥
القسم الرابع : في جمل من الوصايا والمواعظ	
الحسان العظيمة الفائدة والمنفعة لكل إنسان .	١٦٩
فصل في مواعظ النبي ﷺ ووصاياه ، ومواعظ	
السلف الصالح ووصاياهم ، وغيرهم من	
العلماء والحكماء	١٧٣
فصل في المنقول من تذكرة من اتقى	١٨٣
فصل فيما قاله بعض العلماء	١٩٧
فصل فيما قاله بعض العلماء	٢٠١
فصل فيما قاله عبد الله بن المبارك	٢٠٥
فصل فيما رواه ابن عباس عن النبي ﷺ وغيره من	
الصحابة	٢٠٩
فصل في وصايا النبي ﷺ لابن عباس - غيره	٢١٥

الصفحة

- فصل من المنقول من كتاب «تذكرة من اتقى» ٢٢٦
- فصل من المنقول من كتاب «مقالات الأدباء» ٢٢٩
- فصل : في وصية يونان لابنه حين حضرته الوفاة
- ووصايا للقمان وغيره من السلف الصالح . ٢٣٤
- فصل من مكاتبة بعض الملوك والحكماء بعضهم
- لبعض ٢٥٦
- فصل في وصايا بعض العلماء والحكماء ٢٦٣
- فصل في تعلم القرآن ٢٦٩
- فصل في أصناف العلوم المكتسبة وأنواع السلاح . ٢٧٨

الطبعة الأولى / ٢٠٠٥

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة



Bibliotheca Alexandrina



0600372

في الأقطار العربية ما يعادل ٣٤٠ ل.س



٢٠٠٥

سعر النسخة داخل القطر ١٢٠ ل.س